الطبعة الثانية



رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية
٢٤

الآمال صارت آلاماً

رواية من الأدب التركي
فازت بالجائزة الثانية في مسابقة الرابطة

د. نور الله كنج

نقلها إلى العربية
د. عوني لطفي أوغلو

العبيكان
obeikan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كنج، نور الدين

الآمال صارت آلاماً/ نور الدين كنج. ط٢ - الرياض، ١٤٣٠هـ

٣٠٠ص ؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٤-٧٧٣-٢

١-القصة التركية أ - العنوان

ديوي ٨٩٤,٣٣٠٣ ١٤٣٠/٤٣٨٩

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٣٨٩

ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٤-٧٧٣-٢

الطبعة الثانية

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمــز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمــز ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

السنة ١٩٧٩ ميلادية:

غيوم الفوضى التي تلبِّد سماء تركيا. تمطر البلاء بدلاً من الرحمة. والطلاب دُفِعوا إلى قلب هذا البلاء الذي عمّ القطاعات كافة من قريب أو بعيد. كثيرون خاضوا الأحداث، فانقلبوا أعداء لأصدقائهم، واندفعوا في هياج إلى مصير مجهول، لا يفكرون فيما يعملون..

أمس انقضى ومضى، واليوم فقاعة بلاء، والغد مجهول!

صباح العاشر من نوفمبر (تشرين الأول):

محمد فؤاد اختلى بنفسه، متنفساً الهواء النقي أثناء المسير في شوارع الجامعة. لقد ترك صالة الشاي في مسكن الطلبة – القسم الثاني، ليتخلص من الصخب والتلوث والسطحية.. تخلصه من دخان السجائر وتنفس الهواء النقي يُعد مكسباً!.

توجه نحو كلية إدارة الأعمال منعطفاً من مستشفى الأبحاث، فمرّ بجانب كليتي الطب والزراعة إلى موقع الباص في مواجهة مبنى الرئاسة، بقصد النزول إلى المدينة.

محمد فؤاد كثيف الشعر والشارب أسودهما، أزرق العينين، ولد في مدينة (أشقله)، وأنهى ثانوية «الأئمة والخطباء» في «أرضروم»، وعمل إماماً في مساجد (نغدة) ثلاث سنوات، ثم عاد إلى «أرضروم» لحصوله على مقعد في الجامعة. مختلف عن غيره، قليل التكلم، يهتم بعالمه الخاص، لا يحشر نفسه فيما لا يخصه، ولولا هذه الصفة فيه لسقط في أحضان الفوضى.. ولولا تحصنه بصفة الامتناع عن الخوض فيما لا يعنيه لما بقي سالماً في الحياة.

حصل على القبول في كلية الآداب - قسم الأدب التركي، القسم الذي يلائمه تماماً.. الأحاسيس والمشاعر الأدبية لو تجسّدت حية تسعى على الأقدام، لشَعَرتْ بالوحدة واليتم، مثله تماماً!، كثيراً ما يفكر: «هل الإنسان تغير، أم العصر؟» وكان يجيب نفسه عن تساؤلاته، أو يجد جوابها عند أساتذته.

«كل عصر متكامل بذاته. لكن كيف أُمسك بتلابيب التكامل في هذا العصر؟». كان يبدو كفيلسوف بمثل هذا التفكير..

بينما كان يمشي على حاله هذه.. ناداه أحدهم بصوت عال:

- محمد فؤاد..!

توقف، والتفت بعد تردد إلى جهة الصوت. لمح شخصاً خلال الأشجار بجوار كلية إدارة الأعمال. أمعن النظر في الوقت الذي نهض المنادي متوجهاً إليه..

نظر محمد فؤاد بدقة وإمعان إلى (ذو الكفل) ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى:

(ذو الكفل).. أهذا أنت؟

على عكس جسامة محمد فؤاد، يبدو (ذو الكفل) ضئيلاً، وعلى عكس وسامته يبدو قليل الحظ فيها.

- أهلاً (ذو الكفل).. خيراً؟

- خرجت من مسكن الطلبة لاستنشاق الهواء النقي، فأطرقت مفكراً تحت هذه الشجرة.

- فيم تفكر؟

- هل تود أن نمشي معاً؟

- ياللسؤال!!

- أحياناً ألتزم اللياقة، وليس دائماً! ثم..

وركل (ذو الكفل) حجراً في الطريق.

- ثم أنت من نوع آخر. أُحسُّ أني أتغير حينما أكون معك..

- أخشى أن تعني أني من النوع «التطوري!» و «الثوري!»

- دع هذه الأمور يا عزيزي. كنت تحت الشجره أفكر..

- في أي شيء تفكر؟

- في «من أكون؟»

تنفس محمد فؤاد شهيقاً منشرحاً، وقال:

- ها نحن كلنا بشر!!

مسح (ذو الكفل) أنفه بظهر كفه بعصبية.. وتكلم في نبرة غاضبة:

- هنا العقدة المستعصية.. الإنسان! حسناً.. ما الإنسان؟ لماذا ولدت؟ ماذا أفعل؟ لماذا يختلف كل فرد عن غيره؟ لم أنا هكذا؟

قطع محمد فؤاد استرساله في نبرة قلقة:

وفي الوقت نفسه أنت مسلم؟!

هز (ذو الكفل) رأسه يمنة ويسرة وأطلق كفيه في الفراغ.

– يا أخي الأمور معقدة.. معقدة!. كل شيء في ضباب، كل شيء خلف زجاج جامد..

توقف برهة ليفكر.. ثم اندفع قائلاً:

– أخبرني: ما الفرق بين المسلم وغير المسلم؟!

أصيب محمد فؤاد في الصميم.. وجاش فيه الجانب الفلسفي:

– إنك لن تعرف جودة قلم إلا بعد استعماله، ولن تعرف لذة طعام إلا بعد الذوق، ولن تعرف ما يوجد في مبنى مجهول إلا بعد الدخول فيه. اسمع (ذو الكفل)! لو أمضيت في المساجد أو مع الذين يعمرون المساجد ١٪ من وقتك المهدور في المقاهي، لتكسر الزجاج الجامد وانقشع الضباب أمام ناظريك.. أحسبك تريد اتهام أُناس لا تعرف عنهم شيئاً؟!

تلفَّت (ذو الكفل) متعجباً:

– يا هذا! هل تظنني أعيش في روسيا؟ إني بين ناس مسلمين! أنا ابن أبوين مسلمين! ونشأت بين مسلمين! هؤلاء الجامعيون، أيهم يقول: أنا كافر؟! كلهم مسلمون.. وهنا شيء لا أفهمه، ما الفرق بين جامعة ألمانية وجامعة تركية؟! والأدهى أن لأولئك مزايا يتفوقون بها علينا.. هذا مالا أفهمه!

– رويدك.. رويدك!

– لا.. المنافع المادية تنتصب أمامي أينما حللت كالجبل.. ومفاهيم القيم الإنسانية تتوارى خلف تلك المنافع، لا أفهم ما الذي يجري! المال صار كل شيء في الحياة.. لا أفهم شيئاً..

- رويدك.. صبراً (ذو الكفل).. من يرانا يظننا نتشاجر، وقد يسمعك سامع في هذا الجو المشحون، فيفسر أقوالك على غير وجهها.

- نعم.. نعم، ويحسبني من رجال فئة ما، فيقوِّمني بحد السلاح، أليس كذلك؟ آآآه.. لا أفهم ما الذي جرى.

ضرب بقبضته على ركبته، ثم أخرج منديلاً فمسح فمه وأنفه:

- كم كان شوقي للدراسة في الجامعة! ها أنا في الجامعة، ولم أعثر على ضالتي فيها. المباني الصماء تنتصب أمامي كأنها قضاة استجواب .

وبدأ بالضحك. أراد أن يقول شيئاً أثناء الضحك، ولم يقدر أن يتم الجملة، نظر إليه محمد فؤاد وشاركه الضحك، كيف تحول ذاك الجو المشحون إلى هذا الجو المرح؟

وأتم (ذو الكفل) الحديث:

قضاة استجواب حقيقيون يسألوننا: ماذا تدرسون؟ لِمَ تدرسون؟! ما الحقيقة التي تبحثون عنها؟ هل تبحثون عن أسماك المعرفة الحقيقية في بحر العلوم، أم تبحثون عن شيء يضمن حياتكم ويؤمن عيشكم؟

ثم غرق في ضحك موصول:

- أم.. أم تبحثون..

لم يستطع إتمام الحديث.. هذه الحال أعجبت محمد فؤاد، فقد بدا له أن هذا الجو أفضل من طرح الآراء العشوائية، كان هو يضحك أيضاً.

وأكمل (ذو الكفل) الجملة:

- أقول: تبحثون! نحن نبحث عن الطعام! إنه الفقر يا أخي، فقر

شامل. أب فقير، أم فقيرة، أقرباء فقراء! لا يوجد شيء نملكه، جئت إلى المدينة وبهرجها ولا مال عندي.. لا يوجد شيء! هل أنا موجود؟!

وضحك:

- لكنني موجود.. هذه أمور سيئة.

- أُهنئك (ذو الكفل).. أنت تفكر، اليوم تتساءل، وغداً ستبحث عن الجواب.

- هل أستحق تهنئة على التساؤلات؟ مجرد أمور تهب على عقلي فأتساءل عنها.

- يُقال: إن السؤال باب العلم.

- توسعت عينا (ذو الكفل) مندهشاً وحدِّة في وجه محمد فؤاد:

- تتحدث عن باب العلم، ونحن في مركز العلم؟

- السؤال، والشك، والنفي، والإنكار ليس علماً يا (ذو الكفل).

العلم ما يُطَمْئِن عقلَ الإنسان وقلبه. العلم ليس محصوراً بين جدران الجامعة.. سطح الأرض جامعة. والعلم يطلب من المهد إلى اللحد، ما أكثر السامقين في أعلى مراتب السمو بالعلم. والإسلام «خاصة»، ربّى كثيراً من الأولياء والأصفياء والأئمة والعلماء والأساتذة، حتى يمكن الادعاء أن الإنسانية وقفت على أقدامها بفضلهم. إن استمرارية ١٤٠٠ سنة من التاريخ الإسلامي يضم في طياته حقائق مكنونة عظيمة، فما من فضيلة ينسبها غير المسلمين إلى أنفسهم إلا وتجد جوهرها في آية أو حديث. في اعتقادي أن أساس المسألة هو حجاب الجهل الفاصل بين

الإسلام، والمسلمين! نعم، نحن مسلمون - يا (ذو الكفل).. مسلمون جميعاً، لكني عاجز عن ادعاء ذلك وإعلانه بملء فمي كما تفعل أنت.

اندهش (ذو الكفل).. لم يسمع كلاماً مثل هذا فيما سبق، لذلك لم يفقه شيئاً مما سمع، فقال:

- معظم الأوقات يغمرني جنون.

- ما السبب؟!- لا أدري؟!

انقطعا عن الحديث إلى أن بلغا مبنى الرئاسة.

وخرق محمد فؤاد الصمت:

- أنوي الصعود إلى الباص من هنا.

- كما تريد، وأعود أنا إلى سكن الطلبة لآخذ قسطاً من النوم. ثم أذهب إلى الكلية.

- طيب، نلتقي في القاعة إذن.

افترقا، ابتعد (ذو الكفل) حتى اختفى عن الأنظار، أثناء ابتعاده، حوَّل محمد فؤاد بصره خلفه مرات عديدة وهو يردد في نفسه «في هذا الرجل شيء غريب!». ثم حول نظره إلى جبال (بالان دوكن) متأملاً المنظر أمامه، إلى حين قدوم الباص..

مساحة من أشجار السرو تتوسع ما استطاعت ابتداء من مباني الكلية، ثم تمتدُّ أرض عارية بلا أشجار من نهاية السرو إلى سفوح (بالان دوكن)، حيث تجثم قرية (تلسزلر)، مساكن عديدة ومسجد. (الوطن أولاً) كلمتان تطلان على المدينة من سفح الجبل الكبير في

سلسلة (بالان دوكن) مكتوبتان بالأحجار وبأحرف كبيرة. ترنحت ورقة شجرة في الهواء برهة، ثم استقرت على الأرض. أكوام من الأوراق الصفراء اليابسة تتكوم على الأرصفة، استلبها الخريف من أنواع الأشجار السامقة على امتداد شوارع الجامعة كأنها زخرف، وكانت أشجار الصنوبر الكبيرة والصغيرة تبتسم ابتسامة ناضرة، والمنصتة إلى حفيف النسيم كما ينصت المرء إلى لحن جميل، أحياناً تتحمس ورقة فتقفز نحو الريح.. ثم تهدأ وتسكن في الأرض.

التفت إلى مباني الجامعة وطاف ببصره عليها.

مبانٍ بطوابق ثلاث أو أربع تجثم في الفراغات أينما وجدت، متوزعة عن اليمين وعن الشمال بشكل مخطط، كوحوش إسمنتية عملاقة، الشبابيك الجنوبية منها تمتص أشعة الشمس جرعة فجرعة.. في محاولة للإحساس بالدفء، مبنى الرئاسة في الوسط، ثم جنوباً وغرباً مباني الكلية ومستشفى الأبحاث، وشرقاً بيوت العاملين، وجنوباً أقسام الخدمات ويتميز مستشفى الأبحاث ذو الطوابق العشرة بأنه أعلى المباني. إلى الجنوب من بيوت العاملين: مسجد الجامعة ذو المنارتين، يفرض خصوصية بارزة بين هذه الأبنية كلها، بمنظره الحبيب النقي، قبته الضخمة الناهضة كالبشير ملقياً تحية دائمة على الحياة في وقار، يشرح الصدور المؤمنة بإنشائه في الجامعة ويدير ظهره للشمس باسطاً يديه بالدعاء متوسلاً إلى اللّه كأنه غائب عن الوعي وجداً: إلهي.. احفظ الإسلام.»

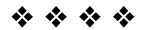
وفي غرب المسجد مباشرة مباني مؤسسة إسكان الطلبة ثم مسكن الطلبة، ومن خلف مسكن الطلبة يمتد طريق ملتو إلى قصبة (جات) خفض نظره إلى الساعة في يده، فتموج شعرهُ الأسود ثم رجع هادئاً كما كان.

اقترب الباص فأعدّ البطاقة، وأشار إلى الباص كي يتوقف. توقف بجَلَبَةٍ واضحة، فصعد، وتحرك مرة أخرى بعد أن جلس في مقعد خال.

وَرَدَ (ذو الكفل) على ذهنه «يجب أن أهتمَ به..» واستمر يحادث نفسه مع تسارع حركة الباص. «أساس مشكلتنا أن إنساننا لا يفكر.. فهو إن فكر سيبحث عن سبب الأخطاء فيما يجري، ويشخص الجراثيم المسببة لهذا الغثيان الاجتماعي، فيكافحها، ويتوصل إلى سر تخديرنا بأخطاء متتالية، فينشط في الاتجاه الذي تحتمه اليقظة، ويفدي بروحه إذا تطلب الأمر لنشر راية الحب الدافئ فوق سارية القلوب»..

نزل من الباص في محطة (يونجالق).. المنطقة تشبه ينبوعاً يتدفق بالبشر، فالازدحام عند الصباح الباكر قي منطقة (يونجالق) شيء معتاد، لأنها مركز وسائط النقل. الموظفون والعمال والطلبة يتوجهون من البيوت إلى هذه المنطقة قاصدين بلوغ مآربهم أو أماكن عملهم... الباصات والسيارات لا تتوقف لحظة عن الذهاب والإياب.. وسيارات الأجرة تصطف منتظرة في صف طويل،

اندس هو في الازدحام المتلاطم، فضاع فيه مع أفكاره.



الفصل الثاني

غرفة في مسكن الطلبة، جدرانها مطلية بدهان أبيض، شبّاكها بلا ستائر، على حافتيه نباتات متسلقة خضراء، تسعد بأشعة شمس العصر النافذة بوداعة من خلال الزجاج المواجه للجنوب. أربع أسرة.. أربع خزائن للملابس.. وكان فوقها حقائب محكمة الإغلاق. على كل سرير من الأسرة المرتبة بعناية فراش وملاءات ووسادة وشرشف. أنابيب التدفئة المركزية تستقر قريباً من الشباك وعليها إناء ماء أحمر اللون، حيث تتركز نظرات (ذو الكفل) في لحظة تصارعه مع الأفكار.

السرير الثاني على يسار الغرفة لزميل (ذو الكفل) في الصف (مصطفى فَنّدِك) من مدينة (بولو)، والسريران الآخران على يمين الدخول لطالبين في معهد التعليم لا يلتقي بهما كثيراً، هما (أحمد) من مدينة (قارس) ونوري من مدينة (يوزغات).

كلهم الآن غائبون عن الغرفة غير (ذو الكفل) الممتد على السرير الأول غارقاً في الأفكار:

«أيُّ عالم هذا الذي يزداد ظلاماً وقتاماً؟! أي عصر هذا الذي يحترق فيه اللطف والحسن في الأعماق ويتفحم؟! وتزدان الرذائل والقبائح فوق الرؤوس كالتيجان؟! ويُنتظر فيه التحطم والضياع في كل لحظة؟! ويصير السمو والنهوض خيالاً وَوَهماً؟!

الحب قذارة، النظرات مريبة، العواطف متوحشة، الرغبات مخيفة، النوايا سيئة، أرواحهم أشواك، وقلوبهم زقوم، عديمو الرحمة، أنانيون مشاعرهم متبلدة، حائرون وتائهون.

عصـر تُرِكْنا فيـه منفردين في مـواجهـة عقارب الأحـزان الجاثمـة فوق أرواحنا، وفـي مـواجهـة القلق، والخـوف، والاغـتراب عن النفس يوماً بعد يوم باسم الحضارة..

عصر تتسـابق الأرواح فيه نحو الرذيلة والخسران، ابتـعدنا عن الخير والصـدق، ونسـينا إنسـانيـتنا، لقـد صـرنا أعـداء لمن يمد يده لإنقـاذنا، وأصـدقـاءً لمن يحطم سـواعدنا.. نهـرب بلا التـفـات إلـى الخلف، لا نلوي على شـيء، نهـرب من أنفسنا وذواتنا، من الجـمال المفطور، فينا بالولادة، من النقاء، من الصفاء، من الضياء، من الزهـور، نهـرب..

هذا الهروب ليس سوى تخبطا في لُبِّ الفوضى.

والأدهـى أننـا فقـدنا القـدرة علـى التـفكيـر، ومن يسـتطيع أن يتـريث برهة للتـفكيـر في كل مـا يجـري؟! صــار من المحـال على أكـثـر النـاس النجـاة من الطوفـان المخيف الـهائج في قلوبهم، لأنهم يضعفـون ويذوبون في تخبطهم المحتدم اليائس.. الخلاص محال!

دولابنـا الدائر فــيــه خلل! نفـوسـنا تعـفـنت. ولن تتــحـقق العــدالة الاجتماعية ما دمنا.. هكذا.»

نهض من الفراش، بعد ترتيب الغطاء، أقفل خـزانته، ثم خرج من الغـرفة إلى صالة الشاي. كانت الصالة خالية إلا من بعض الطلبة والعمال.

الصـالة واسعـة شيئـا ما، فيهـا قـريباً من عشـرين منضدة ذات أربعـة كـراسي، وقسـم مخـصص لموقـد الشـاي وبيع المواد الغـذائيـة، ومـا قـد يحتـاجه الطـلاب من لوازم ومـأكولات. مكبـرات الصوت علـى الجـدران تبث الأغاني الشعبية الرائجة. رائحة الدخان تفوح في الصالة.

بعـد أن شـرب كـوباً من الشـاي غـادر مـسكن الطلبـة مع أذان العـصـر المنادي للصـلاة في مـسـجـد الجـامـعـة، خطـر له خـاطر كـالبـرق في لحظة للتوجه إلى الصـلاة.. فطرد الخـاطر من ذهنه: «ومن يرغب في الخوض في مثل هذه المتاعب؟ وهل يُهدر الشبابُ في زوايا المساجد؟ أنا لا ألتزمُ صومَ رمضان بصورة صحيحة، فلمَ أصلي؟! قد أفكر بالصلاة في المشيب..»

ألقى بسيجارة (بتليس)(*) التي دخنها النصف إلى حافة الطريق.

وبدأت أمـواج الصـراع تتـلاطم مع مـا في نفسـه حين اسـتـعـاد الأفكار التي ناقشـها أثناء اسـتلقـائه على ظهـره في الفـراش قبل مغـادرة مـسكن الطلبـة «ألسـت أنا أيضـاً إنسـاناً شـوكيِّ الروح؟ نـعم. من المؤكد أن روحي حـادة كـالشـوك! «أحسُّ بشـيء من الانشـراح للـتفكيـر المحـايد الإيجـابي، لكن الانشراح لم يمنع عنه الوجل والخـجل: «اللعنة.. لا أحد يفعل شيئاً للـخـلاص مـن هذا الوضـع المنهـار. كل فـرد يعـيش في عـالمه الخـاص، وينشـغل بترميم سـقف بيـته فـقط. والسـيـاسـيون جـمـيعـاً يعـملون من أجل منافعهم الخاصة، ولسان حال كل منهم يقول: ما ضرني الثعبان الذي لا يلدغني إن عاش ألف سنة؟ وماذا يهمـه إن لدغ الثعبان (ذو الكفل) وقتله بالسم؟ الشــبــعــان لا يبــالي بـالجــائع، ولا السليم بـالمريض ولا المـاشي بالواقف، ولا الحـي بالذي يجـاهد حـتى يحـيـا!؟ ولا الغني يعـرف بحـال الفـقيـر، ولا العـالـم يعـرف بحـال الجـاهل. المهم أن تُبـحـر السـفن.. ثم لا يبالي أحد بالغرقى الساقطين في البحر أثناء الإبحار.

اقـترب من باب كلية الآداب. نزل سلمـاً على الطريق في سـرعـة، وتعثـر في الدرج الأخير فكاد أن يسقط.. ولما امـتدت يده لتلامس بطنه تذكر أنه

(*) بتليس: نوع من السجائر الرخيصة، (المترجم).

جائع. أقفل أزرار (الجاكيت)، وعدل ربطة العنق القديمة الباهتة اللون، مر بجنبه عدد من الأصدقاء، ناداهم فجأة بصوت عال كالصارخ:

- بشرى يا أحباب..

توقفوا بدهشة. فسأله (راسم) من مدينة (إسبارطة) في حماسة:

- ما البشرى؟ هل صدرت أسماء المستحقين للسُلف؟

أجاب (ذو الكفل):

- لا.. لا يسرحنَّ بكم الخيال. أردت أن أبشركم بأني سأكون أتخم رجل في العالم مستقبلاً رغم أني جائع اليوم أكثر من أمس!

قال: راسم

- هكذا إذن؟! سنعيش على فتات خبزك يوم ذاك!

ضحكوا منه.. وتابعوا السير هازّين رؤوسهم في حيرة، وتحدثوا بينهم، لكن (ذو الكفل) لم يفقه شيئاً من الحديث، إذ ابتعدوا عنه.

«آه من الفقر. نقودي تكاد تنضب.. إلى زوايا الإنشاءات من جديد، إلى أكياس الإسمنت من جديد!.. آه.. آه، يا (نالان).. »

ويتابع السير على الرصيف لغاية نقطة التقائه بالطريق الإسفلتي، يسير بشكل غير معتاد، فهو يدوس أحياناً متعمداً على الأوراق الصفراء، ويرفس حيناً حجارة صغيرة في الطريق، نظراته تطيش هنا وهناك بغير ثبات، وشفتاه اللتان يمضغهما ترتعشان بين آن وآخر ثم تسكنان. في مثل هذه الأوقات التي تضيق فيها نفسه، تبدو الخطوط المحيطة بعينيه أكثر وضوحاً.. يداعب حافات (الجاكيت) بالأصابع،

ويمضغ شفتيه. تنهش روحه رغبة عنيفة من أجل نسيان الأحزان كلها، وإيجاد الجواب الشافي على الأسئلة التي تخنقه وتقطع فؤاده. في مثل هذه الأوقات يَنْتُفُ اللحظات من الزمن شعرة فشعرة، أثناء صراعه الوحشي مع العواطف والرغبات القاسية، يعلم حق العلم أن ما ذكره لراسم شيء سخيف، لكنه شيء ألقاه على عواهنه ومضى... « يا للغباء! أتخم رجل في العالم! بشراي الوحيد للناس اليوم، وغداً: هو أني أجوع أكثر كلما مرّ يوم جديد!..

هذا الأسلوب في التفكير قاده، بلا سبب واقعي، إلى قناعة بأن المستقبل لا يَعِدُهُ بغير الآلام، فاهتزت بالرعشات التي سَرَت في بدنه.

«ينبغي إذن، أن نكافح العمر كله لتحطيم اختلال التوازن، وإلا سيبقى الجياع جياعاً إلى الأبد.. والمتخمون متخمين إلى الأبد».

دفع باب الكلية، فانبعث صرير، ودخل، انتزعه من غمار الحديث مع نفسه تذكُّرُ الفتاة التي أثارت اهتمامه منذ أن رآها، ثم علم فيما بعد أن أباها صاحب معمل، فظل يتابعها كالولهان يتخيل أنها ليست غريبةً على عينيه وكأنه التقى بها في مكان ما.

خواطر جديدة خطرت له وهزت كيانه كالمصعوق بتيار كهربائي:

«لا شيء يهم ما دامت غنية..»

كان يسبح طائراً على فرس الآمال في وديان الخيال، توقف أمام الصندوق الخشبي المقسم إلى «خانات»، مد يده إلى إحدى «الخانات» بحثاً عن رسالة، ولا يزال يحلم: «ياالله.. شقة سكنية رائعة.. وعيش هنيء.. و(نالان) تحوم حولي في غنج كفراشة بيضاء..».

وتذكر الجوع فاختفى فرس الأحلام، واختفى عالم الخيال، احتد: «سحقاً.. بطني الجائع يمنعني حتى من التخيل والأحلام. والحق، لا جدوى من الخيال والأحلام..».

يعلم أن الأحلام لن تتحقق، لكن رغماً عن الإحساس بالجوع لا يستطيع أن يمنع نفسه من خوض غمار الحلم، لأن الأحلام تنسيه ثقل الحياة على كاهله، وآلامه، وتعبه، وقلقه.

لم يعثر على رسالة في «خانة» الحرف «ذال»، فانتقل إلى خانة الحرف «نون» قرأ على ظرف اسم (نالان يلكن)، الفتاة التي يحبها - كما يظن - فارتبك، وبحركة سريعة دسَّ الرسالة في جيبه وابتعد.. دخل إلى صالة شرب الشاي، واستلم كوب الشاي بعد تقديم بطاقة الشراء، ثم جلس على منضدة، شرب الشاي بعدة رشفات متتالية، تقلصت أسارير وجهه: «بارد وسيئ، يمكن أن يسمى أيَّ شيء ما عدا الشاي!.»

صالة الشاي في الكلية بسعة الصالة في مسكن الطلبة تقريباً.. على الجدران المصبوغة باللون الوردي لوحات ملونة وجميلة جداً. تتجمع حول المناضد مجموعات مختلفة، فتيان وفتيات، يتحادثون أو يلعبون الشطرنج. وتجد أيضاً من انزوى يتأمل المنظر من خلال الشباك بصمت. أو من يَدُلُّ وقوفه بلا حركة على انغماره في عالم الخيال اللانهائي. الدخان الكثيف، وضحك يخدش الأسماع أحياناً،.. أول شيء يجلب الانتباه عند دخول الصالة.

أَحس بوجل حين أخرج الرسالة.. يداه ترتعشان! اطمأنّ قليلاً حينما قرأ اسم المرسلة (عائشة دوران)، غير أن الشعور بالخجل من القيام

بعمل خاطئ وعذاب الضمير يزعج روحه، لا يمكن أن يكون حبه سبباً في فتحه الرسالة على الإطلاق، ما أقبح الاطلاع على رسالة امرئٍ غريب! ألحّ عليه شعور الخجل إذ لم يجد تفسيراً مقنعاً لتصرفه، لكنه قد تخبط وخاض هذا العمل، فليتمه: «ما دمت قد أخذت الرسالة، سأقرؤها ..».

فتح الرسالة فوق ركبتيه.. فقرأ:

«١٨/١٠/١٩٧٩

العزيزة نالان:

أن أكون فداك، أصغر تضحية لا أتأخر عنها، الجميع يقرّ أنك أجمل فتاة في كلية الآداب، أما في نظري فأنت أجمل نساء الدنيا. لا أنت ولا غيرك يعرف بحبي - مثل مجنون ليلى - لجسدك الخارق وروحك الغامضة كسرٍ من الأسرار .

أنا دون مَلِكةٍ مثلك مشهورة في الجامعة كلها، لكن حبي المسكين: الذي اجتاز الرومانسية، حقيقة لا يمكن إخفاؤها.. لن أتخلى إلى الأبد عن هذا الحب الطاهر الذي يسيل في قلبي كالشلال.. إلى الأبد! أتوسل إليك: هَبي لي قليلاً من الأمل.. أرجوك نالان، كيلا أتحطم!.

راسم»

وتحركت ذئاب الحقد الوحشية في داخله..

- يا للعجب!

وفَغَرَ فاه دهشةً. هذا أمر لم يتوقعه قط. أقرب أصدقائه في الكلية

متعلق – مثله – بالفتاة نفسها. والأدهى أنه أوفر حظاً في الوصول إليها، لأنه غني!

أظلمت الدنيا في عينية حين تصور (نالان) جنباً إلى جنب مع راسم. رغماً عن ادعائه أنه ليس غيوراً، ها هو يغار، يغار غيرة وحشية عندما يمس الموضوع منفعته الذاتية.. أحس بحسد مفرط نحو راسم. المسألة ليست هينة كيلا يغار أو يحسد.. إنها الرغبة في أن يكون حبيب نالان، كلا.. لن يغفر لأي إنسان، حتى لصديقه، أن يحتل موقع حبيب نالان، بل يقتله.. يفعل أي شيء ليهشم أيادي الغرباء ويدفعها بعيداً عن حدود حبيبته. وفي الواقع أن يده غريبة عنها أيضاً، وليس له حق الاطلاع على رسائلها مهما يكن المرسل.. هذه الحقيقة واضحة عنده، إلا أن تفكيره لا يستقر عليها، بل يتبدد في اتجاهات أخرى رغماً عنه، لأنه يتعذب في اللحظة التي يواجه ضميره. هذا طبعه الدائم.. يبدد أفكاره في أشياء متنوعة حينما يحاسبه ضميره، وفي الحالات النادرة التي ينصت لنداء الضمير، يقع فريسة كآبة مخيفة.

«تعساً لك «راسم»! هل يتوسل إنسان هذا التوسل لفتاة حتى لو كانت مشهورة في الجامعة كلها بجمالها؟! تعست رجولتك! يا لك من ذليل، مخاتل، إبليس. كيف لم تسأل إن كان أحدٌ يحبها؟»

لا يمكن أن يثق بالناس، هذا أقرب أصدقائه يكتب رسالة غرام إلى الفتاة التي يحبها بغير خجل.

راجع نفسه وتمالك مشاعره، حينذاك أدرك أنه غير منصف، فمن الطبيعي أَلَّا يعرف صديقه بحبه للفتاة نفسها «بلؤم ذكي استعار اسم

(عــائشــة دوران).. مع ذلك، لماذا انحط هـو إلى سـفـالة الاطلاع على رسالة إنسان آخر؟!

«الآن، وقد قضي الأمـر، لا فائدة من لوم النفس» تكدَّر ذهنه وثارت فيه المشاعر المفترسة الظمآنة إلى الدماء، أو ما يمكن أن نسميه ذئاب الحقد التي تكبر كلما مضى يوم من حياته، وتكثر كلما انسحق، وتعظم كلما أحس بالظلم الاجتماعي، ولقد اتَّهم نفسه وحكم عليها أنه إنسان شرير يستحق أقصى العقوبات، وأن الظالمين لهم الحق في استغلال النفوس الخبيثة مثل نفسه!..

أيُّها أجدر باللوم: تعلق أقرب أصدقائه بالفتاة التي يحبها؟ أم الاطلاع على رسالة لا تخصّه؟ المعادلة صعبة.. في الواقع أن الرسالة تخصه، لكنه كان يجهل ذلك حتى فتحها!!.

الآن قضي الأمـر.. اللوم والندم لا ينفع، لقد اجتاز نقطة اللاعودة، هذه أول مرة يُقدِم فيها على عمل دنيءٍ منذ دخوله الكلية، روحه القذرة - كما يظنها - توسخت أكثر من قبل.

«حقارة حقيقية. سقوط لا يرتكبه إنسان سوي.. أنا مخاتل جبان، وعفريت مخيف بعيد عن الحب والسعادة يسعى إلى تحقيق مآربه القذرة مستغلاً غيره، حتى لو ارتكب جرائم رهيبة في السر والخفاء..».

نصائح الكبار المكررة في طفولته بعمل الخير والابتعاد عن الشر، الثابتة في اللاوعي، تبرز مع غيرها من بقايا القيم من حيث لا يشعر حين يحاسب نفسه، فتكون سبباً لتحقير ذاته ساعة مواجهة الضمير.. ثم تذبل هذه القيم وتذوي في خضمّ المشاغل اليومية، في اللحظات

التي يقتنع أنه مذنب، تملؤه روحية الإصرار على ترك الذنوب، ثم يذوب ذلك الإصرار كالجليد بغير أثر يخلفه.. لأنه لا يستند إلى قاعدة ثابتة أو مفهوم متين يردع عن ارتكاب أعمال دنيئة، ما عدا بعض المعالم الضئيلة من مفاهيم الحب، والرأفة، والعطف على المضطهدين. ومهما يكن تفكيره، يقرر في النهاية دائماً أنه على حق. منطقه الأعوج ينتصر على الوجدان والضمير.. هذه الصفة من أبرز صفاته، وهي نتيجة طبيعية لإيمانه الراسخ بسلامة منطقه دائماً.

«يا لها من سخافة عظيمة، ولِمَ أَسْتصغِر نفسي؟ من الطبيعي أن أحب فتاة حسناء من الفتيات المنتشرات على وجه الأرض! ولا يعيب هذا الحب أن تختلط به منفعتي الشخصية قليلاً.. خصوصاً أن «نالان» جميلة.. جميلة وثرية!.

وصولي إليها يعني إنقاذ عائلة.. فكرة مشروعة رائعة لمواطن عادي مثلي يسعى لإنقاذ عائلته. إذا أنقذ كل مواطن عائلته ينجو المجتمع كله. لماذا ألوم نفسي إذاً وأستصغرها؟ من وجه آخر: كم من الناس يراعي حقوق غيره؟ وكم من الناس لا يحرص على كشف أسرار لغيره؟».

برقت عيناه لهذه التحولات الجديدة في تفكيره واطمأنت نفسه، إذ وجد أسباباً سليمة لتصرفاته! احتسى كوباً آخر من الشاي لمّا أحس بالطمأنينة والراحة. بحثت عيناه يميناً وشمالاً، كأنّ الجميع غارقون في الأحلام، «راسم» يغادر الصالة، ربما يَفرحُ بظنه أن الرسالة وصلت .. همس:

- حتى أنت يا «راسم»؟ أنت أيضاً في أثرها؟!

«رسالة غرام باسم (عائشة دوران)! (عائشة دوران) و (راسم دورمز).. ما أروع التآلف في اللقب! لقد وقعت في الفخ.. مرت الرسالة بالرقابة.. أحمق، تربية دلال!..

أطلق ضحكة أو ضحكتين قبل الانتباه إلى بعض من يلحظه من الجالسين في الصالة لوضعه غير الطبيعي، فآثر محادثة نفسه في السر:

«أنا أترك زهرة مثل «نالان»؟ وهل أنا أبله إلى هذه الدرجة؟ بل أزيلك من الوجود، ولا أرحم دموعك حتى لو كنت أقرب أصدقائي، جمالها ومالها لي أنا وحدي!..»

من عادته أن يسترسل في حديث النفس بغير عائق.. فلا رقيب عليه ولا سامع. فهو لا يحب أن يسمع إنسان حديثه، خصوصاً حينما يتحدث عن الأغنياء، لأنه يخاف الأغنياء ولا يخاف الفقراء.. فتراه إذا ثار على إنسان فقير يلقي الكلمات إلى مداها بلا تردد حتى بين كثرة مزدحمة من الناس، ثم يغادر مسرح الغضب بأداء بطولي! أما إذا أثاره غني، فيدعي البطولة أيضاً، ولكن بينه وبين نفسه! لا على ملأ من الناس.. لإيمانه أن المال يستطيع أن يمارس كل الأعمال القذرة، فالمال يشتري القتلة المأجورين، ويُلقي في السجون، ويَضرب، ويقتل.. ما الذي يصد المال أو يقف في وجهه؟!

هو (راسم دورمز) في الصف نفسه. تعارفا في صالة سكن الطلبة وأسسا صداقة قوية، أحياناً يعتاش (ذو الكفل) عليه لأنه موسر.

(راسم) من مدينة «إسبارطة» حصل على مقعد في جامعة أتاتورك - كلية الآداب بأرضروم، وقدِم إلى هذه المدينة تحدوه آمال عريضة.. هدفه في الحياة أن يعيش بأحسن وجه، ابن عائلة ثرية لا يخشى الجوع

أو قلة المصروف، القاعدة التي توجهه أن يدرس ويتمتع في الوقت نفسه بالأيام مع الفتيات الجميلات.. ولهذا كتب الرسالة إلى «نالان» رغماً عن ذلك، يحدث نفسه «يبدو أني سأعشق «نالان» صدقاً إذا استمر الحال معي هكذا! ويعمل في مجال السياسة أيضاً، بل ويخطط ليكون رئيساً لجماعته في الكلية. بلغه من أصدقائه الذين يؤدون الخدمة العسكرية في أرضروم، اشتهار فتيات شرق البلاد بالحسن والجاذبية، وقد رجّح الدراسة في «أرضروم» بتأثير الرغبة في اختيار إحداهن رفيقة حياة. لكن رغبته في فتيات شرق البلاد تتلاشى شيئاً فشيئاً في مواجهة حب (نالان) حقيقة.. وقد عبّر عن شيء من هذا في الرسالة.

أما (نالان) فهي من إستانبول. في الواقع أن أصول عائلتها من (قارس)، وقد هاجرت العائلة منذ سنوات بعيدة إلى إستانبول، لذلك تَعُدُّ نفسها إستانبولية تماماً، أبوها صاحب مصنع (يلكن) للخيوط النسيجية في (باقر كوي) من أحياء «إستانبول»، حيث يعمل قريباً من مئتي عامل فيه. (نالان) أيضاً بلغها اشتهار شباب الشرق بالقوة والجرأة والوسامة، وكان هذا في بالها حين رجحت الدراسة في «أرضروم». وقد تعرفت فيما بعد على شاب اسمه «موسى» من خلال الجمعية وأعجبت به، لكن الظروف لم تسمح باللقاء به مرة أخرى، فظلت تتذكره أحياناً، في ذلك اللقاء القصير كان «موسى» قد عبر لها عن إعجابه بها، بل أومأ بحبه لها أيضاً.. ثم لا تعرف لماذا اختفى تماماً. لعل الجمعية كلفته بمهمة في مكان ما؟! لكنها على يقين من شيء: أن تسجيل دراسته في أرضروم حسبما أخبرها موسى في اللقاء.. ستبحث عنه هنا في أرضروم.

«ينبغي أن يعيش الإنسان في راحة ويتمتع بحاضر يومه، لأنه لابد ميت. الدين لم يعد مهماً كالماضي.. والالتزام بالسخافات القديمة في العصر الحديث ليس إلا تعصباً نابعاً من الجهل. سأعيش مدى العمر لأبرهن على إمكان السعادة بغير طأطأة الرأس لقواعد الدين. أحلى شيء في الحياة هي الحرية، والحرية توجد حيث لا يكون الإنسان أسيراً لأي قوة..»

هذا ملخص أفكارها، لكنها تبدو غير واثقة تماماً من تلك الأفكار، بل مرتابة فيها.

«وماذا لو كان الدين حقاً؟ والبعث بعد الموت حقاً؟ والجنة والنار والحساب؟» تخاف وتتوجس.. فتفهم أنها ليست حرة مادامت تخاف وتطأطئ الرأس للخوف. مع ذلك، (نالان) تقر أنها لا تعرف عن الدين شيئاً، وأنها تلصق التهم بالدين جزافاً لتواكب زملاءها، قرأت القرآن في طفولتها فقط. ولا تذكر الآن شيئاً من القرآن سوى أسماء الأحرف العربية، إذ لم تمسك في يدها القرآن منذ أيام «قارس».. ابتعدت عن القرآن، وتمادت في الابتعاد بمرور الأيام، حتى صارت تلتذ بالابتعاد، تلتذ من التخلص من أعباء التكاليف الدينية، تلتذ من إسكات صوت العقل والضمير بإلصاق التهم بالدين جزافاً، وبالعيش على هواها، بل تكتئب حينما تتذكر أن أباها كان - ولا يزال - يصلي الجُمع، أو أنها كانت تقرأ سورة (يس) ليالي الخميس في صغرها على جدتها الأُمِّية. أما أمها: فهي كما تحب وتشتهي، فإنها تنصح ابنتها أن تعيش على هواها، ولهذا تفضلها على أبيها وجدتها.

غير أنها لا تدري كيف تفسر تلفظها غير الإرادي للبسملة كلما تأوي إلى الفراش؟ تماماً مثل أمها، ينفرج عن شفتيها (بسم الله الرحمن الرحيم) كل ليلة حينما تسحب الغطاء على بدنها.

وتعود صباحاً محتقنة بفكرة: أن الإنسان يجب أن يعيش حراً من القيود! كم تود أن يؤمن الجميع بهذه الفكرة ويطبقوها؟ ومساءً يرد عليها تذكر الموت فتتخيل اللحظة التي لا تعيش فيها، وتخرج بذلك من دائرة رغبتها في التحرر من القيود كلها، كأسيرة للخوف من الموت!. وهكذا تتكرر الأيام..

انتبهت إلى (راسم) منذ الأيام الأولى للدراسة، وأدركت مدى تذلله وتمسحه من كثرة المديح الذي يوجهه إليها.. ولم تبخل هي بالصداقة عليه، لكي تحقق مكاسب يولدها وضع (راسم) السياسي، رغماً عن تعلقها بذكرى «موسى» الذي تعرفت عليه في إستانبول، إذا اشتهرت الصداقة بينهما، ولهذا تنتهز الفرص للظهور معه هنا وهناك، هذا التوجه القوي شجع «راسم» على كتابة الرسالة، من وجه آخر، لم تكن (نالان) تشعر بوجود (ذو الكفل) قط، على عكس (ذو الكفل) وظنه أن عينه تألف صورتها من مكان ما!

«سيحصل.. ستعرفينني عن قرب يوماً ما يا (نالان)»

وبعد أن قرأ الرسالة ثانية، مزَّقها وألقى بها في سلة المهملات. ضحك وكأنه يكتم الضحك:

«المهم أن (راسم) فشل. هذا أقل ما يصيب غبياً يضع في البريد رسالة مليئة بالأسرار، سأكتب أنا رسالة وأضعها في جيب نالان بيدي،

وأكتم عن الجميع، حتى عن نالان نفسها، تلك الرسالة ليست لراسم ولا تعبر عن مشاعره، لأنه استعار الجمل من غيره، الآن وضح سبب شرائه لكتاب (رسائل الحب والغرام)! راسم الأحمق. في أي حلم يعيش الآن؟ ليحلم كما يريد، ستكون نالان لي. سأسلك كل السبل للوصول إليها، فلن أجد بسهولة فتاة جميلة وثرية أخرى.. لابد أن أتزوجها، لابد أن أنقذ عائلتي من هذا البؤس المخيف - سيكون لنا نصيب من معمل الخيوط، حماي - ويضحك في السر - لن يتطلع إلى حالنا البائس مغلول اليدين كالبوم..».

أسند فكه بكفيه وغاص في بحر الخيال:

«السعادة هي حياة تسعد الإنسان حتى بالحزن!»

آه.. يا دنيا، أين السعادة؟

ما أشد رغبتي في الانسلال من مشاكلي والخلاص من حالة منتصف العيش بين الجوع والشبع، والحصول على ما أريد، وتخليص عائلتي والإحساس بلذة الحياة.. ما أكثر الأمور التي لم أنلها في الدنيا. النقود، المركز الاجتماعي، المرأة، الشهرة، الثراء.. إني أخسر نفسي وينقضي عمري هدراً.. شيء مخيف.. مخيف جداً. لا بد من حل سهل.. لكن كيف..؟

كأني على شفا الجنون، أضطرب في فضاء مليء بالكآبة والقلق والتشاؤم والألم، السعادة بعيدة المنال عني، في قمة شاهقة أتسلق إليها فأزلق وأسقط، وعندما أسقط إلى الهاوية أفقد ذاتي.

التوازن مختل في كل شيء.. الناس كلهم يصعقهم خوف عظيم من تدحرج الحياة نحو اختلال أكبر في التوازن، ويكبر هذا الخوف مع كل يوم جديد..

التوازن يختل، الأقوياء يبتكرون وسائل أقسى لاضطهاد الضعفاء وسحقهم، والضعفاء يسعون بشتى الوسائل لقهر الأقوياء.. ومن المحال تصور حماية الأقوياء للضعفاء، ومحبة الضعفاء للأقوياء في ظل هذا الخلل.

النظام الذي وضعه الله من غير أي خلل، الله.. هل تذكرت الله؟ وأحسب نفسي مسلماً! خسارة! يا ضيعتي في نفسي؟ وماذا أعرف عن الله؟ ماذا أعرف غير اسمه وأنه خالق الموجودات؟ هذا ما يعرفه أي مسيحي أو يهودي أيضاً! «ما اختلافي عنهم إذن؟ ما الفرق بيننا؟»

انسلخ من التخيلات وأحاديث النفس حال دخول «محمد فؤاد» ورفيق غرفته إلى الصالة. أشار إلى «محمد فؤاد» للجلوس معه، فسلما عليه وجلسا، طلب «ذو الكفل» ثلاثة أكواب من الشاي، نظر إلى «محمد فؤاد» وأشار إلى مصطفى سائلاً:

– من أين تعرفه؟

أجاب محمد فؤاد على السؤال بسؤال من نفس النمط.

– بل من أين تعرفه أنت؟

– نحن في الغرفة نفسها.

– ونحن تعارفنا في صالة الشاي، وأحسسنا بالتآلف كما هو الحال معك، فتصادقنا في زمن قصير.

تخلص (ذو الكفل) من ضيق الوحدة الحلزوني وعاد إليه مرحه.. سَرَتْ بسمة من عينيه إلى وجهه كله وقال:

- رائع.. ثلاثة أصدقاء أوفياء يدرسون في صف واحد.. رائع حقاً.

هز «محمد فؤاد» و«مصطفى» رأسيهما بالإيجاب.

«مصطفى» شاب يميل إلى السمنة، طوله فوق المتوسط قليلاً، كستنائي الشعر، عسلي العينين منتفخ الخدين، في حنكه رصعة ظاهرة، قوي العضلات، أنيق الملبس، شعره مشطور إلى نصفين بخط فوق حاجبه الأيسر، يدهنه بدهن ملمع ظاهر للعيان، تفوح منه رائحة عطر قوي، يرتدي طقماً بلون بني مخطط وقميص أبيض وربطة عنق سوداء، توجه إلى (ذو الكفل) و«محمد فؤاد» قائلاً

- حصل عراك أمام كلية الزراعة، تشاجرت المجموعات اليمينية فيما بينها مرة أخرى!

هز (ذو الكفل) كتفيه، وصاح بصوت حاقد:

- لينهش بعضهم بعضاً ماداموا يرغبون في ذلك!

وضح «محمد فؤاد» رأيه بهدوء، وأسارير سمحة، وصوت دافئ:

- أليس من الأولى أن يوضح أحدهم الحقائق لأولئك؟

بادر (ذو الكفل) بالكلام فظهر صوته أكثر حدة:

- كل فئة تدعي أنها تحتكر وحدها ما تسميه حقائق!

أجاب «محمد فؤاد» بصوته المؤثر الدافئ:

- الأشياء لا تكتسب صفة الحقيقة بمجرد الادعاء.. وهؤلاء بمثل هذهِ الأعمال يناقضون الحقيقة بغير إدراك.

تساءل (ذو الكفل) في شك:

- وكيف؟

- كلهم مؤمنون.. كلهم مسلمون.. ثم يتشاجرون! كل فئة تدعي أنها على حق قبل البحث والفهم العميق للإسلام، وقبل تثبيت الأهداف وتعديل الوسائل حسب معاييره. الحقيقة ليست هذه، حسب المعيار الإلهي: إنما المؤمنون إخوة. يجب أن يتكاتفوا في صف واحد، وأن لا يتخاصموا، وحينما يتفرقون، فإنهم يتحركون عكس الحقيقة الإلهية، وهذا ما يجب أن يعرفوه جيداً.

- حسناً.. ومن يعلمهم ذلك؟

أشار «محمد فؤاد» إلى نفسه و «ذو الكفل» و«مصطفى»:

- أنا.. أنت.. هو، كل من يعي أوضاعنا كما هي، كل مسلم يدرك السبب الأساسي لآلامنا.

حدَّق (ذو الكفل) في أعماق عيني فؤاد، وهز رأسه بسلبية:

أنا مشغول بالبحث عن طريقة أشبع بها بطني.. ولا أجد فراغاً لمثل هذه الأمور.

مصطفى الذي كان يستمع حتى هذه اللحظة بإعجاب إلى الحديث، تَدَخَّلَ بشيء من الحدة.

- الإنسـان لا يعيش لشبع بطنه فقط.. للإنسـان أعضاء أخرى عدا المعدة..

أجاب (ذو الكفل):

- أنت على حق.. لي قلب، ولي روح.. ولكن مـعـدتي هي الجـائعـة وليس قلبي وروحي! أتظن أني أعمل السبت والأحد أسبوعياً للتسلية؟

كلا.. بل لكي لا أتسول، من البدهي ألا تدرك هذا!

أسلوب (ذو الكفل) لم يعجب «مصطفى» قط.. ولعله كان سيثور لولا تدخل «محمد فؤاد».

- العمل امتياز عظيم، أنا أيضاً عملت ردحاً من الزمن في البناء، ومناجم الحجر، والمقاهي والأفران، وغسل الأواني في المطاعم. العمل لا يعيب الرجل، وعلى المرء -إذا أراد أن يحيا بشرف-، أن يعمل ما بوسعه، وإلا فما معنى إنسانيته؟

هل كـانت هذه الدمـاء تسيل في بلادنا لولا العـاطلون الذي يملؤون الأرصفة؟ هل كانت البنوك تُسلب والناس تُقتل؟ لا..

- قال (ذو الكفل):

- كيف؟ أن تعمل بحكم الضرورة والاضطرار، وتبحث عمن تفهِّمه الحقائق؟ أيمكن الجمع بينهما؟

- إنك لن تبحث عنهم.. هل سيجدونك؟

حـينمـا وضع النادل أكواب الشـاي على المنضـدة وجه (ذو الكفل) سؤالاً إلى «محمد فؤاد..:

- في رأيك.. ما أهم شيء ينبغي أن يفهمه الإنسان؟

أطرق «محمد فؤاد» ملياً ثم أجاب:

- أهم شيء يجب أن يفهمه الإنسان، أن لا يمد يديه إلى الموجودات التي لا يملكها حقاً. إذا التزم كل الناس بذلك، نجد حلاً جذرياً لكثير من المشاكل التي تنكأ الجراح في مجتمعنا، ففي المجتمع الذي لايعتدي إنسان على حق غيره.. أقول بشيء من المبالغة، يعيش الذئب والغنم جنباً إلى جنب.

صمت (ذو الكفل).. أحس بجرح غائر في داخله، شيء كالمسمار انغرز في قلبه، تذكر الرسالة التي قرأها قبل مدة وجيزة. لقد وضعه «محمد فؤاد» بغير قصد قبالة ضميره، وثلم جرحه الخفي، استطاع أن يقول: صحيح!

«مصطفى» أيضاً أدلى برأيه مشاركاً:

- صحيح

ارتشفوا الشاي، وتحدثوا عما هبّ ودبّ، ثم استأذن «محمد فؤاد» و«مصطفى» لمغادرة القاعة.

بقي «ذو الكفل» في مقعده حتى موعد إغلاق الصالة، حنق عندما طلب منه العامل المغادرة، لكن لا بد من النهوض، فقام وهو يشتم الرجل في سره متوجهاً إلى مسكن الطلبة، حَلّقت عليه موجة الكآبة مرة أخرى. شعر بشيء من البرود إزاء «محمد فؤاد»، حديثه طيب وصحيح، تصرفه معي يدل على أنه لا يشعر بحالي، وهو كالآخرين يحاول أن يؤثّر فيّ ويجذبني إلى الحزب الذي يؤيده..

في الواقع أن «محمد فؤاد» لم يكن يسعى إلى التأثير فيه لصالح فئة ما، ولم يكن منتمياً إلى حزب من تلك الأحزاب.. إنه إنسان يختلف عن غيره.

(ذو الكفل) في صالة الشاي لمسكن الطلاب هذه المرة. أسكت بطنه بطبق من الحساء، فاسترد بشاشته، المرء يزداد مرحاً وتتجدد آماله عندما يشبع. استمع إلى نشرة الأخبار من «التلفزيون» ثم صعد إلى الغرفة (رقم ٤٤).. كانت الغرفة خالية، قليلاً ما يلتقي بأحمد القارسي. ونوري اليوزغاتي، لأنهما يحضران إلى الغرفة للمبيت فقط، أما مصطفى فهو الآن مع محمد فؤاد وفكر قائلاً: إنهما على علاقة حميمة. ارتدى ملابس النوم واندس في الفراش بسرعة.. ولما خطر على باله أنه يرتدي ملابس النوم نفسها منذ ثلاث سنوات، أحس بكآبة، فنام كئيباً..



الفصل الثالث

نام ليلته حالماً أحلاماً مضطربة، وعندما نهض لم يكن يتذكر شيئاً منها، فكتب رسالة إلى «نالان» باعتناء فائق. وطواها وأخفاها في جيبه، ثم نزل إلى صالة الشاي. كان محمد فؤاد ومصطفى وشخصان آخران لا يعرفهما جالسين حول إحدى الموائد يتحدثون، ولما مر قريباً منهم ناداه محمد فؤاد

- (ذو الكفل).. ألا تجلس؟

- انتظروا.. سأتناول الفطور.. ألا ترغبون أن نفطر سوية؟

اعتذروا شاكرين، أخذ ربع رغيف كبير و (٥٠) غراماً من الزيتون وكوباً صغيراً من الشاي، وجلس إلى مائدة قريبة ليفطر، لم يشبع تماماً لكنه مضطر إلى الاكتفاء بهذا القدر اليسير.

كان منفعلاً بسبب الرسالة التي كتبها لنالان، فذهب إلى «محمد فؤاد» وأصدقائه للتغلب على انفعاله. بعد أن عرَّفه «محمد فؤاد» إلى صديقيه، قدمهما إلى «ذو الكفل»، أشار إلى الطويل منهما أولاً والجالس قرب مصطفى:

- الصديق «متين» من أرضروم نفسها، في الصف الأول من كلية الزراعة . ثم أشار إلى القصير السمين الجالس جنبه:

- و«نائل» من بربوت، في الصف الأول من كليتنا قسم اللغة العربية والفارسية. (ذو الكفل) والصديقان قالوا في آن واحد: تشرفنا، في تلك اللحظة خطر له أن يسأل عن رقم غرفة «ذو الكفل»، ثم صرف ذهنه عن الموضوع لأنه يستطيع أن يعرف الرقم من مصطفى.

لا زال لديهم متسع من الوقت إلى حلول موعد المحاضرة الأولى بعد ساعة واحدة! لا يوجد أيٌّ تغير في ملابس «محمد فؤاد» لكن ملابس «مصطفى» تغيرت عن أمس، فاليوم يرتدي طقماً خفيف الزرقة لامعاً، بنطلونه من النوع الضيق، ربطة العنق والقميص والحذاء في تناسق مع ألوان الملابس، وعلى العادة شعره المدهون مشطور بخط فوق الحاجب الأيسر، ورائحة العطر يفوح شذاها حوله، حدق في عيني «محمد فؤاد» قائلاً:

- الليلة في القسم الرابع من مسكن الطلبة طُعن طالب بالسكين.

أجاب محمد فؤاد:

سمعت بذلك. إن القسم الثاني.. قسمنا أقل الأقسام التي تشهد أحداثاً. سُحُبُ الأحزان تخيم على زرقة عينيه، أردف قائلاً بعد ثوان من الشرود خلال نافذة الصالة:

- وضعنا ينزف داخلياً، الكل يتصرف بجهل، تأمل حتى المسلمون نسوا هدفهم المقدس، فانصرفوا إلى الاحتراب، يا لفرحة الشيطان!! حاول مئات السنين ففشل في زرع شقاق عميق بين هذا الشعب.. فإذا بشياطين الإنس يقودونه إلى ذبح بعضهم بعضاً في فترة قصيرة! يا للخسارة أهكذا ينبغي أن نكون؟

أيدوهُ جميعاً بضمهم (ذو الكفل)، بعد صمت قصير أظهر (ذو الكفل) بعض المخزون من أفكاره بأداء رجل متكامل:

- أكره المهاترات السياسية: «أرى أن أصحاب السلطة في بلادنا أعظم المذنبين هل تعجب من احتراب المواطنين البسطاء، وكل واحد منهم يمزق الآخر بكل ما أوتي من قوة؟ ينبغي أن يستقيموا أولاً».

- صحيح..

أيَّده «محمد فؤاد» وشاركه الآخرون بإيماءات من رؤوسهم فاستمر (ذو الكفل):

- أكره الأحزاب السياسية، فلا خير فيمن يقاتل بعضه بعضاً، ويشوه سمعة غيره بكل وسيلة، لهذا السبب أنا ضد الأيديولوجيات السياسية كلها. لو كان فيها خير لما سالت الدماء كالأنهار، فليحاولوا توحيد الناس لا تفريقهم إن كان أصحابها يمتلكون قليلاً من الشعور الإنساني، النموذج الفلاني أو النموذج العلاني.. ماذا ينفعنا النموذج الأجنبي؟ الذين يقتاتون من طعام الآخرين لن يدركوا سر تأسُّد الليوث.

استدرك «محمد فؤاد»:

- نعم.. هذا من أعظم أخطائنا، نجهد، ومهما كلف الأمر، في ارتداء ملابس خيطت لأناس يختلفون عنا من نواح كثيرة... فإذا لم تتلاءم الملابس تلك مع أجسامنا صرنا نصف عراة أو نصف مستورين، ظننا أننا تحضرنا! لا ندرك مدى المهزلة التي صرنا فيها بارتداء ما استطعنا ارتداءه بالقوة، أما لباس الإسلام الجذاب الملائم، فقد ألقيناه - ظناً منا أنها بالية - إلى زاوية متربة، لأننا مشوهون وممسوخون روحياً، وللأسف سنظل في وضعنا المضحك والمؤلم مادامت أنظارنا تحدق في الظلام، وتعشى عن رؤية اللباس الملائم للروح والجسد الذي لم يفقد جدته ولا بريقه رغم التراب المتراكم عليه، نحن شعب يقتل نفسه. يجرؤ جلاد - وليس الجلاد هذا أقوى منا أبداً - أن يكبل سرّ بقائنا وحياتنا، ويجرجره إلى منصة الإعدام، فلا تنتفض شعرة واحدة في أي منا! لذلك نحن شعب يقتل نفسه، ويكوي نفسه بنيران الألم.

مصطفى الذي مسد شعرهُ المرجَّل بيده يميناً ويساراً، شرح وجهة نظره:

- لا اعتراض عندي على ما تقولون.. لكن أي نجاح يمكن تحقيقه إذا لم نحاول أن نزيد من الذين يؤمنون بهذه الأفكار؟.

أرى أن الموضوع سيظل حديثا يدور ويدور كما يجري الآن، ويبقى يراوح مكانه، لأن صحة الأفكار لن تتوضح إلا إذا امتحنت في ساحة التطبيق..

- أنا أتحدث إليكم، وأنتم إلى غيركم، وغيركم إلى آخرين.. وهكذا يكثر المؤمنون بالفكر الصحيح.. فإذا بلغوا مستوىً كافياً من الكثرة، ستطبق الفكرة نفسها بنفسها.

سأل (ذو الكفل):

- كيف؟

أجاب «محمد فؤاد» بصوته الوديع الهادئ:

في ذلك الوقت سيحاكم المحكوم جلاده.. لأن بشراً لا يهابون ويتمسكون بإيمانهم بقوة، لن يرضوا بدوام الوضع على ما هم عليه واستمراريته.. أي تحين الساعة التي يطبق الفكر الصحيح نفسه بنفسه.

أحس (ذو الكفل) بغضب في داخله قائلاً في نفسه: أيظننا «محمد فؤاد» غير مسلمين؟.. لعله بعد قليل يقرأ آيات.. وبصوت غليظ قال:

- فكروا كيفما تشاؤون، فلا أهمية لما تفكرون به.. لأنكم لم تطبقوه في ساحة الواقع، أنا لست هكذا.. أطبق أفكاري ولو على نطاق نفسي.. متين ونائل يستمعان في صمت، ومصطفى يسأل:

– ما الذي طبقته أنت؟

– لا أحب السياسة، وقد أقسمت ألا أخوض في السياسة، اطلعت على الوجه القبيح لأكثر السياسيين.. كلهم من الطينة نفسها، يفعلون كل ما في وسعهم لخداع الناس، لا علاقة لي بالجمعية، رغم الدعوات المكررة لم أذهب إلى الجمعية.

– ومن دعاك إليها؟

– طالب في صفنا من «إسبارطة» يدعى «راسم» يلاحقني منذ بداية السنة الدراسية.. يذهب بي حيث أشاء.. مطعم، سينما، محل حلويات، يفدي حتى بنفسه لانخراطي في صفوفهم، يدعونني إلى جمعيتهم بعد أن يغريني ببعض المغريات، أما أنا فلا أرفض رفضاً جازماً بل أرجئ المسألة بأسلوب ملائم كيلا تنقطع خيراته عني! يشقون جيوبهم لكسب أي إنسان إلى فئاتهم!

قال محمد فؤاد:

– طيب.. أليس ما تفعله أسوأ مما يفعله «راسم»؟

– لماذا؟

– ألا تستغل «راسم» لمنفعتك الشخصية؟

– ليس ثَمَّ شيء طبيعي أكثر مما أفعله، لأني في كفاح من أجل أحسن وسيلة لإشباع بطني.. وفي خضم هذا الكفاح أفعل أي شيء. لو سألتم مجنوناً لأخبركم أنه لا أسوأ من عاقبة الموت جوعاً.

أراد «محمد فؤاد» أن يحول دفة الحديث حين شعر أن الموضوع خرج عن جادته:

– ما ذكرته عن السياسة صحيح، فعلاً نحن في صراع سياسي قذر جداً.. لقد حصرونا بين خيارين: الرأسمالية أو الاشتراكية.

قال (ذو الكفل):

– الرأسمالية والاشتراكية: ماردان متوحشان كبيران. والضعفاء يضطهدون في النظامين كليهما، يُسحق الضعفاء، من قبل الأغنياء من الرأسمالية، ومن قبل الدولة في الاشتراكية. كلا النظامين لن يمنحنا السعادة، فهل هناك نظام آخر يمنح ما لا يمنحه هذان النظامان؟

لا أدري..!

سأل مصطفى:

– ما العمل إذن؟ أيظل الضعفاء مسحوقين؟ ألن تولد أبداً يد قوية، ورحيمة، تحميهم؟

قال (ذو الكفل) :

– نعم.. لابد من نظام يحقق هذا. لكن أين هذا النظام؟

هل في بلاد الواق الواق؟ لا أدري أيضاً!

حلّ محمد فؤاد العقدة «لمصطفى» وللصديقين الآخرين، وإن لم يطمئن «ذو الكفل» إلى الحل!!

– لن يكون الناس كلهم أقوياء في ظل تطبيق أي نظام.. بل سيوجد حتماً أُناس بمستويات متفاوتة.. لا يمكن تحقيق المساواة بين رب العمل والعامل في الرأسمالية، وبين مدير العمل والطبقة العاملة في الاشتراكية.. العالم كله تأكد من استحالة هذه المساواة، وليس هذا هو الحل الذي نبحث عنه بالطبع.. فإذا تساوى الجميع، تضمحل أهمية القيم والمواهب الإنسانية... المهم تقريب القوي من الضعيف، وتأسيس

معادلة يعمل فيها اختلاف القدرات لصالح الطرفين.. عند ذاك فقط يقنع الجميع بوضعهم، ولا يؤسس هذه المعادلة سوى الإسلام!

تساءل (ذو الكفل) والعجب يأخذه كل مأخذ:

- كيف؟

- الإسلام يراقب الإنسان دائماً. هذه المراقبة هي مراقبة الإنسان لنفسه، ومراقبة المجتمع لذلك الإنسان، وفي ظل هذه المراقبة تؤدى الواجبات بإنتاجية أكثر، وتحفظ حقوق الإنسان بشكل أفضل، أجر العامل يدفع قبل أن يجف عرق جبينه، الغني يحمي الفقير، ويؤدي إليه الزكاة منقذاً إياه من الشدائد، والفقير لا يضر الغني ولا يقترب من ماله، هذا الوضع يؤسس معادلة مشتركة بين القوي والضعيف، إضافة إلى تشغيل طاقة القوي لصالح الطرفين.. ولا تجد ذلك في نظام أو دين آخر، ومن وجهة نظر الإسلام، الذين يخلُّون بالمعادلة يرتكبون جريمة يحاسبون عليها، ويعاقبهم الله في الآخرة بما يشاء..

هزَّ (ذو الكفل) كتفيه، وضحك كالمستهزئ قائلاً:

- هذه الأمور ولت وغبرت! ولن تجد في عصرنا غنياً ولا فقيراً من هذا النوع! في عصرنا كل فرد يحاول أن يمتص الآخر. ثم لا أكاد أصدق تطبيق المعادلة التي تصورتها، أو وجود البشر الذين ذكرتهم حتى في الماضي.

ابتسم «محمد فؤاد» أيضاً.. لكنها ابتسامة مختلفة عن ابتسامة (ذو الكفل).. ابتسامة لطيفة تتدفق الكلمات معها بطراوة:

- لك أن تصدق أو لا تصدق.. لكن أوامر الإسلام هي: أن لا أحد

يملك الحق في إلحاق الضرر بغيره.. مال الإنسان ونفسه وعرضه، باختصار كل وجوده المحتاج إلى الحماية، مصان، وكل من يخرق هذه الحرمة يلقى الجزاء الذي يستحقه.

- أنت محق.. ولكن..

قاطعه «مصطفى»:

- بغير «لكن..»!، «محمد فؤاد» محق، لو عاشت الإنسانية حياة إسلامية بكل معناها، لحذفت كلمة «شكوى» من القواميس.

صمتوا، قام «محمد فؤاد» إلى موقد الشاي وجلب خمسة أكواب.

- لنشرب.. لا زال أمامنا وقت طويل لبداية الدرس.

شربوا الشاي، وخيم الصمت عليهم مدة أخرى ، وفي اللحظة التي همّ (ذو الكفل) بالنهوض، نظر «متين» الأرضرومي في عمق عينيه ومنعه من النهوض بسؤال:

- هل يمكنك إعطاء بعض التفاصيل عن الأحزاب؟

أجاب (ذو الكفل) فوراً:

- لا أحب أياً منها.. أنا أحب حزب نفسي: حزب البركة! ولست بحاجة إلى حزب آخر. الأحزاب تسحق العدالة باسم العدالة الاجتماعية، وأنا أبحث عن العدالة! لا توافق بيننا، صحيح أني لا ألقي خطباً عن الاستقامة والنزاهة بصوت صارخ .. لكني مستقيم، أسعى في أثر البركة! وأُفكر في أفضل وسيلة لإشباع بطني، أنا القوة الضاربة

لحزب البركة وقائده وسكرتيره وعضوه.. وكل وجوده! ليعلموني كيف أشبع بطني أكثر، لا إلى أي حزب ينبغي أن أنتمي! المثل يقول: إن «الدجاجة الجائعة تحلم بالقمح» لا بالمهازل والسخريات! وما عند أولئك مهازل تستند إلى الرسميات! أولئك يسخرون بالإنسان! بدلاً من التضحية بأنفسهم من أجل رفاهية الإنسان، يضحون بالإنسان من أجل كراسي الحكم والمناصب! ولئن سألتهم لأجابوك صارخين بملء أفواههم: نحن في خدمة الوطن!

إنهم يحولون الإنسان إلى آلة.. لقد أشبعني بعضهم ضرباً مرة لرفضي الانضمام إلى فئتهم.. من أي زاوية ينسجم هذا التصرف مع الإنسانية؟

قال «محمد فؤاد»:

- لا انسجام:

استمر «محمد فؤاد» في الحديث وبصره يمتد إلى مكان بعيد كأنه يبحث عن شيء:

- أتمنى مجتمعاً مثالياً، الناس فيه مثل أصابع اليد، فيها النحيف والغليظ والطويل والقصير.. ولكن لا ينبغي أن يشكو أحد من الآخر، بل ينبغي أن يحس بالحاجة إلى الآخر.. لكل منهم واجب خاص ومكان يرضى به، إذا أصيب أحدهم يتألم الآخرون. في مجتمع مثل هذا فقط ينشأ بناء اجتماعي قوي.

سأل محمد فؤاد:

- هل عندك معطيات واضحة عن كيفية بناء مجتمع كهذا؟ وعن نوع النظام الفكري الذي يبنى عليه؟

أجاب (ذو الكفل) من غير تمهل:

- لعلك تقول: الإسلام.. لكني غير مقتنع بذلك.. وليس عندي معطيات حتى الآن.

تدخل مصطفى بأسلوب هجومي:

- قبل قليل وضح «محمد فؤاد» أن مجتمعاً مثل هذا لا يمكن أن يتحقق إلا عندما تعايش الإسلام - «عند ذاك فقط لا يعتدي أحدٌ على حقوق الآخر، قد يكون المسلم غنياً أو فقيراً.. لكنه يرضى بوضعه في كلا الحالين، إن كان غنياً يشبع الجياع، يمنحهم فرص العمل ويشغلهم، ويوفي أجورهم وزيادة قبل أن يجف عرق جبينهم، يساعدهم بالزكاة ويرضى بوضعه لأنه أدى مسؤوليته.. وإن كان فقيراً فلن يسحق أو يضطهد، لأن الأغنياء يحمونه، لا يمكن لأي نظام فكري أن يحقق وسطاً كهذا ما عدا الإسلام، لأنه الدين الإلهي الحق الأخير، لن يسحق الأقوياء الفقراء في المجتمع الذي ينظم حركته بموجبه، ويحس كل إنسان بالحاجة إلى غيره.

انبرى (ذو الكفل) مثيراً دهشة الجميع:

- ومالك أنت؟ تبدو كأنك صوفي! تشرب الخمر وتلعب القمار ثم تتحدث عن ضرورة الدين! أي فائدة في الحديث عن الدين إن لم تلتزم

أنت أولاً بممنوعاته؟ أنت بنفسك تعادي ما تدافع عنه! فهل من الغريب أن أعاديه من غير دفاع؟

حار «مصطفى» في الجواب وسط ارتباك الجميع، واحمر وجهه خجلاً، نظر نظرة حزينة إلى «محمد فؤاد» وتسربل الحزن بكلماته المنسابة من شفتيه:

- لا أعترض.. فإني امرؤ آثم جداً.. غير أني بدأت أدرك بعض الحقائق أخيراً، وياليتك تدركها أيضاً، هل يجوز أن نحرص على الآثام إلى الأبد؟

شعر «الباربوتي نائل». بقرب اندلاع جدل فوجه سؤالاً، إلى محمد فؤاد في تلك اللحظة لتلافي الجدل:

- أود أن أسأل عن أمر يشغل بالي منذ زمن بعيد: أليس المجتمع الذي يتصوره الاشتراكيون جاذباً؟ ألا تحل معظم المشاكل إذا تساوى الجميع؟ ألا يحقق وضع التساوي توازناً في الواقع المعيش؟

انتهز «محمد فؤاد» أيضاً الفرصة لقطع الجدل بين «مصطفى» و(ذو الكفل) فأجاب:

- محال! لا يمكن.. لا يمكن تحقيق نظام اجتماعي يتساوى فيه الأفراد، لأن البشر متفاوتون منذ الولادة.. يتفاوتون حتى في وجوههم، وحديثهم، وضحكهم، وطريقة سيرهم، وآثار أصابعهم، والأهم أنهم يتفاوتون في مواهبهم وقدراتهم بدرجات كبيرة.. مثل ميول العمل، وغرائز التملك، والأحاسيس العائلية..

تململ (ذو الكفل) وأحس بالضجر، يريد أن يغادر المكان لأنه تذكر الرسالة التي سيضعها في جيب «نالان»، انتظر نهاية حديث «محمد فؤاد»:

- مادام البشر متفاوتون بهذا الشكل.. فلن نستطيع أن نضطرهم إلى التمتع بحقوق متشابهه، وتملك أشياء متشابهة، وارتداء ملابس متشابهة، وتداول مأكولات متشابهة، هذا الوضع يجعل بعض الناس يجني فوائد أكثر مما يستحق، والبعض الآخر يضحي بما يستحقه، لأنه من المحال أن يكون الجميع على مستوى واحد من الموهبة أو المهارة.. هذا هو انعدام المساواة الحقيقي وتخلخل التوازن الحقيقي. أهم قضية في الحياة الاجتماعية هو تحقيق التوازن بين الأعلى والأدنى، والآمر والمأمور، ورب العمل والعامل، والغني والفقير، والقائد والمقود، باختصار بين القوي والضعيف.. توازن يرضي الطرفين، ويجعل في قدرة كل فرد أن يتمتع بحقوقه ومكتسباته.. وبهذا فقط يمكن تحقيق المساواة. المساواة تعني إعطاء كل ذي حق حقه.

نهض (ذو الكفل) فور انتهاء حديث «محمد فؤاد»، ووجه كلامه إلى «مصطفى»:

- أرجو ألا تغضب.

- لا.. لا سبب للغضب.. ما ذكرته هو الحق بعينه.

- كنت أمزح!

- لا يهم.. المهم عرفتني بواقع حالي!

- نحن أصدقاء في الغرفة.. ألا يجب أن يتحمل بعضنا بعضاً ولو قليلاً؟

تبسم «مصطفى» ماداً يده، وتصافحا، قال: (ذو الكفل):

- أرجو السماح، أريد إنجاز شغل مهم قبل بدء الدرس.

صافحهم، وتمنى لهم يوماً سعيداً ثم خرج.

أثناء سيره حنق على نفسه لأنه أغاظ، «مصطفى» كان يسير بسرعة ويده اليسرى في جيبه ضاغطاً على الرسالة التي كتبها لنالان.

قال «محمد فؤاد» محاولاً تحسين الوضع النفسي لمصطفى:

- سامحه.. مشاكله أضعاف مشاكلنا.

- أنا أسامحه، لكنه لا يطاق أحياناً، فهو لا يقيم وزناً للمقابل، لأنه يظن نفسه عظيماً، فيطلق الكلام قبل أن يوزنه.

- قلت السماح! هذه أمور اعتيادية!

«الباربوتي نائل» «والأرضرومي متين» طلبا الإذن، وغادرا الصالة» «مصطفى» صعد إلى الغرفة، وتمدد في الفراش، استعرض التغييرات التي انتابته منذ بداية الدراسة في الكلية، أو منذ تعارفه بمحمد فؤاء، قال محدثاً نفسه: «لا لو تركت الخمر فلن أستطيع ترك القمار بسهولة.. القمار مغروز في أعماقي.. القمار يسري في دمي..»

كان «محمد فؤاد» غارقاً في بحر من الأفكار في المقعد نفسه» يجول في الأيام التي كان فيها إماماً في المساجد.



وصل (ذو الكفل) إلى الكلية..

صداقته مع «راسم» ستنتهي قريباً.. فقدان صديق يعتاش عليه بين

فترة وأخرى مبعث حزن. لكنه مستعد لأي تضحية من أجل «نالان»، لأنه سيعتاش عليها مدى العمر!

أنين في نفسه يقول: «آه.. نالان - آه.. حبيبتي الجميلة!!».

ما هذا الحرص على نالان رغم عدم إيمانه بالحب؟!

يجوب الصالة التي تتفرع القاعات عنها، ذهاباً وإياباً، الصالة الواسعة مزدحمة بالطلبة.. مجموعات مختلطة من الفتيان والفتيات يذهبون ويجيؤون هنا وهناك، يتحدثون ويضحكون، تتفرع من الصالة أبواب لخمس قاعات للدراسة ولصالة الشاي ولمغسلتين.. على جدران قاعات الدرس لوحات لإعلانات الكلية والملاحظات الدراسية، السلَّم الصاعد من يمين المغسلتين يؤدي إلى قاعات للدرس ومكتب لبيع الكتب في الطابق العلوي، والصاعد من اليسار يؤدي إلى القسم الإداري.

لم يدخل (ذو الكفل) الدرس بسبب الرسالة، لأن «نالان» لم تظهر بعد. ولكي يتخلص من عبء حمل الدفاتر توجه إلى صالة الشاي وسلمها إلى شكري -عامل الشاي- من أبناء مدينته، قائلاً:

- سأعود بعد ساعتين.

عاد للسير في الصالة الواسعة.. وكلما مرّ الوقت زاد اضطرابه، وتصاعدت ضربات قلبه حتى تكاد أن تُسمع، يتصور أنه يقوم بعمل خطير، لكنه لن يتراجع. «أتحمل كل شيء من أجل الوصول إلى «نالان».. كل شيء!.

وماذا إن أمسكوني بالجرم المشهود؟

كلا.. لن يمسكوني.. لا يمكن!»

يضطرب عالمه الذاتي ويموج، فيغفل عن الازدحام والضوضاء ودخان

السجائر الكثيف، ويتخيل قصراً وردياً.. بعيداً.. بعيداً جداً، أبعد من الآفاق. يريد الوصول إلى القصر.. والدخول فيه، والذوبان في سحره، وتسكين لهيب روحهِ بنفحات نسيمه، والاستحمام في حوض السباحة مع الحسناوات، البيضاوات كالمرمر، لكي يبرأ من الآلام واليأس والأحزان والمنغصات والقلق، التي أحالت صدره إلى صحراء قاحلة.. باختصار يريد أن يبرأ من كل هواجسه التي صنعته.. وأكبر هواجسه هو أن يريد...، ولا يحقق ما يريد!.

من البدهي أنه لم يرَ في حياته قصراً يشبه ذلك القصر. لكن يصنعه في الخيال. ما أعظمها من سعادة أن يشهد القصر الخيالي! لو كان القصر موجوداً في الواقع لجازف بحياته من أجل الوصول إليه. إنه يبحث عن القصر، لكنه لم يعثر بعد على الطريق الهادي إليه.. فلا يزال تائهاً في المنحدرات والسفوح» وكلما عثر على علامة تؤدي به إلى الدرب ينسى كيف يمشي، وتعثرت خطواته، وعندما يتذكر كيف يمشي يضيع الدرب أمامه!

«لعل «نالان» علامة توصلني إلى القصر..»

القصر يضيء في مخيلته كنجمة مساء. إطار الشبابيك من الألماس. الزجاج صاف كالماء. الباب زمرد. الجدران ياقوت، السقف مرجان. الحديقة مليئة بورود لم يتعرف البشر حتى الآن على ألوانها وشذاها وجمالها، فيها حسناوات عذبات كالماء العذب. طيور مغردة. شجيرات ورد أعلى من القامة، نباتات للزينة، على الأخص الأركيدو والساردونيا والمانوليا والزنابق، قوارير، ثريات مشعة، خادمات لطيفات، وجوارٍ! كأنه

امبراطور عظيم! رغم ادعائه أنه لسان حال الضعفاء.. من يعلم بعدد الخدم الذين يتمنى أنه يستحقهم من أجل خدمته! المهم بالنسبة إليه في تلك اللحظة أن ينجو من ضعفه ويبلغ السعادة التامة.. يعدو متسربلاً بأحاسيسه.. يعدو بلا ضوابط.. منغمراً في مدينته الفاضلة الخيالية!

يشتعل باللهيب المنبعث من قلبه، إلى درجة أن الذين يظنونه شخصاً يتقبل الحياة على سجيتها ولا يمتلك حظاً في عالم الخيال – وهذا هو الظن السائد عنه – لو علموا بباطنه العجيب، لنعتوه فوراً بصفة «ذي الوجهين»

– (ذو وجهين) يختلف عن المعنى المتعارف عليه!

إنه يريد ولا يحصل على ما يريد! لو خُيِّر بين الخلود مثلاً، وبين القصر الخيالي.. لاختار القصر على الخلود! لأنه يؤمن أن القصر يحقق حتى الخلود.. هذا هو (ذو الكفل)!

واخترق الازدحام، وجلس فوق أنابيب التدفئة المركزية.

– لِمَ تأخرت «نالان» هذه!

قالها بغضب وهمسٍ لا يسمعه غيره..

«حظي تعيس.. ربما لن تأتي اليوم، لأني سأضع لها الرسالة»

أخرج الرسالة.. كان قد وضعها في ظرف «لألق عليها نظرة أخرى.. طوى طرفيها إلى الداخل ليخفيها عن العيون وقرأ بصوت هامس مبحوح:

١٩ أكتوبر – تشرين أول– ١٩٧٩م

«**العزيزة نالان:**

أعتذر لعمل غير لائق مثل هذا، لكن ليس لي خيار، لأني أتعذب، على كل حال! لا بد أن أعلمك وبأي ثمن أني، أنا البائس، قد جننت بحبك اليائس، رفضك لي يزيد من عذابي، ولكن اعلمي أني أرحب بأقسى العذاب من أجل حبي!

أقولها بصراحة: إني فقير، لا أريد تقليد المتذللين الذين يصلون إليك بتبذير النقود، ولو أردت لما استطعت، لأني مفلس، لكني أحبك.. أحبك هكذا! وهل يعترف الحب بالفقر؟

إن أذنت لي بحبك في هذه الظروف، فلْتلتق عيوننا مرة، وابتسمي لي! فستهبين لي بتلك الابتسامة الدنيا بأسرها!».

توقف عن القراءة وقال في نفسه: «سأكون أديباً لامعاً يوماً ما..»

ورغم افتخاره بأسلوبه، كان يائساً لعلمه أن «نالان» تعجب بالوسيمين.. وهو يعتبر نفسه أقل الشباب وسامة في الجامعة. «حتى إن لم أعجبها، فلن أتركها مادامت في أرضروم.. إما أن تكون لي أو لن تكون لأحد غيري أبداً..»

– لو امتدت الأزهار حتى شفاهيا..

دمدمت شفتاه بهذا الشطر من الشعر.. عادة يعتني بالكلمات كلما ردد هذا البيت:

– لو امتدت الأزهار حتى شفاهيا..

لظنه أن شطر البيت هذا قطرة طفرت من روحه كالدر. واستمر في قراءة الرسالة:

«**العزيزة نالان:**

أعرف أن الوصول إليك صعب.. لكن حبك جميل بقدر صعوبة الوصول إليك، ربما تكونين قمة شاهقة لا أستطيع ارتقاءها.. لكنني لن أملَّ الحب والتسلق إليكِ أبداً... وليكن ما يكون!

سأضع الرسالة في جيبك لأني لا أملك الجرأة لتسليمها باليد، تأكدي ليست عندي طريقة أخرى لإيصالها. اعتبري المسألة معقولة واغفري لي، وأود أن أعرب عن شعور يخالجني بأني أعرفك من قبل، لست غريبة عن ناظري.. لكن.. كيف؟ لست أدري

أرجوك - اغفري لي..

ذو الكفل يشيل يورد»

صك أسنانه وضحك ضحكة لئيمة مكتومة «ذو الكفل».. أيها الداهية!

طوى الرسالة وأعادها إلى جيبه، ثم نهض ومشى وهو ينظر يميناً وشمالاً. كان ضجراً لتأخر «نالان».. تخيل مرة أخرى الموقف إذا قُبض عليه.. لا لن يمسكوا بي، يؤمن بذلك من كل قلبه، كما يؤمن أن الله سيساعدهُ في موقف حرج كهذا.. مع ذلك لا يمكن الجزم بنجاحه حتماً! حتى لو نجح، قد تجعل «نالان» الرسالة موضوعاً للاستهزاء به أمام معارفه أو لتشويه سمعته، وقد تشكوه إلى الإدارة.. وهذا يعني نهاية تعيسة لحياته الدراسية.. صحيح أن الإدارة لن تجرؤ على إيذاء طالب بسهولة في هذه الظروف التي ترتفع فيها حدة أحداث الشغب

والعنف، واضعة نصب عينيها النتائج المخيفة لمثل هذه العقوبات، لكن وضع (ذو الكفل) يختلف عن غيره، فمن المعروف أنه ليس عضواً في أي فئة سياسية، وإن كانت ثَمَّ محاولات لسحبه إلى حلبة العنف السياسي. يمكن في هذه الحالة أن يقع ضحية لاعتقاده (بأن هذه الفئات تجزئ الشعب الواحد.. الذين لا يتحملون التفاهم فيما بينهم لن يتحملوا أعباء حماية الوطن ووقايته). لهذا السبب يرفض الانتماء إلى الفئات السياسية والمشاركة في العنف واستعراض القوى، لذلك قد يطرد من الكلية أو يفصل لمدة مؤقتة، ثم كيف يتلقى أبواه وأعمامه الموقف؟

ما الفكرة التي يكوِّنها عنه أصدقاؤه - رغم قلتهم - وأحبابه ومعارفه؟

ألا يلصق به صفة «الرجل الشرير» في لحظة واحدة؟ احتد.. فليكن ما يكون، سأتحمل. في الحقيقة أنا رجل شرير..»

مرت مجموعة منسجمة من الفتيات بجانبه، حدث نفسه «هل يمكن أن تتآلف «نالان» معي يوماً ما؟ آه.. لو استطعت التقرب منها! لو استطعت أن أحدثها بأحلى الكلام.. أين حظي من ذلك؟ ربما أكون الرجل الأخير في العالم بمقاييس «نالان».. إذن.. إذن.. لماذا أحلم؟ لن أستطيع أن أشم رائحتها!»

خيم عليه التشاؤم، ففكر في تمزيق الرسالة.. لكن.. كلا.. يجب أن يعرف رد فعل «نالان»، وأفضل طريقة هي إيصال الرسالة! وانفرجت شفتاه:

- لو امتدت الأزهار حتى شفاهيا..

في ظنه أن السبب الوحيد لعدم تعلق الفتيات «قبحه وفقره، وظهوره - لذلك - في صورة يرثى لها.. ويعتقد في الوقت عينه أن الأغنياء -حتى لو لم يكونوا وسيمين- يفعلون ما في وسعهم فينجحون في إضفاء الوسامة على أنفسهم، هذا حذاؤه وقميصه وملابسه وربطة عنقه، باختصار كل شيء عليه، بال ورث، كل ما يلبسه أو يستعمله قديم بال. كلا.. هو بذاته لوصار فتاة - لرفضت التعلق بشخص على هذهِ الصورة من الرثاثة والقبح.

ولجَتْ ثلة من الفتيات الباب، فانسلخ من تخيلاته فوراً، وبحث عن «نالان» فيهن.. لم تحضر.. غضب جداً منها:

«وهل يبتسم حظ الفقراء؟ وهل تقع في شباكهم سمكة كبيرة؟

دائماً السردين.. دائماً!»

قلبه كاد يطفر من مكانه.. كأنه رأى «نالان»، ثم تحول انفعاله إلى حزن، عندما أدرك أنها فتاة أخرى، ملابسهما متشابهة! كأنه تعرض إلى هزيمة.. إذ لم يسعفه الحظ في اليوم الأول من كفاحه.. «ياالحظ الفقير! لو كنت غنياً لحامت حولي ألف «نالان» مائلات مميلات ليظهرن محاسنهن.. لكن!»

أحس بحاجة إلى تفريغ أمعائه بتأثير ألم ممض في بطنه، فاستيقظت فيه رغبة قوية لدخول «التواليت».. لن أدخل التواليت حتى لو انفجرت.. فقد تأتي «نالان» لسوء حظي في تلك الفترة فيضيع عليه مكان تعليقها المعطف.. ياللإمساك اللعين!! جلس على أنابيب التدفئة المركزية ليدفع عن بطنه الضيق المتزايد كلما تحرك، وانتظر. نظراته

التي تحـوم على الازدحـام لا تحـمل أي مـغـزى، يعـوم في بحـر عـالمه الخـاص، ويصـارع أمـواج ذاته إلى درجـة أن أقـرب الناس يبـدو إليـه كالغريب إذا لقيه هذه اللحظة. يضيق صدره إلى درجة لو يشعر بحدة مآسيه. حالة أسوأ من ابن سبيل ضل طريقه في ليل حالك الظلام.. والعدد القليل من آخر النجوم المضيئة التي يهتدي بها، تتساقط من السماء وتضمحل.. فتغرق دنياه في ظلام دامس مطلق.. لا توجد عروة، بل قشة يتمسك بها.. ولا ملجأ يحتمي بدفئه..

«يارب .. ساعدني..»

هكذا هو (ذو الكفل).. لا يتـخلى عن التوسل إلى اللّه.. يتـوسل بين مصدق ومكذب! رغم ذلك التوسل! تماماً مثل بسملة «نالان» كلما تأوي إلى الفراش، بغض النظر عن السبب، هكذا يتصرف الذين يشكون في اللّه كلهم، والملحدون كلهم.. يتوجهون بكل ذواتهم في اللحظات الصعبة إلى الله، رغم أنهم يسترون على حالهم هذا ويخفونه، هم بأنفسهم عاجزون عن توضيح السبب.

قاده التفكير إلى أم مصائبه: الفقر، عدوه اللدود. يخشى أن يضجر يوماً من هذا العيش البائس فيختار الموت.. والموت قريب.. على شفا علبة حبوب، أو حد سكين، أو قفزة من مرتفع، أليس الموت أفضل من حياة بائسة؟ مع ذلك.. ثم أشياء تربطه بهذهِ الحياة، فهو يريد أن يعيش رغم آلامه كلها، ولربما تتبدل الأوضاع في المستقبل!

«أن تعمل وأنت تدرس.. وتدرس وأنت تعمل. لا يطيقه كل رجل، إذن أنا رجل خارق.».

أحسَّ بحقد لا يوصف على النقود عندما تذكر اضطراره إلى الاكتفاء في الصباح مرة، وفي المساء مرة، بربع خبز كبير، وقطعة جبن صغيرة، وحبات من الزيتون أو الحساء. وقد يستطيع أن يتناول طعام الظهر فقط مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع.

ليس من صفاته التقدم نحو الهدف بقوة وجرأة وبلا تردد، روحه سائبة، وظروفه القاسية جعلته متردداً في اتخاذ القرارات.. يشبِّه نفسه بجندي جريح يحاول أن ينسحب خارج الخندق ورصاصه على وشك النفاد، وفي مكان ما من قلبه تستتر رغبة لا نهائية في الحياة، ينبغي أن يقاتل. ينبغي أن يصارع الموت بالأسنان والأظافر. الصفات التي تشمئز نفسه منها تزيد فيه يوماً بعد يوم. وفي الحقيقة أن الصفات غير المستساغة فيه والتي يظهرها معدومة أو قليلة مثل أن يكون عبئاً على معارفه يعتاش عليهم، ودفع التهم والصفات القبيحة عن نفسه، وإلصاقها بمعارفه، وإقلاقهم بأحزانه، وإخافتهم بموجات الرهبة التي يشعر بها في نفسه، وإثارتهم بتصرفاته غير المعتادة، لكنه والحق يقال يستر ويخفي الكثير من أمثال هذه الصفات ولا يظهرها لغيره.. مثلا يقضي أيامه بالبحث عن القصر الخيالي بدلاً من محاولة الخلاص من مستنقع الأوحال والظلام الدامس، فينطمر في الأوحال والظلام الدامس بمرور الأيام.

أزعجه «الإمساك» جداً فصار لا يطيق الألم في بطنه. قرر أن يذهب إلى التواليت وعندما استعد للذهاب.. دخلت ثلة من البنات من الباب، فنسي ألم البطن وبحث بعينيه عن «نالان» لم يجدها. غيَّر

القرار بالاستمرار في الانتظار لازدياد عدد الداخلين واحتمال قدومها في أي لحظة، لا يزال قلقاً.. وهو يعبر عن القلق بتمسيد بطنه بإحدى يديه، ثم يترك هذه الحركة أحياناً ليضغط على غضاريف أنفه، ويدس على أرنبته يميناً ويساراً، ويستمع إلى صوت الطقطقات الصادرة منها – هذه الحركة تشعره براحة غريبة – ويظل منشغلاً بأنفه إلى أن يتألم. هذه الحركة من عاداته.

يكره مظهره وشكله.. بل لعله أشد الشباب في أرضروم اشمئزازاً وتقززاً من شكله، وكرهاً لمظهره. (ذو الكفل) في التاسعة عشرة من عمره وإن كان يبدو أكبر من «محمد فؤاد» البالغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة. ويعتقد أن مرحلة الطفولة التي قضاها في «خوراسان» وبعض قراها أكثر مراحل عمره تعاسة. الأعوام التسعة عشر المنصرمة تختزن أكواماً من الرغبات التي لم تتحقق رغماً عنه.. وأكواماً من الأسئلة التي لم يجد جواباً عليها: ما العالم؟ ما الحياة؟ ما معنى الجبال والسهول والأنهار؟ ما معنى المدن والإنسان والسماوات والنجوم والبحار والحيوان والنبات؟

في السنوات الأخيرة من الدراسة الإعدادية عندما كان يجوب البراري.. في الأيام القليلة التي يسافر فيها إلى القرية، كان يستلقي على ظهره للراحة ويحدق في السماء ويتساءل:

«ما سر الكون العظيم؟ لم يحاول الإنسان بإصرار أن يخلَّ هذا النظام المطلق؟ لم يكون منافقاً وظالماً ومتجاهلاً حاله الضعيف؟ لم توجهني الحياة في خضم سيلها المنحدر إلى أن أصير إنساناً من

أولئك؟ لم تجعلني إنساناً شريراً؟ هل نحن محكومون بهذا المصير؟ هل الحياة امتحان قاسٍ؟ هل يمكن أن نكتشف طيبة الإنسان تحت هذه الظروف الثقيلة؟ ومن هو الطيب؟ كل إنسان يرى نفسه نقياً طاهراً، لكنه في الواقع يكافح ليظهر الخطأ الذي يرتكبه صحيحاً وحقاً. لم لا ينتصب شخص على قدميه ليوقف هذا التيار المعكوس؟ ما الذي جعل الإنسان سلبياً؟»

أكوام من الأسئلة لاجواب عنها.. ولا يحاول أن يجد جواباً، تملأ سنوات عمره.

«السعادة؟ ما هي السعادة؟ هل السعادة نفس الشقاء ويتعارف البشر مضطرين إلى تسميته بالسعادة؟ لماذا لم أعرف إنساناً سعيداً بمعنى الكلمة رغم كثرة تردد الكلمة على الألسنة؟ هل أكون سعيداً إذا صرت وسيماً؟ نعم.. ستحوم الفتيات حولي ولكن ما النتيجة؟ أعرف أُناساً وسيمين يكتوون بنار مشاكل مختلفة، ويضطربون أيَّما اضطراب لبلوغ السعادة! إذن، الجمال لا يأتي بالسعادة تماماً.. لكن الأغنياء، آه.. من الأغنياء..

طريق واحد يؤدي إلى السعادة: الثروة.. فقط الثروة..

يتخيل قصر الآمال الوردي بين فترة وأخرى، ويعتقد ان السعادة تكمن في ذلك القصر الغامض الذي يأمل أن يمتلكه يوماً ما، مهما كان الاحتمال ضعيفاً! يتصور أن في خيال كل امرئ قصراً وردياً يسعد فيه، ويسعى على مدى عمره إليه، لكن القليل من الكثير يصل إليه.!

كان يردد دائماً، ربما أنا الإنسان الوحيد في هذه الدنيا الواسعة

الذي ليست عنده حتى ساعة واحدة محظوظة! كل يوم يمر، يحمله عبء حزنٍ جديد، أو مشكلةٍ، أو ضيقٍ، أو مللٍ إضافي في الحياة.. ومن بعده، أمل جديد، ثم خطوات وخسران.. ثم أمل جديد آخر.. وتمضي الحياة هكذا! لولا ثقل الرغبة في الحياة، ورهبة الموت، لانتحر منذ زمن طويل، أحياناً تنتفض فيه بقايا القيم المستقرة في اللاشعور والمغروزة في ذهنهِ بقوة الدفع، ولكن التأثير المتولد ضعيف جداً تحت وطأة وقائع الحياة، لأنه في الغالب يقوم بأعمال تناقض تفكيره، أي يقوم بعمل يوافق مصلحته الذاتية، رغم العلم بأن العمل هذا خاطئ.

متذبذب بين أن يكون صخراً أو فقاعة! فهو أحياناً ثقيل إلى درجة لا يهتز أمام أقوى الضربات، كالصخر، وأحياناً خفيف إلى درجة أنه يطير بلفحة غضب أي: كالفقاعة!

طفولته المفعمة بالأحداث المتنوعة، وسنوات الدراسة الابتدائية والمتوسطة، وفترة الدراسة الإعدادية مع المبيت في مسكن الطلبة التابع للمدرسة. والكتب التي طالعها -خاصة القصص المصورة- وروايات التراث العالمي التي قرأها مستعيراً إياها من المكتبة العامة المحلية، والأهم من كل ذلك، الجمع بين الدراسة والعمل لكل هذه الأمور تأثير مهم في تكوين شخصيته، لم يرَ من الشباك المشرف على الحياة غير الألم والضيق والضياع.. فانحصرت روحه في الزاوية الضيقة بينها.. واكتوت بنار اليأس، ولا زالت تكتوي!

يعرف كثيرين عاشوا الضياع مثله ودفعوا كل ذواتهم للخلاص بالخمر والقمار والطرق الملتوية.. هو أيضاً انجر إلى حافة التصرفات المستهجنة، في حين أن أباه كان يدعو الله دوماً أن يجعله مرشداً دينياً!

انجرف في موجة حزن رهيبة عندما تذكر أباه، لم يحقق أي أمل من آمال الرجال! كان أمله عظيماً أن يقرأ، لكنه لم يتعلم غير الأحرف العربية، واكتفى بحصر ذهنه في شيء مهم وحيد في الماضي والحاضر: الحصول على نقود كثيرة للخلاص من بؤس الفقر.. ولهذا يدرس!

تمثلت صورة «نالان» أمام ناظريه، فنسي أباه، واحتل غضب هائج محل الحزن في نفسه. ضغط على فكيه فاصطكت أسنانه ببعضها «ستنتظرين دربي يوماً ما يا نالان..» فتَّشَ بنظرة عنها بين الداخلين من الباب.

«الحياة.. آه من الحياة. الحياة فتحت فيّ جراحاً تعلمت بسببها كل أنواع الأنين.. لكني سأكتشف يوماً السر الذي يعلمني كيف أؤلم بدلاً من أن أتألم..»

وهل ينسجم الحلول محل الأقوياء، وتكرار أعمالهم نفسها، مع تمثيل الضعفاء؟ ألا يرمي بنفسه في هذه الحالة خارج المجتمع الشبيه بأصابع اليد؟ لم يسعه التفكير في ذلك لأنه انجرف في تيار السيول الكدرة.

يعشق النقود، في الوقت عينه يخشاها كما يخشى الثعابين، لأنه يزحف على بطنه في الحياة كالزواحف بسببها، ولأنها في الوقت نفسه قادرة على تخليصه وإنقاذه!

حسب اعتقاده، النقود تعض كالكلب إن داعبتها، وتلدغ كالحية، إن لامستها.. يكرهها أكثر مما يكره الظالمين، أليست النقود سبباً يدفع الظالمين إلى الظلم؟ وماذا عن الظلم الذي يتمنى أن يمارسه إن سنحت

له الفـرصة؟ هل سيكره عندئذٍ نفسـه أيضـاً؟ منطقه وعقله يتصارعـان مع ضميره، فينتصر منطقه على الضمير، لأن هوى النفس مع منطقه.. وأخيـراً يـصدر حكمـاً لصـالحـه: «أنا أجني مقـابل مـا تكبـدته حـتى تلك الساعة.. ولهذا من حقي أن أفعل ما يحلو لي..!»

لم يكن يؤمن بالحب.. صحيح أنه ينصت أمام الوجه الجميل كالبرق، لكنه يردد «رغبة مؤقتة ومنفعة طارئة، أنا أحب كل شيء يجلب منفعة، الانصعاق بالجمال ليس حباً في الحقيقة، وحبي «لنالان» حب لمصلحتي ذاتها.. لماذا لا أحب الفقيرات؟ لأنهن لا فـائدة فيهن غير أجسـادهن.. والجسد وحده لا يغني من الجوع!»

قبل سنوات أحبَّ فتاة في القرية.. فنسيها عندما جاء إلى أرضروم. ولم لا ينسـاها وليست فيها صفة لا يمكن نسيانها! ليس فيها أيٌّ ميزة ينتفع منها «ذو الكفل»! وهكذا يتـأكد عنده أنه على حق! لا يمتلك جـرأة كـافيـة للتحـدث مـع النسـاء من غيـر وجل. لقـد سـبق أن آمـن بـأنه أتعس إنسـان في الـدنيـا، ومن الصـعب زعـزعـة هذا الإيمان في نفسـه، ينسـاق بتـأثيـر انفعـالاته الآنيـة لكونه ينظر إلى الأمـور من زاوية منفـعـتـه الشخصية.

الله وحـده يعلم كم مـرة تـزوج فيـهـا من فتـاة غنيـة في تخـيـلاته! إذا صـادف حـفل زواج تصـور نفـسـه عـريسـاً.. وإذا رأى عـروسـاً تصـورهـا حبيبته المثالية.. وفي الوقت الحالي «نالان» التي ستهبه القصر الوردي! يركض ويركض بقـفـزات بعـيـدة الخطى، تمور وتمـور مـشـاعـره، وفي النهاية يلوي إلى درب مغلق، فتمـتلئ نفسـه بركام تحطم أليم، ويردد..

آه.. آه.. لو كنت ثرياً لحصلت على ما أريد...»، فتبتل عينه، ويحس بتخلخلٍ في ركبتيه، ويسمع الأصوات من أعماق أبعد، ويشعر بالسماوات كأنها تساقطت عليه، والنجوم كأنها ترتطم برأسه واحدة فواحدة. والظلمات كلها كأنها تختزن في عينيه.. يتحرى عن قوة في ذراعه تقلب «أرضروم» رأساً على عقب.. يمور ويهيج، وينتهي الهياج دوماً بالحسرات وبالوحدة والحزن والحقد - وتتململ فيه الذئاب.. ذئاب الحقد! ويحمل الفقر وزر الجريمة كاملاً.. فيتكاثف الشر في تصرفاته أكثر، ويتحرى عن ألف عذر لتصرفاته إزاء ضميره إلى أن يبرئِها من الغلط.. فتضيق الدنيا به، ويزيد القتام في قلبه.

يكاد صبره أن ينفد لتأخر «نالان»، رنَّ جرس الاستراحة فزاد الازدحام في الصالة ضعفين أو ثلاثة أضعاف.

- مرحباً «ذو الكفل».. أراك شارد الذهن!

التفت، فإذا هو «راسم»، هذا لقاؤه الأول به منذ تمزيقه الرسالة.

«راسم» في عامه العشرين، شعره مجعد قليلاً، بلون كستنائي مغبر، أزرق العينين، حاد النظرات ممتلئ الجسم، يرتدي طقماً خيطه من قماش «الجينز»، حدقات عينيه تدور هنا وهناك مانحة صورة غير وقورة وغير جادة لوجهه، يبدو كأنه مكتنز لأن قامته أقصر من المعتاد قليلاً، شاربه الأشقر كثيف يتدلى من طرفي شفته، أسنانه البيضاء، تبرز عندما يبتسم، مكتنز الشفتين، وجنتاه لامعتان لأن لحيته خفيفة المنبت، جسمه يتمايل يمنة ويسرة أثناء وقوفه، ويبدو أنه اعتاد هذه الحركة. يتمايل عندما يمشي، ويلحس شفتيه بين حين وآخر بلسانه أثناء الكلام، ينتشر حوله شذى عطر حاد مثل «مصطفى».

استقبله (ذو الكفل) ببرود.. فقد صار يكرهه في قلبه، قال:

- أشرد أو لا أشرد.. مالك أنت؟

اندهش «راسم» وقال بخفة:

- هيا.. هيا.. هل غرقت سفنك في البحر الأسود؟

- لا ياروحي.. أغرقْتُ سفنك في البحر الأبيض؟

- سفن من؟

- سفن «راسم دورمز».

قال «راسم» بين مازح ومستهزئ:

- تقلد الأدباء في شرودهم وكأنك أديب! من يرى تصنعك لأطوار الأدباء يظنك أديباً حقاً!

- وهل تدعي أني عديم الموهبة؟

- لا تتعاظم (ذو الكفل)!!.. إذا امتحنونا في الأدب كلانا سيكون في آخر القائمة سوية! وهل تظن الأدب سهلاً أو رخيصاً يتمسح بأقدامنا؟

الدراسة في كلية الآداب لن تجعل المرء موهوباً:

أحس «راسم» بالغضب الذي ينتاب (ذو الكفل).. ويبدو أن الفتيلة اشتعلت ولا يمكن إطفاؤها:

- أنت محروم من الحس الأدبي.. أمثالك يخططون للإيقاع بالفتيات برسائل تعلن هيامهم.. يقتبسونها من كتاب (رسائل الحب والغرام)، ثم

يدعون أنها من إنشائهم! أما أنا .. فأحمل في جيبي حساً مرهفاً يقتضيه الأدب، ولا يستعصي أيٌّ شيء على قوة تخيلاتي سواء كانت موجودة على سطح الأرض أم غير موجودة.. ولا أستعير الجمل من غيري.. عندما أكتب، أكتب بنفسي:

احمر وجه «راسم» وسأل متلعثماً:

- ومن أخبرك؟

مَثّلَ (ذو الكفل) دور المشدوه:

- عن ماذا أخبرني؟

- بكتابتي رسالة!

- وهل كتبت رسالة؟ أي رسالة؟ رسالة للفتيات؟

انتعش «راسم» بما سمع، وأجاب بارتياح:

- لا، لم أكتب شيئاً.. لكني ارتبكت حين شعرت أنك تظنني قد كتبت رسالة ما! لا أريدك أن تنساق إلى ظن خاطئ عني.

ابتسم (ذو الكفل) :

- وهل تستطيع؟ كتابةُ رسالة كهذه تحتاج إلى موهبة أدبية!

فأين أنت من كتابة رسالة غرام! الفتاة التي قد تكتب إليها ستجنُّ فور قراءتها، وتمزق الرسالة وتلقيها في سلة المهملات!

إن كنت قد قمت بحماقة كهذه ابحث عنها في سلة المهملات.. ستجدها هناك!.

ضحك «راسم» بصوت لم يزعج أحداً حوله، ولحس شفتيه بلسانه.

- يبدو أنك فقدت عقلك! تعلم جيداً أن لا فتاة في أرضروم كلها تستحق إعجابي إلى درجة تجعلني أكتب لها رسالة! أنا ابن «إسبارطة» العريقة!

لا أدلي بسنارتي إلى أي سمكة يا عزيزي، السمكة التي أصيدها ينبغي أن تكون بنت صاحب معمل على الأقل. كل امرئ يبحث عن إنسان من وزنه.. لا تزرع نبتة «أركيدو» الجميلة في صفيحة صدئة!.

- صحيح.. كل امرئ يختار إنساناً يعادله!

وانغرزت آلاف السهام في قلبه، ستكون رغامة كبيرة أن تختاره «نالان» مع وجود أمثال «راسم» لكنه مصر.. مصر على منافسته حتى لو كلفته حياته، حدَّث نفسه.. على أي حال قريباً سيعرف الموضوع.. يومذاك سيبدأ الصراع الفعلي.. «راسم» الآن وحيد في حلبة المنافسة.. قد اقتربت الساعة التي ينزل فيها الطرف الآخر إلى الساحة.. صراع بين مارد وقزم، بين قوي وضعيف، بين غني وفقير، وهو متأكد من النتيجة سلفاً، لكن دخوله الصراع شرف يسجله لنفسه، ستفقد «نالان» مقاتلاً لا منهزماً!

- لماذا شرد ذهنك؟ هل أزعجتك بكلامي؟ سأله «راسم»

فأجاب (ذو الكفل) وهو يئن:

- أغلق هذا الحوار الفارغ .. من يبحث عن المولى.. فسيلقى مولاه..

ومن يبحث عن ليلى فسيلقى ليلاه..

- ومن يشتط يبحث عن البلاء فسيلقى بلاه .. أكمل راسم.

انتبه الاثنان إلى دخول «نالان» إلى الصالة، نسيا بعضهما، وانهمكا في متابعتها بالنظر! الارتباك بادٍ عليهما، (نالان) جميلة حقاً، أنيقة، يلاحظ فيها من أول نظرة شيء ما يجعلها مختلفة عن غيرها، متوسطة القامة، ذات شعر أسود فاحم، عسلية العينين، بيضاء صافية البياض كاللبن، ثاقبة النظرات، كاملة لا مثيل لها من وجهة نظر «ذو الكفل»، ترتدي اليوم فستاناً أسود اللون، تبدو للعيان من تحت المعطف الكريمي اللون لأن أزرار المعطف مفتوحة.

بعد أن ألقت نظرة إلى وجهيهما - خاصة وجه «راسم» غير الوقور توجهت إلى المكان المخصص لتعليق المعاطف، خلعت المعطف وعلقته، ثم اختفت في ازدحام الصالة الكبيرة. ظلا يرمقانها من خلفها، نظرات «راسم» مسيطرة ومتسلطة، بدا كأنه رب عمل يتابع خادمته.. هذه النظرات جلبت انتباه (ذو الكفل):

- ما هذا.. هل ترصد أحداً؟

لم يخمِّن «راسم» أن (ذو الكفل) كان يراقب الفتاة نفسها، فتستر بجواب لعوب:

- لا.. أبداً بل مر صديق شارد الذهن قريباً مني.. فتوجست أن شيئاً ما يشغله.

- أم أن فتاة مرت؟

- أنت ثرثار.. ما عليك من شيء!.

ألـح (ذو الكفل) مجدداً كالمستهزئ:

– لعلها كانت لوحة نفيسـة؟

أجاب «راسم» بتغيظ:

– الزم أدبك.. أنت طالب جامعة، ألا تخجل من هذا الكلام؟ وتدعي أنك أديب، وا أسفاه! الأدب بحاجة إلى قليل من الأخلاق أيضاً!

– ماذا تعني؟ هل تنكر الحقيقة؟

– أنت لا تعرف ما الحقيقة!

– أعلمني إذن!

انتهـز «راسم» مقـولة «أعلمـني إذن» لدعـوة «ذو الكفل» إلى الجـمعيـة مجدداً:

– تعـال إلى جـمعيتنا، واشـترك في اجتماعاتنا، وتابع محاضراتنا فستعلم!

ضحك «ذو الكفل» مقهقهاً.

– جمعيتكم تعرف الحقيقة إذن!

بان الغضب على «راسم»

– أمنعك من التحدث بهذا الأسلوب عن الجمعية، إذا أردت أن تستمر صداقتنا فلا تستهزئ بعقيدتي السياسية، لأنها الطريق الحق الوحيد..

ولا أتحمل انتقادها حتى من صديق..

سأل «ذو الكفل»:

- لماذا؟

- لأنها فوق الانتقاد والنقص، أسفي عليك.. سيمضي عمرك هدراً! لم تعتنق معتقداً صحيحاً حتى اليوم!

تغيرت نبرة «ذو الكفل»:

- أنت لست قلقاً خوفاً من الجوع.. وتقضي الوقت كما تشاء، أما أنا، فأضطر إلى البحث عما يسكت بطني الجائع في وقت الدراسة..

وبطني يشبع بالخبز لا بالمعتقدات!

- جيد.. اشترك معنا إذن. والجمعية تسعى إلى حماية أمثالك، سنساعدك من إيراداتنا لتشبع بطنك بما تشاء!

بدا العرض جذاباً للحظة:

- وما المطلوب مني؟

- تعمل من أجل الجمعية، تذيع فضائل فئتنا، وتكسب أشخاصاً للعمل في صفوفنا، وتناضل ضد الفئات المناوئة بالتضحية حتى بروحك.

- وكيف؟

- سهل جداً، تؤدي ما تكلفك الجمعية من واجبات بحذافيرها، وإذا اقتضى الأمر، ستحارب الفئات الأخرى بشجاعة ولا تبالي بالموت.

ضحك (ذو الكفل) وامتزج ضحكه بالاستهزاء:

- وكيف أبالي بالموت بعد الموت؟ كلا يا صديقي.. أنا لا أخوض في هذه المتاهات.. أريد أن أعيش في سلام! إذا كان الموت ينتظرني في نهاية الطريق فلماذا لا أسطو على مصرف؟

- ستقوم بذلك حسب المتطلبات إذا اشتركت معنا!

-ولماذا يجب أن أسطو على مصرف حسب طلبكم؟

- لمصلحة الجمعية! وستكون الجمعية درعاً يحميك!

- كيف تكونون وطنيين وأنتم تسلبون مصارف هذا الوطن، كلا ياصديقي..إذا سطوت على مصرف أسلبه لنفسي لا لغيري.. وفي الواقع لا يسلب مصرف من أجل إشباع البطن!

همس «راسم» بأداء مصطنع واضح للصدقة، فوضع كفه على كتف «ذو الكفل»:

- اسمع «ذو الكفل».. الوضع ليس لصالحك.. أنت لا تشارك مع أي فئة.. وكل فئة تحسك عدواً لها، ستعاني من الوحدة إذا اندلع عنف ما مستقبلاً ربما تضرب أو تقتل، والفاعل كالعادة مجهول، فتذهب هباءاً منثورا، اشترك معنا لتكسب سنداً قوياً ومصدراً فكرياً ثراً، إلى متى ألح وأنت ترفض؟

دفع «ذو الكفل» كف «راسم» من كتفه بتوتر عصبي واضح:

- اذهب لشأنك واتركني! أريد أن أريح أعصابي.. لماذا تصر علي؟ لن أخوض في السياسة.. حتى لو متّ فلن أخوض السياسة! أتفهمني؟

أنهى «راسم» حينذاك تمثيل دور الصديق، وعاد إلى حالته الطبيعية فتكلم بنبرة تهديد:

- قد أديت ما على عاتقي، لن أكون معك بعد الآن، لأني مكلف بضمك إلى جمعيتنا.. حاولت هذه المدة فلم أفلح، أتظن أني صببت هذه النقود في حلقك حسنة لله؟ أنت عدو نفسك! هنا انتهت صداقتنا.

سنلتقي مرة أخرى، وسنرى هل ستغرد كما تغرد الآن؟

ظل «ذو الكفل» مشدوهاً أثناء ابتعاد «راسم» عنه:

- إذن..

فتح فاه.. ولم يستطع إتمام الكلام..

ياللحيرة.. إذن صداقة «راسم» كانت لحساب الجمعية، أحس باشمئزاز وتقيؤ:

- لعنكم الله جميعاً.. هكذا يصير الإنسان إنساناً في نظركم!

- اذهب حتى تصل إلى الجحيم!

لم يسمع «راسم» شيئاً لأنه اختلط بالازدحام. من المؤكد أن الصراع الحقيقي بينهما ابتدأ الآن.. خاصة أن «نالان» في الساحة أيضاً.

لم يستطع تحمل ألم الإمساك في بطنه، فدخل التواليت، ورجع بعد فترة قصيرة. كان في حيرة لا يدري بم يفكر، سيصبح عدواً لراسم من أجل السياسة ومن أجل «نالان»! أقسم ألا يكلمه تحسباً مما قد يطرأ، فإن نقاشاً قصيراً معه يكفي لرجمه حتى الموت، وفي الواقع أن التزامه باليمين أمر مشكوك فيه!

كيف خدع بالمظاهر؟ كيف انتهت صداقتهما بسهولة؟ «يا للحيرة!. لم أكن أظن أن يقدر إنسان على اصطناع دور بهذا التمثيل الماهر، كان ينفق عليَّ لهدف سياسي إذن! يأخذني إلى المطاعم.. دعاني إلى الشاي.. اشترى لي «همبرغر».. قدم لي عصير الفواكه، أو اللبن، لم

يطالبني بالديون النقدية، سدد النقود باسمي إلى إدارة مسكن الطلبة.. لماذا؟ لأحيد عن طريقي!»

لقد طاب له هذا الكرم فيما سبق - وجاء الآن دور الاسترجاع! وما أشد حرارة قيء الطعام اللذيذ.. خاصة أنه سيقيء من أجل «نالان» أيضاً، طفرت كلمات من فمه:

- ما أشد الهموم التي ابتليت بها!

تخيل جسمه مرمياً على الأرض، و«راسم» ينتصب فوق رأسه كأنه يقول: هكذا أسترد ما أعطيت.. تمتم قائلاً:

- أعرف أنه لا دواء لجرحي!!»

رأى «نالان»، خارجة من قاعة الدراسة، فنسي ما حدث، ونسي «راسم». انصعق بتأثير انفعال عنيف: يا ويلي.. نسيت أن أضع الرسالة، رجعت «نالان» إلى القاعة مرة أخرى.. فشعر بالاطمئنان، هل الوقت مناسب لوضع الرسالة؟ فقال لنفسه: «أقترب بهدوء إلى المعطف.. وكأنه معطفي أنا: فأضع الرسالة في الجيب، ثم أنسحب منتظراً في الزاوية.. تحوَّل الانفعال في داخله إلى طوفان! كان يرتعش لأنه يقوم بمثل هذا العمل لأول مرة في حياته، عيناه تطرفان بلا هوادة، جلس فوق أنابيب التدفئة: بانتظار سكون وجيبه، وعودة دقات القلب إلى حالته الطبيعية، إني أقوم بسخافة كبيرة..»

لكنه مصمم على عدم التراجع.. سيتغلب على أي عائق حتماً، فمن طبعه عدم الصمود أمام رغباته وهواه.. فلن يتخلى عن «نالان» «لراسم» ولا سبيل للتصريح بحبه لها غير سلوك هذا السبيل، قد ينجح في رسم

هالة من الدعاية حول نفسه، وفي جلب اهتمام «نالان»، بأنه شاعر وأديب جيد، ورد عليه بيتان للشاعر التراثي الكبير (فضولي) فردهما:

غدوت لايجتوي بلوعتي أحد سوى هوى مهجتي شبت حرائقها

ولاأرى طارقاً بابي فآنسه سوى رياح الصبا كلّت طوارقها

كان يقول لنفسه كلما ردد البيتين: كأنه يعنيني «!» وتمنى أن تطرق «نالان» بابه مع رياح الصبا.. وساح في أحلام لذيذة - ثم اختفت الأحلام كلها.. وحل محلها الحزن والانفعال.

فزع عندما لمسه عامل الشاي «شكري»، إذ ظن لوهلة أنه «راسم»، ثم تصاعدت ضربات قلبه فجأة، اقترب «شكري» إلى أن لاصقه.

- خذ دفاترك.

- ولِمَ استعجالك.. هل تعفنت عندك؟

انزعج «شكري» لهذا الجواب المتعجرف، فألقى بالدفاتر فوق أنابيب التدفئة، وصب مزاجه العصبي في الرد:

- إذا كنت تقابل إحساني بهذا الأسلوب فلا تترك دفاترك عندي بعد الآن.. أنا لا أعمل حمالاً عندك!

تركه والغضب باد عليه.. تأسف «ذو الكفل» جداً.. فما ذنب هذا المسكين الذي جلب دفاتره إليه بإخلاص؟ وضع الدفاتر تحت إبطه وصك أسنانه:

- ويلك «راسم».. أيها الإبليس كأني آخذ بثأري من ابن مدينتي.

هذا الحديث أثارت فيه الحرارة «يجب إنهاء العمل هذا..» فنهض وأخرج الرسالة من جيبه طواها ثلاث طيات، توجه نحو المعاطف، لم يكن يشعر لا بالخوف ولا بالتردد، واثق أن الأمور ستجري على ما يرام، وصل إلى المعاطف بشكل اعتيادي مسك الرسالة في كفه بقوة، هذا معطف «نالان» حتماً، ودس الرسالة في جيب المعطف الكريمي اللون، انسحب، ابتعد بهدوء، لم يشعر أحد بما يجري، فاض فيه فرح غير مألوف، لقد أنجز بنجاح عملاً خَطراً، لقد انتصر، جلس في المكان الذي غادره، لعب بطرف أنفه حتى سماعه صرير الغضروف. لم يبق أمامه إلا انتظار أن تلبس «نالان» المعطف، وتضع يدها في الجيب «المهم استلامها الرسالة» ثم ليحصل ما يحصل! وتسمر في الانتظار.

خرجت فتاة من قاعة الدرس متوجهة نحو المعاطف بسرعة، مدت يدها إلى معطف.. ولبست المعطف.. المعطف الذي فيه الرسالة! هذا محال الفتاة ليست «نالان»! يا للويل والثبور! لقد وضع الرسالة في معطف آخر.. كاد أن يبتلع لسانه خوفاً. أين معطف «نالان» إذن؟ نظر جانباً.. هناك معطف كريمي آخر.. واه.. لقد وضع الرسالة حتماً في معطف آخر، ارتبك من أخمص قدمه إلى قمة رأسه، الموقف سيئ للغاية.. فتاة لا يعرفها تتلقى رسالة من «ذو الكفل يشيل يورد» موجهة إلى (العزيزة نالان)! «هه.. هاي..»

ضحك ضحكة ابتلاء وهز رأسه:

- تُفٍّ.. أفسدت كل شيء!

وخرجت نالان لبست معطفها! ارتفع انفعال «ذو الكفل» وخوفه إلى أعلى مستوى.. اقتربت الفتاة الأخرى من «نالان»، تشابكت أيديهما وتركتا الكلية معاً.. تبعهما خطوة إثر خطوة.. «إلى أين ستصل الأمور.. قد أغرق وقد أنجو..!! صعدا إلى سيارة فصعدها. حتى الآن لم تمد أي منهما اليد إلى الجيب، لازال في نفسه شك ضئيل « لننظر من أي الجيبين تخرج الرسالة..» نزلتا في الموقف الأخير، ثم عبرتا إلى شارع الجمهورية من شارع «شايقاره» وهو يتابعهما من قريب مستغلاً عدم معرفتهما إياه.. في اتباعه أثرهما يرتطم بالمشاة أحياناً فيفقد توازنه، ولا يعير أي أهمية لنظراتهم الشرسة من خلفه، بل شتائمهم أحياناً..، لقد قذف نفسه في خضم مغامرة خطرة، يعلو وجيب قلبه.. ويعلو، تتسارع أنفاسه الحرّى.. وتتسارع، يشعر كأنه سيفقد وعيه، لكنه لا يتباطأ في سيره.. انعطف إلى «داداش» فتساءل في نفسه: «هل ستدخلان السينما؟» لا.. لقد دخلتا إلى بوفيه شاقر».. توجهتا إلى منضدة نائية في أقصى البوفيه فيها صديقات بانتظارهما، وطلبتا «همبرغر» ولبناً، جلس «ذو الكفل» والتردد مسيطر عليه في مكان قريب منهن، وطلب عصير فواكه فقط. عيناه ترقبان الفتيات، «نالان» أحياناً تنظر إليه.. ثم تلتفت إلى صديقاتها مبتسمة.. يتبادلن الحديث عما يخطر لهن أثناء غرز أسنانهن في «الهمبرغر» وارتشاف اللبن، و«ذو الكفل» يسمع ما يدور بينهن حرفاً حرفاً لرهافة سمعه.. وهو متشاغل بالنظر في أرجاء البوفيه، في البوفيه أربع مناضد، حول كل منضدة أربعة مقاعد، تحاصرها ثلاثة جدران، والطرف الرابع زجاجي بالكامل.. رفوف الجدران فيها علب عصير الفواكه ومأكولات جافة. رجلان يعملان

بلا توقف في خدمة الرواد، أحدهما يجهز «التوست والهمبرغر» حسب طلبات النادل، والآخر يستلم النقود ويلبي طلبات أخرى للنادل أيضاً.

ركز عينيه في عيني «نالان» حين نظرت إليه، فانتبهت، وقالت:

- انظرن إلى هذا الأحمق الذي يرصدنا!

حولت الأخريات شيئاً من نظراتهن إليه، علقت التي تلبس معطفاً أخضر، لا تهتمي.. العيون تتعلق بالحسناوات.. دعي هذا المسكين يمتع عينه وقلبه بالنظر على الأقل.. ألا ترين أنفه يكاد يمس السقف؟

انغرزت الجملة الأخيرة في قلبه كالسهم «آه.. يا نالان».. لقد أدخلت شيئاً من السرور إلى قلبي بقولها:

- لا تستهزئي بشكل أي إنسان.. لو خُيِّر لاختار لنفسه شكلاً جميلاً، إنها «الطبيعة» التي لم تترك له حق الاختيار!!

ردت الفتاة:

- ولم تترك لنا أيضاً حق الاختيار!

ولمع بريق الأمل في عيني «ذو الكفل».. وهتف في نفسه «نالان» الحبيبة!! لا تهتمين بالشكل الجميل إذن! لتسلمي إلى الأبد!» ولم يدم سروره طويلاً.. فقد أطفأت «نالان» نفسها الوميض.

- لكن وضع الوسيم خاص! لا أستصغر القبيح، ولكن لا أطيق النظر في وجه القبيح.. أشمئز رغماً عني!

أيدت الأخريات وجهة نظرها.. وقد أنهين الأكل، فطلبن عصير الفواكه، «ذو الكفل».. من جهة يتابع مأكولاتهن ومشروباتهن ولعابه

يسيل اشتهاء ، ومن جهة أخرى، يغرق في بحر قاتم من الأفكار «نالان لا تحب القبيح» لن أقدر أن أتزوجها إطلاقاً. أين معجزة الحب؟ آه.. آه.. يا حب في أي أرض منقطعة أنت؟ في أي جحيم؟ لماذا لستُ وسيماً كممثل سينمائي، أو لماذا لا تهيم بي «نالان» حباً..؟

يكاد صبره أن ينفد من الانتظار الصعب المنفعل لاكتشاف الرسالة.. أثناء الانتظار تتراقص ظلال أمام عينيه اللتين ترفان بلا انقطاع. الويل.. أدخلت الفتاة يدها في جيب المعطف.. كأن شخصاً أخبرها بأن فيها رسالة.. أخرجتها وقالت:

- يا بنات.. أنا لم أضع ورقة في جيبي.. فمن أين هذهِ؟

فتحتها وجميعهن في ترقب وقرأت:

- العزيزة «نالان»..

نظرت إلى «نالان» وقالت مبدية دهشتها:

- آ آ آ .. إنها لكِ لماذا هي في جيبي؟

نظرت إلى أسفل الرسالة وتدحرجت كلمتان من فمها:

(ذو الكفل يشيل يورد).. من يكون؟ ولم تكون رسالته في جيبي؟

أمور غريبة تحدث هذه الأيام!

اسم «ذو الكفل» أثار شيئاً كامناً في ذهن «نالان»، مرت في ذهنها صور غير واضحة لخالتها وابن خالتها «ذو الكفل» أتراه هو؟

ثم استبعدت ذلك تماماً: «ذو الكفل الذي أعرفه ليس غبياً».

قالت لصديقتها :

- اقرئي.. أسمع بهذا الأسم لأول مرة، معطفانا باللون عينه، وربما وضعها في جيبك خطأً، اقرئي لنسمع السخافات.

أوشك قلب «ذو الكفل» أن يتوقف. تجمد في مكانه من الانفعال، هزته الرجفات التي تبعثها في روحه لحظة الترقب لقراءة الرسالة.. كيف تلطخ أثناء اليومين أو الثلاثة الماضية بالأعمال القذرة التي يستهجنها هو نفسه؟ يقشعر بدنه عندما يفكر في النتائج وكأنه يهوي من السماء إلى عمق سحيق. وتهب أعاصير في عينه، ثم يعصف قلبه طوفان الحزن الذي يثيره حاسة استطلاع غريبة .. ماذا إذا أثارت كلماتي غضب «نالان»؟ هذا يعني نهايتي.. ويعني أن لا خير في الأدب!.

قرأت الفتاة الرسالة خافضة صوتها، مع أن «ذو الكفل» كان يستطيع سماعها، يحدق هو في «نالان» أثناء استماعها إلى الرسالة، وجهها هادئ وساكن، الفتاة الأخرى تمط شفتيها وتبتسم.. عندما أنهت القراءة، استلمت «نالان» الرسالة من يديها، وأعادت قراءتها تارة أخرى بصمت.. نظرت في حيرة إلى وجوه صديقاتها، وخرجت الكلمات من فمها مليئة بالغضب، كل حرف صار رصاصاً استقر في مخ «ذو الكفل».

- أحمق! لا أعرف شكله، غبي، أي صفات هذه تعيش في صورة إنسان على وجه الأرض؟ يعلن لفتاة غريبة عنه بغير خجل حبه، ويضع رسالته الحقيرة بغير علمها في جيب المعطف متخيلاً أنه يقوم بعمل حضاري!

وياليته أصاب الهدف!

يا للأشكال الغريبة التي في أرضروم! من المؤكد أن هذا الرجل من أرضروم! لأننا لم نشهد منهم إلا الغضاضة منذ مجيئنا.. أيها الكلب المستكلب المتخلف عقلياً يظن أن يحل العُقَد برسالة! سترجع بخفي حنين، يا فظ يا غليظ القلب! ويصرح بفقره بلا تردد! أبله.. لابد من الثروة لتعيش! حب وفقر! كلمات «نالان» استقرت في أعماق «ذو الكفل».. أحس أنه تضاءل.. وتضاءل، ثم سقط في المنفضة كعقب سيجارة محترقة، عندما تحول في لسان الفتاة التي ترف عينه لرؤيتها، حُورية قصره الخيالي.. أميرته، إلى كلب مستكلب وفظ غليظ القلب، قد يكون غبياً، أما كلب مستكلب وفظ غليظ القلب فكلا.. وألف كلا! ثارت وتململت في نفسه ذئاب الحقد.. تمنى أن يستطيع تمزيق «نالان» مثل كلب! قال في نفسه: حمقاء. لقد انزعجت.. أليس كذلك؟ لو دعوتك إلى سينما أو عصير فواكه في بوفيه لما انزعجت! ساقطة.. أمثالك ينبغي أن يمتن! لو ذكرت لك أني غني لتغير أسلوبك.. لهززت ذيلك مرحباً كالكلب..» استعدت الفتيات للنهوض بعد ارتشاف عصير الفواكه، طوت «نالان» الرسالة وأخفتها في جيبها قائلة:

- من المؤكد أنه في صفنا.. سأعلمه حدود الأدب!

بدت ملامحها قاسية.. دفعت الحساب، فخرجن من البوفيه، كان «ذو الكفل» محطماً. الآن يدرك أنه ارتكب خطأ، ستشهر به أمام الملأ. ولماذا أهتم؟ أنا منكوب أصلاً.. كل ما في الأمر أن همومي ستزيد قليلاً: «ظن أن هذا التفكير سيخفف عنه، ولكن هيهات! همٌّ ثقيل أناخ على صدره.. لا معنى في الحياة.. الحياة عذاب دائم..» وأشعل سيجارة

ودفع ثمن المرطب، ثم خرج من «البوفيه»، متخيلاً ما قد تفعله «نالان» يتوجس رهبة كلما تصور ما قد يلاقيه، ويقشعر جلده فتتحول شعراته إلى أشواك متصلبة. ثم يقول لنفسه: لا تحمل هماً وليقع ما يقع، ياللحظ الأعمى! لو كنت من عائلة ثرية لما حصل كل هذا..

في الطريق صادف «موسى» الذي تعرف به عند التسجيل في مسكن الطلبة. توجها معاً إلى مقهى قريب، وجلسا قرب الواجهة الزجاجية المطلة على الشارع. نسي «نالان» ونسي الرسالة لبرهة. نفث دخان سيجارته أثناء ارتشاف الشاي، وتابع حلقات الدخان في الجو. «موسى» أيضاً يرتشف الشاي.

«موسى» شاب وسيم في الثانية والعشرين، يتمنى «ذو الكفل» في قلبه أن يكون في مثل وسامته كلما نظر إليه. (طقم أسود) وقميص أبيض، حذاء أبيض أيضاً، ربطة عنق سوداء، عينان خضراوان، طول فارع، وجه أبيض، حاجبان سوداوان دقيقان، وشعر أسود، في معصمه ساعة ذهبية، وفي بنصر كفه اليسرى خاتم ذهبي ضخم، من أحب صفاته إلى «ذو الكفل» تفريق شعره إلى شطرين قريباً من عينه اليسرى، وعيناه الخضراوان.. لحيته حليقة بعناية، ووجهه مدهون، ووجنتاه صافيتان. الأنف والأذنان في تآلف تام مع تقاطيع وجهه. «موسى» من مدينة «باليكسير» ويدرس في الصف الرابع في كلية الطب.

نظراته هائمة في أرجاء المقهى بلا تركيز على نقطة محددة، المقهى صالة مربعة الشكل، فيها ثلاثة أزواج من المناضد المتقابلة، ولا يوجد تلفزيون في المقهى.

الرواد تجاوزوا سن الشباب على العموم، ويعمل فيه رجلان معد الشاي ونادل. تزين الجدران رسوم عديدة وتقويم سنوي.

موسى لا يستطيع تفسير وجوم «ذو الكفل» وشرود ذهنه، وأخرج علبة سجائر «ونستون» عندما لاحظ قرب نفاد السيجارة في فم «ذوالكفل»، قائلاً:

- خذ!

سحب «ذو الكفل» سيجارة فوراً. سأله موسى:

- أراك شارد الذهن!

- معنوياتي منهارة جداً.

- هل حصل شيء سيئ؟

- شيء فظيع!

- وما الذي حصل؟

- وضعت الرسالة في جيب فتاة أخرى خطأ.

اندهش موسى جداً، توسعت عيناه الخضراوان.

- أي رسالة.. أي فتاة؟

ضحك «ذو الكفل» رغماً عنه.. ونفث دخان السيجارة في الفراغ بتغيظ:

- الحب.. حب جنوني! أحببت فتاة في صفنا كالمجنون، كان عليَّ أن أشعرها بحبي.. فكرة مجنونة! صممت أن أضع رسالة في جيبها.. فضيعت كل شيء!

وضعت الرسالة في جيب زميلة لها خطأ، لتشابه معطفيهما. خرجتا معاً فتابعتهما. جلستا في «بوفيه» مع صديقات، فجلست قريباً منهن، لم يفهمن الحادثة في البداية.. وتوضح الأمر بعد أن قرأت الرسالة.

مرة أخرى ضحك «ذو الكفل» رغماً عنه.

- نعم.. تحصل.. لا أشغل بالي! لكن الفتاة ستشغل بالها!

ستلقنني درساً في الأخلاق.. ستجعل مني مهزلة.. ويمكن أن يصل النبأ إلى راسم..

- ومن راسم؟

- راسم دورمز، طالب من إسبارطة في صفنا.

- انصبت الكلمات حاقدة من فم «موسى».

- ها.. أتعبني ذلك العقرب الأصفر؟ عدو الشعب الذي يحسب نفسه بطلاً؟ ما علاقته بالفتاة؟

- هو أيضاً يحب الفتاة، هو أوفر حظاً مني.

- وما اسم الفتاة؟

- «نالان يلكن».

كأن مطارق حديدية نزلت ضرباً على رأس «موسى».. طاشت عيناه إلى بعيد كأنه يتذكر شيئاً ما.. وتساءل في شك:

- قلت: «نالان يلكن»؟!.

- نعم «نالان يلكن»!

- من أي مدينة هي؟

- من إستانبول؟

دقت المطارق مجدداً على أم رأسه، وسأل في همس:

- إذن هي إستانبولية؟

- نعم إستنابولية.. هل تعرفها؟

شعر «موسى أنه تعثر في الكلام، فتمالك زمام نفسه، واستقر صوته وحركاته في حال اعتيادية وهو يخاطب نفسه، ليس هذا أوان حماقة..

وسارع مجيباً:

- لا.. لا أعرفها.. لقد تذكرت موضوعاً آخر فشرد ذهني، كيف أعرف فتاة في كليتكم وصفكم؟

- يمكن أن تكون صديقتك.. ليست جريمة أن تعرفها!

- ليست جريمة.. لكنني لا أعرفها ، كل ما في الأمر أن لقبها ذكرني بمصيبة أصابتنا.

استطلع (ذو الكفل):

- أي مصيبة؟

- عمي. كنت أحبه جداً، وأعده أبي، كان يعمل في صيد الأسماك. غرق هو وقاربه الشراعي! (ويلكن يعني شراع)

انقبضت أسارير «ذو الكفل» وتزاحمت الخطوط السوداء حول عينيه:

- متأسف!

- لقد حزنا كثيراً... ما باليد حيلة أمام الموت. كان هذا منذ زمن بعيد، وعند سماعي كلمة «يلكن» حضرت صورة عمي أمامي.

في شخصية «ذو الكفل» شيء من السذاجة منعت اكتشاف كذب «موسى»، فدعا بالمغفرة لعمه، وصمتا مدة من الزمن. في هذه الأثناء شربا كوب شاي آخر.. ثم استفسر «ذو الكفل»:

من أين تعرف «راسم»؟

رأيته في عراك، كان كوحش، هو وأصدقاؤه ضربوا شاباً مسكيناً إلى درجة الموت، ثم علمت فيما بعد أنه عضو فئة سياسية متوحشة، وفي نيته من الآن أن يرتقي إلى مسؤولية الفئة في الجامعة.

- حاول ضمي إلى صفوفهم.. وفي النهاية افترقنا من غير اتفاق.

- حسناً: فعلت.. لو مددت إلى هؤلاء كفك لخطفوا ذراعك.

«ذو الكفل» يعرف أن «موسى» أيضاً عضو في إحدى الفئات السياسية لذا تحدث بنبرة واثقة:

- الفئات السياسية كلها سواء!

غير «موسى» الموضوع فوراً.

- من الصعب أن تفهم الإنسان.. الفيزياء الرياضيات علوم سهلة.. أما الإنسان!!

رد «ذو الكفل»:

- نعم.. آه من الإنسان! ما أصعب معرفة الإنسان! ما أتعس العجز تجاه الاختلافات النفسية والسلوكيات المتناقضة للإنسان! أنا مثلاً لن يفهمني أي إنسان مهما كان قريباً مني، لأني بنفسي لا أفهم نفسي! الليل مظلم والنهار برد قارس في داخلي! قلبي يلتهب حرائق ونيراناً، وروحي يمور كالبركان، وصدري خرائب ودِمَن. أحياناً تبدو الشمس في نظري مشرقة كأنها لا تغيب أبداً.. وفي النهاية تغيب وكأنها لن تشرق أبداً. الزمن ينساب قطرة فقطرة من شفاه عمري كما ينساب السائل من كيس السيروم (الماء المغذي) المغروز طرف أنبوته في شريان المريض الراقد. وأُدرك أن القطرة الأخيرة ستسلم جسدي المسكين إلى الوحدة الأبدية.

حدَّق أولاً في رواد المقهى، ثم في «موسى»، بعد ذلك في عابري السبيل أمام المقهى، واستمر قائلاً.

- معرفة الإنسان! الإنسان مخلوق نفعي خالص! يكيد بنفسه على نفسه. هل تأمل الإنسانية النجاة على أيدي هذه المكائن العاطلة؟!

تدخل «موسى»:

- كلا!

- من يخلصها إذن؟

- أصدقاء الشعب.

- من هم أصدقاء الشعب؟

- أنا.. وأنت.. وغيرنا.. كل من يدافع عن التضامن!

- التضامن؟ أنا لا أعرف ما التضامن حتى أدافع عنه!

اتخذ «موسى» حديث «ذو الكفل» فرصة ثمينة:

- أتريد أن أوضح التضامن بخطوط رئيسة؟

رفض «ذو الكفل» العرض فوراً: لا أريد! ما بي يكفيني!

- إذن اشرح أفكارك أنت..

- أنا لا أعرف شيئاً ألبتة.

ضحكا معاً، أطفأ «ذو الكفل» سيجارته في المنفضة المعدنية فوق المنضدة، وألقى نظرة على الرواد الكهول الثلاثة وصانع الشاي والنادل، وفي هذه الأثناء دخل رجلان وأخذا مكاناً في الجهة المقابلة، وطلبا الشاي من النادل.

فتح «ذو الكفل» فاه كأنه مفكر كبير:

- كل إنسان يظن أنه يعرف أشياء جمة.. وفي الحقيقة لا أحد يعرف شيئاً، في الساحة حمل ثقيل. فمن يرفع هذا الحمل؟ أي الشجعان؟

- وهل تستطيع نملة أن ترفع حمل بعير؟

-يستطيع الأغنياء أن يرفعوا الحمل عن أكتافهم: إن شاؤوا، لكن هيهات! أكتافهم أضيق ما تكون لغيرهم.

- وطبقة الموظفين؟ ما رأيك بشأنهم؟

ابتسم «ذو الكفل» ونطق كأنه إنسان يعيش في عالم آخر.. في الوقت نفسه يظهر «موسى» الإنصات بكلِ جدّ ليستر الاستهزاء الخفي:

- خَدَمُ الدولة قلباً وقالباً! يتصورون أنفسهم مهمين إلى درجة يظنون معها أن توازن العالم سيختل من غيرهم! كلا.. ليس هؤلاء حملة هذا الثقل!

- وما رأيك بالعمال؟ بالكسبة؟ بالقرويين؟

هز «ذو الكفل» رأسه ورائحة الحزن تفوح في صوته:

- هؤلاء التعساء الذين يكافحون من أجل إشباع البطن، أكتافهم فسيحة لكن مساحة تفكيرهم ضيق! في الوقت نفسه محرومون من النور إلى درجة أنهم لا يشعرون.

إن الحياة التي يضطرون على اجتراعها إنما هي عبءٌ. إخراج هؤلاء من الظلمات إلى النور جزء من الحمل الثقيل، بصيص الشمع لا يكفي.. لا فائدة من بصيص الشموع. أمثال هؤلاء، ومثلي- بحاجة إلى شمس لا تغيب، الأحزاب السياسية تريد أن تطفئ خيوط الضوء الأخيرة من سمائنا، آه.. يالها من فوضى!

- هلاَّ وضحت الأسباب؟

- الحسابات مغلوطة! نحن نسلك الطريق الخاطئ. لندخل الجُحْر الذي نشاء.. لا فرق. سنجد أنفسنا في مشاكل تحيط بنا إحاطة الكرة. يجب أن نعيد الحساب لنجد خياراً آخر، وطريقاً آخر يقودنا إلى الخلاص.

- كيف؟ وأي طريق؟

- هذا مالا أعرفه. أُشخِّص المرض ولا أصف الدواء!

- صديق اسمه (محمد فؤاد) يشرح أشياء في هذا المجال.. أشياء عن الإسلام.

في الحقيقة حلول جيدة ومفيدة إذا أمكن تطبيقها، لكن ذلك صعب! أعني أن تطبيق تلك الأفكار عسيرة جداً، ولهذا لا أستمع إليه عادة.

- نعم.. احذر أن تسمع أمثاله! أولئك يخدعون إنساننا البسيط بارتداء كسوة الدين، ليعموا أبصار الناس ويوقفوا عجلة تقدم المجتمع.

- لا أظنه سيئ النية، فهو يؤمن بما يقول من كل قلبه، لكني لا أهتم برأيه مع ذلك.

- قد نخطئ الحدس في الإنسان. ربما يكون ناعم الملمس وساماً كالثعبان.

- لا أظن .. يبدو طيباً جداً.

- مهما كان.. انتبه لنفسك.. كي لا تقع في فخ!

تصور «موسى» أن التوسع في الموضوع قد يولد أفكاراً مضرة من وجهة نظره، ففضل السكوت. في هذه اللحظة دخل رجل مسن أشعث. ذراعه اليسرى ممدودة إلى الأمام ويده مبسوطة، يعرج في السير.

ذكّره العرج بوالده، فأحس بألم يعصر روحه قال بصوت كالأنين:

- صدقة في سبيل الله..

بدأ التسول من الطرف الأيمن، المتصدقون قليلون.. البعض وضع ثمن العلك في يده. يبدو كاليائس من «ذو الكفل» و«موسى» إذ لم يمد يده نحوهما، تأثر «ذو الكفل» من هذا التصرف وتساءل:

- من أين خطر له أننا لن نعطيه؟ هل يرى وضعنا أسوأ من وضعه؟

ووضع يده في جيبه فأخرج نقوداً تكفي لوجبة في مطعم، وأعطاها للمتسول في اللحظة الأخيرة قبل خروجه من الباب. تعجب المتسول وتمتم:

- عمَّر الله بيتك يا ولدي.

- ثم ولَّى، ابتسم، «ذو الكفل» وأخذ مكانه في الكرسي جيداً، وقال بصوت يسمعه «موسى»

- حسناً.. ولكن ليس لي بيت! ليته دعا الله ليهبني بيتاً!

أنا نقطة لا يوجد فيها موقد في هذا العالم الفسيح والكون العظيم، وأبي وأمي يظنان أنهما يعيشان أثناء انتظارهما لغليان حفنة ماء لتحضير الشاي:

الحياة! أنا أيضاً أحيا، أنا أعيش! أدرس لأكسب الثروة وأحوز الاحترام والمكانة المرموقة!

من أجل هذهِ الغاية ابتعدت عن ذاتي كثيراً «ذو الكفل» ذلك الطفل اليافع الطاهر.. وصل إلى حال لا يتردد عن الإساءة إلى أبيه إذا اقتضت مصلحته الشخصية ذلك.. أراد «موسى» المستهزئ في سره من أسلوب «ذو الكفل» الأدبي، أن يثيره أكثر:

- أنت طالب في كلية الآداب، وذكرت في لقائنا الأول أنك تقرض الشعر.. هلا وصفت وضعك الحالي بأسلوب أدبي؟

- ضحك «ذو الكفل» بمقاطع قصيرة، واستيقظت في أعماق عينيه إضاءات وحشية وتغيرت نبرة صوته قليلاً:

- أنا لست في وعيي لأرى لطافة ضوء القمر في الهالة، أو أسمع قهقهات السعادة في الريح، أو أحس الأسرار المكنونة في أعماق الصمت. أنا أُمثِّل دوراً حقيراً مجنوناً وسط خيالات غريبة وسلوكيات مضحكة.. أنا ألعوبة تؤدي حركات محفوظة.. مجرد دمية تؤدي الحركات!

أظهر «موسى» تأثره من الأسلوب، وتكلم بصوت كأنه صميمي:

- آه من عدم القدرة.. سحقاً للرأسمالية.. سحقاً لأرباب الثروة.

- نعم.. سحقاً لهم.. هل كنت أخاف «نالان» وراسم لو كانت جيوبي مليئة؟.. كيف السبيل إلى امتلاك ثروة كبيرة؟.. المال يقدر أن يفعل أي شيء.. حتى الإنسانية تشتريها بالمال!

- نعم يجب أن تملك نقوداً كثيرة! لكن ينبغي ألا تقع في مصيبة من أجل النقود. المهم نفسك.. لا أهمية لغيرك.. لتذهب النقود إلى الجحيم إذا أوقعتك في مصيبة.

- هل تعرف سبيلاً إلى النقود؟

أطرق «موسى» ملياً.. لقد استطاع أن يمسك «ذو الكفل» من أضعف

نقطة!.. قد يقربه إذا لوح له ببعض المال.. لكنه انسحب من المحاولة، فلم يحنِ الوقت بعد!

- لا أعرف طريقة في الوقت الحاضر وسأخبرك إن خطر في بالي طريقة.

- زواجي من «نالان» مثلاً لا يوقعني في أي مصيبة، الزواج من ابنة صاحب معمل طريقة ممتازة.. لكن كيف أقنع «نالان».. كيف؟ يجب أن أتزوجها.. يجب أن أمتلك مالها وجمالها!

- نعم.. طريقة ممتازة!

نظر «ذو الكفل» إلى ساعته القديمة:

- تأخرنا.. هل نمضي؟

قال «موسى»:

- لننهض.

ودفع ثمن الشاي، ثم قدم إلى «ذو الكفل» سيجارة «ونستون» أخرى، وأخذ هو واحدة، أشعلا السيجارتين وغادرا المقهى.

انفصل «موسى» إلى البريد المركزي ليتصل هاتفياً بطبيب ذكر أنه رفيق عقيدته، واتجه «ذو الكفل» إلى موقف السيارات وركب إحداها. أثناء عبوره في منطقة «حوضباشي» شاهد «محمد فؤاد» وكان يتحدث، مع مصطفى.. أشار إليهما بيده فلم ينتبها إليه. كانت السيارة تتقدم في الطريق المؤدي إلى الجامعة مخلفة وراءها دخاناً كثيفاً.. و«ذو الكفل» شارد الذهن في أزمة ذاته الضيقة.

عندما مرت السيارة بالكلية قرر أن ينزل قائلاً لنفسه:

«لأطيّب من خاطر ابن مدينتي شكري..» ونزل

❖❖❖

في أرضروم، درجة حرارة مرتفعة كحالها الحاضر. في النصف الثاني من أكتوبر (تشرين الأول) تبعث الحيرة. ومن حسن الحظ أن نسيماً عليلاً يهبُّ فتتراقص أوراق الأشجار على وقعه. انحرف «محمد فؤاد» ومصطفى من منعطف (حوضباشي) إلى شارع المستشفيات.. وسائط النقل تتسابق في الشارع بلا كلل أو ملل.

على اليمين، المستشفى النموذجي، وفي المواجهة بالضبط مستشفى المارشال (فوزي جقماق).. مبنيان عملاقان يبثان حولهما الحزن مجسماً في الحسرات والآلام والضنى !. ومع الحزن ينثران شيئاً من السرور أيضاً.

يلاصق مستشفى المارشال (فوزي جقماق) بالترتيب مديرية الصحة، ومؤسسة المواد الزراعية، ويلاصق المستشفى النموذجي مستوصف (ضلز دولوناي)، ومسجد (كيز) ودكاكين متفرقة. وناس يمرون، ومطاعم، وصيدليات، ومقاهٍ، وأسواق ومحلات المرطبات.. كدح ابن آدم المتواصل.. هرولة الآمال التي لا تتعب، وهذهِ الحياة المستمرة!

قال: «محمد فؤاد»:

- الخيال.. إنساننا يلهث دائماً خلف أشياء خيالية!

فقال «مصطفى» معقباً:

- وكلما تقدمت الحضارة، زادت الأشياء الخيالية.

- الحضارة.. لقد حرفوا معناها عندنا إلى وجهات خاطئة، لا بد من الأسى على ضحالتها.

- كيف حرفوا معناها؟

-قياس الحضارة عندنا هو بالتجاوز على حرمات الله، كلما ارتكب المرء محرمات أكثر، بدا أكثر تحضراً في مرآة الحياة الحديثة!. في الحقيقة هذا الحال ذروة التخلف والجهل. قياس الحضارة بمقاييس مغلوطة خطأ كبير.. وياليت قومي يعلمون!

- وما الحضارة من وجهة نظرك؟

- التحضر يعني: الارتقاء مادياً ومعنوياً معاً. لا يمكن فصل الماديات والمعنويات في التقدم الحضاري، كما لا يمكن فصل الروح والجسد عن الإنسان، غياب واحد منهما يسبب دوامة للإنسان.. يسعد بعض الناس ويتعذب غيرهم.. بل المعذبون سيكونون أكثر من السعداء!

استمرا في الحوار، إلى أن وصلا مسجد «كيز».. في هذه الأثناء ارتفع صوت المؤذن يدعو إلى صلاة الظهر، استفسر (محمد فؤاد) بصوته الوديع:

- هل نذهب إلى المسجد؟

- في الحقيقة لست متهيئاً بعد.. ربما في المستقبل!

- حسناً، في الوقت الذي تشاء.. المساجد تستقبل الناس كل الأوقات، ومتى شاؤوا. لست بحاجة إلى الاستئذان للدخول إلى مسجد.

ودّعا بعضهما بالابتسامات.. «محمد فؤاد» إلى الصلاة. ومصطفى إلى جهة محطة القطار، ثم دخل صالة بلياردو في زقاق ضيق وهو يخاطب نفسه: «ليتني ذهبت مع محمد فؤاد إلى المسجد، يارب! لماذا أعيش في الذنوب؟ لماذا لا أستطيع التحكم في إرادتي؟».

عندما دخل الصالة قابلته وجوه مزدحمة. وانتزع نفسه من ذلك التفكير متعلقاً بالجذب الساحر للبلياردو. الأشياء كلها مختلطة ببعضها حيناً. الإنسان، الدخان، القهقهات، صوت الموسيقى.. الأشياء كلها تدور في دوامة. وابن آدم محاصر من كل الأطراف في عالم صغير يظنه جميلاً.. وفي الواقع يقضي العمر في البحث عن سلوى يدفع بها عن نفسه الإحساس بالفراغ والضياع النفسي.



الفصل الرابع

(ذو الكفل يشـيل يورد): شـاب مـتـوسط القـامـة، أسـمـر البـشـرة محدودب الظهر قليلاً رغماً عن شبابه، ذو أنف ضخم عليه آثار بثور، حدقة عينيه عسلية اللون وبياضهما يشوبه شيء من الحمرة والرطوبة الدائمـة، ضـامـرالخـدين من الضـعف، يداه مـتـورمتـان من العمل، في سـاقيـه ميل قليل إلى الداخل، الضيق الذي يعانيـه في الحـيـاة جـعلت نظراته جامدة وواجمة، وحصرت عينيه بهالة من التجاعيد تبدو للعيان بخطوط سوداء، سنه تسعة عشر عاماً وإن كان يبدو في الخامسة والعشرين، متميز في التصرفات والسلوك والعادات، ومن عاداته الضغط على أرنبة أنفه الغضروفي، وتوسيع محجر عينيه، وتحريك حاجبيه إلى الأسفل أثناء الحديث، كتفه اليمنى أعلى من كتفه اليسرى قليلاً.

يحزن لشكله ويردد مع نفسه دائماً «قبيح.. قبيج جداً. لا شيء فيَّ يستحق الإعجاب! فقير وقبيح! مشؤوم، كأي شيء فائض عن الحاجة في هذا الوجود.

كل مافي حياتي يجعلني آسف على حياتي، الفقر، القبح، الـ..ياإلهي هل خلقتني خالصاً للعذاب؟ للانسحاق؟ إن كنت موجوداً وعظيماً فأنقذني من آلامي.» ثم يندم على ما قال، ويخجل من شكِّه في الله، ويصل إلى أقصى درجات اليأس. «في الغالب سأتحول إلى كافر تماماً، وأفقد في نفسي دوافع الإيمان. ثم هل أنا مؤمن بالله لأني يجب أن

أؤمن به، أم أنه موجود وأؤمن به لذلك؟ كلا».. أنا لا أفهم ذاتي.. آه.. أيها الموت! لماذا أنت عسير؟!»

يحاول تخدير روحه المتمردة بسيجارة (بتليس)

آه.. يا (سامسون)، يا (ماليته)، (مارلبورو)، (ونستون)، (كينت)، آه.. آه يانقود!.. (أسماء سجائر جيدة النوعية).

يشمئز من أنفه كثيراً، ويشبهه بباذنجان صغير، عندما تنظر إليه من الأمام تلاحظ في وجهه ثلاثة منخفضات: خديّه الضامرين، وحفرة صغيرة في حنكه. ومما يظهر ضمور خديه بجلاء بروز عظم وجنتيه. وما أعظم شكواه وحنقه من أهدابه القصيرة وضعف وخفة شعر الحاجب!، والأدهى أنه كثيف اللحية ورقيق الشارب!. شعره أسود ومتموج، وكان يطمئن إلى صفته هذه، ويشعر أنها الصفة الوحيدة التي تعجب الآخرين -خاصة النساء-.

أحياناً يستعير بنطالاً أو جاكيتاً أو قميصاً من صديق مقرب ولأيام معدودة، ويفخر حينما يلبس ما استعاره كأنه ملكه، وتنتفخ أوداجه فخراً «أنا ملك.. ولو ليوم واحد» ولا يهمل إبداء الشكر للصديق.

ومن ميزاته أحلامه الأدبية العريضة.. والحرص حتى الهوس لارتقاء سلم الشهرة كأديب كبير؛ والميل إلى الشعر. أحياناً تمتلئ جيوبه

بقصاصات الورق المكتوبة كمسودات.. ثم يمزقها بعد فترة قصيرة لأنها لم تستحق إعجابه.

وتحت تأثير موجة من التشاؤم بأنه لن يكون أديباً مرموقاً حتى لو عاش قروناً، مستسلماً بالكامل إلى صفته التي تلازمه دائماً: التشاؤم.. عند ذاك يكره الأدب! «ليس للأدب أي معنى إذا لم تقدر أن تكتب من الشعر أروعه، أو تمارس من الهوايات أحسنها، في العالم كله. لا خير في الأدب إن لم تشتهر، ولم تحصل على مال كثير! يا ليت «فضولي الشاعر» لم يولد في الماضي لأحتل اليوم مكانه! يا لحظي الأعمى..» لم يكن يتصور أن عدم ولادة « فضولي الشاعر» لن يجعل منه شاعراً في مستوى (فضولي) بالضرورة.. لن يستسلم عادة لثورة الأحاسيس وقوة النفس.. يردد في همس:

غـدوت لا يكتـوي بلوعـتي أحـد — سوى جوى مهجتي شبت حرائقها

ولا أرى طارقـاً بابي فـآنسـه — سـوى رياح الصبـا كلت طوارقـها

لا أملك المال أو حـسناً يزينني — في أمـة قـد تزلـزت حـقـائقـهـا

ولا حـبـيب يحـبني سـوى أبويّ، — ثم تكرهني طُراً خـلائقـهـا

البيتان الأخيران من الشعر الذي عارض بهما «فضولي» وعندما يقرؤهما يفيض حزناً.

وهو مصاب بضعف البصر.. بتأثير قراءته المتطرفة الدائمة، في المرحلة المتوسطة للقصص المصورة، -على العموم قصص رعاة البقر- وفي المرحلة الإعدادية، الروايات الأدبية الأجنبية.

- يعتقد أن الروايات المحلية سخيفة - كان يقرأ هذه الروايات التي تضم على العموم روايات التراث الأدبي العالمي مستلقياً على ظهره، والكتاب قريب من عينيه. تصعب عليه رؤية الأشياء البعيدة، ولهذا السبب يلبس نظارات طبية منذ الدراسة الإعدادية. ورغماً عن رغبته الشديدة، لم يستطع إلى الآن أن يشتري نظارة ذات إطار معدني، نظارته ذات إطار بلاستيكي أسود وعدسة خضراء. يحبها كثيراً لأنها تعينه في الرؤية. بل يفضلها على أقربائه كلهم لأنها تساعده في أحلك الظروف.

سمعه مرهف جداً.. يمكن أن يسمع بوضوح الهمس الخفيف من خلف باب مغلق، يوجد خالٌ بقدر حبة العدس خلف صيوان الأذن اليمنى.. عندما يخلع ملابسه الداخلية تظهر أضلاع القفص الصدري بجلاء.



السبت الأخير لشهر أكتوبر تشرين الأول سنة ١٩٧٩.

«ذو الكفل» يجلس على قطعـة خـشب قـديم أمـام مـبنى من أربعـة طوابق في مرحلة التشييد في حي (يونس أَمرَهْ)، مـرتدياً ملابس العمل، الجو دافئ والسماء هادئة.

هذا الحي فيـه كثيـر من المبـاني ترتفع فوق الأرض بطابقين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسـة طوابق. قسم منهـا تم تشييدهـا تواً، وقسم مازال في طور البناء، وقسم آخر مسكون.

الأطفال يلعبون في الأرجاء مرحين، كأنهم يتخوفون من فقدان الأيام الدافـئة حـتى الربيـع المقبل، يتـراكضون بغـيـر توقف، وأشـعة الشـمس الحـارة تبدد برودة الريح الذي يشتد بين وقت وآخر. الزمن يطوِّق الناس بذراعيه ويضمهم إلى حضنه لينقلهم إلى الأيام الآتية.

الطرق الفرعية تلتوي خلال المباني ثم تلتقي بالطريق الرئيسي قريباً من مبنى مؤسسة الطرق الخارجية، تمر في الشارع الرئيسي بين فترة وأخرى سيارة صالون، أو حافلة نقل عام، أو واسطة نقل من نوع آخر، بصخب، مخلفة وراءها سحابة من الغبار الخفيف.

وإلى جانب (ذو الكفل) يجلس رجل كبير السن يدخن سيجارة على مهل، متطلعاً إلى جاكيت (ذو الكفل) الأزرق الغامق، المتسخ، والبنطلون الأسود المرقع، والحذاء المستهلك، عينا الرجل تشعان بالحيوية، وتوحيان بالعافية رغماً عن تقدمه في السن، كان (ذو الكفل) قد استفسر عن اسمه عند قدومه إلى العمل:

- ما اسمك يا عم؟!

وكان جوابه:

- صَفَر.

لحيته بيضاء وشاربه أيضاً، يغطي رأسه بطاقية خضراء ، يكتسب مهابة في المظهر بالطول الفارع والحجم الضخم، يرتدي قميصاً شتوياً بنقوش مربعة، فوق القميص خرقة من الصوف، يشد سرواله الشعبي بحبل أبيض يعقده من جهة الظهر. حذاؤه المطاطي الأسود ملطخ بالطين.

قطرات من العرق انحدرت من جبين (ذو الكفل) إلى خده، ما الذي جلب انتباه الرجل إلى (ذو الكفل) ليحدق فيه هكذا؟ هذهِ القطرات اللامعة تحت أشعة الشمس؟ أم خطوط التجاعيد السوداء حول عينيه؟ في نظراته رأفة وشفقة واضحة:

- اعذرني يا ولدي، لقد نسيت اسمك:

- ذو الكفل..

- ألا زال والدك في الحياة؟

صوت العجوز غليظ، وفيه رعشة، هذا السؤال أراح (ذو الكفل) وإن لم يبعث فيه السرور، فلم يسأله أحد من قبل عن والديه . قال:

- نعم.

وشهق بعمق، تراءت صورتهما أمامه، امرأة في الخمسين. شاب شعرها، وتجعدت أسارير وجهها، سمراء، نحيفة، قصيرة القامة، أنفها دقيق وطويل.

ورجل في الخامسة والخمسين. في وجهه بثور سوداء، ضخم الأنف، اشتعل شعره ولحيته وشاربه شيباً. مصفر الأسنان جداً، على رأسه قبعة لا يخلعها أبداً. متوسط القامة، إحدى ساقيه أقصر من الأخرى.

شبّك أصابعه وضغطها بحركة حانقة، وحلت رياح الحزن في روحه محل عاصفة التمرد التي كانت على وشك أن تكتسحها، قال بصوت يئن:

- أبي وأمي.. مسكينان! اثنان من الأحياء! تعيسان يعيشان العمر في حالة احتضار.

- سأله العجوز بصوت مرتعش:

- لماذا تتحدث بهذه اللهجة يا ولدي؟!

شهق (ذو الكفل) مرة أخرى، ومسح قطرات العرق بيده اليمنى، ضاغطاً على خدهِ إلى درجة الإيلام، ولعب بغضروف أنفه:

- لأنهما فقيران!

والتفت متأملاً الشمس، والآفاق، وجبل (يالان دوكن)، وكومة الخشب القريبة، وعربة العمل الصدئة. انتاب الرجل العجوز ندم على السؤال، وسحب نفساً عميقاً من خلال السيجارة، ونفث الدخان حلقات في الجو وقال:

- ألذلك تعمل في البناء؟

- نعم... ولذلك فقط كدحت، وأكدح أبداً. أسحب المسامير من الأخشاب أخلط الإسمنت، أحمل الأثقال إلى سفح السماء- وأشار إلى

الطابق الرابع - وقد أعمل حمالاً أو عامل فرن، صيفاً وشتاء، أتعب وأشقى في يومي العطلة الأسبوعية حتى حلول الظلام. لذلك فقط.. لأجل لقمة خبز!

- هذا جيد... إنه أفضل من التسول!

- نعم أفضل من التسول.. لكنه حملٌ مقرف إلى درجة تكفي لكشف أن بعض الناس يعيش عيشة (قارون) من غير تحريك شعرة واحدة في بدنه، متجاهلاً الذين في مثل حالي وحالك! وكشف امتصاصه لدم الفقراء بشراهة لإضافة رصيد جديد إلى أرصدته في المصارف.. عند ذاك يبدأ المرء بالبحث عن شيء أسوأ من التسول، فتضيق به الحلول وييأس مثلي.. يضل طريق الحق في الوقت الذي يدافع عن الخير! يصير جرثوماً مخيفاً ينشر في الأرجاء أمراضاً معدية.. يكبر ويكبر إلى أن يصير دملة مستعصية في جسد الحيوان المسيء بالمجتمع.. فتتولد معادلة صعبة، إما أن يقضي عليك المجتمع... أو تقضي عليه؛ ومجتمعنا مليء بمثل هذه الجراثيم وهذه الدملات المستعصية.. جراثيم ذكية إلى درجة اجتياز الجامعات، لا ذنب لهؤلاء، بل الذنب ذنب الذين يهيئون بيئة مشجعة لنموهم.. الذين أحالوا المجتمع إلى جيفة آسنة ملائمة لنمو أنواع الجراثيم كلها. ليس لهؤلاء البؤساء في مثل هذه البيئة خيار إلا أن يكونوا جراثيم، إنهم في مواجهة الخيار بين الموت والحياة.. فيضطرون إلى اختيار الحياة كدملة مستعصية! إنه حيَّرَ الرجل المسن عندما حسب (ذو الكفل) نفسه من ضمن الجراثيم. الجامعة في رأيه مكان محترم لا تصل الجراثيم إليها!

- رب العمل ذكر إنك طالب في الجامعة.. هل هذا صحيح؟

- صحيح... منذ سنوات أدرس وأعمل، لأني ابن عائلة فقيرة. مجرد حظ؟ لم تحظ بإرث من الأجداد! كل ما نملكه حقل، وأغنام عديدة، وبقرة، ومن الخير أن لا ولد للعائلة غيري، ولا أصدقاء لها.

- هل من ضرر في الأصدقاء؟

انقبض وجه (ذو الكفل) ونظر إلى العجوز بغرابة كأنه يقول مستنكراً «لماذا تسأل».

- الصداقة مضرة. لا يمكنك إظهار الصداقة من غير إظهار الكرم اللازم. إضافة إلى ذلك، أصدقاء هذه الأيام حقراء لا يتوانون عن الابتسام في الوجه والطعن في الظهر.. وعلى الأخص لا يمكن الثقة في أصدقاء عائلة فقيرة مثلنا.

سحق الرجل عقب السيجارة تحت قدمه، وحدق في (ذو الكفل) مخاطباً:

- ولدي..! الغنى غنى النفس، عرفت أثرياء كثيرين بلا قلب، بلا حب، أما أنا - مثلاً - فرجل فقير، ولكن قلبي مفعم بالحب.. أنا في الستين ولا زلت أستهلك عمري في العمل، وأظن أنه لم يبق لي بقية عمر طويل أستهلكه، ولغاية هذا الوقت، أجوع في اليوم الذي لا أعمل فيه، ولم يشعر بي أحد، انظر إلى حالي، إذا واجهني شخص في الليل حسبني لصاً! لكن لا أشكو، ليس في اليد حيلة، هكذا تبدّت الحياة لنا!!.

قال (ذو الكفل):

- نعم، أنت على حق، الغنى غنى النفس، على ألا تكون الجيوب فارغة! أيها العم: الفقر يسحق الإنسان، يستهلكه، يجرده عن الإنسانية! والأغنياء فقدوا الإنسانية أساساً لا أفهم ما الذي جرى؟! باختصار: الدنيا، والحياة، والبشر، والأشياء التي يدور الصراع من أجلها، والصحيح والصواب، والخير، والشر، لا أفهم هذه الأشياء أبداً، لا أستطيع التمييز بين الحقيقة والكذب، هل الدنيا حقيقة ونحن أكاذيب؟

هل الأشياء التي نراها موجودة حقيقة؟ أم أنها عبارة عن كذب كبير؟ سنوات وأنا حائر أراوح مكاني.. ولا زلت حائراً.

سأل العجوز مندهشاً:

- هل تؤمن بالله؟

- نعم أؤمن بالله.. ربما تبادر بعض الشكوك إلى ذهني أحياناً، ولكني مؤمن بالله..

- لست مؤمناً إذا وقعت في الشك.

ضحك (ذو الكفل) ضحكاً لم يجد العجوز تفسيراً له.. وقال:

- من المؤسف أن كثيراً من الناس يحسبون أنفسهم مؤمنين، ولكن يقعون في مواقع الشك، لأنهم يفكرون بأسلوب عديمي الإيمان، رغماً عنهم، فيتمنون الأشياء التي يكسبونها إذا تصرفوا تصرفات عديمي الإيمان، صادفت كثيراً من هؤلاء، ولا أشك أنهم الأغلبية! إذا سألت أي شخص عن دينه يقول: أنا مسلم، وهذا عين الكذب والمكر، من السهل

قولك «إني مؤمن»... تؤمن بماذا؟ ماذا أعرف عن الله الذي أؤمن به؟ هل أؤمن إيماناً عقلياً أم تقليداً لغيري؟ أم إرثاً متوارثاً؟ ما نوع الإيمان؟ ما أساسه؟ هل تحسم الأمور بالقول «إني مؤمن»؟ لا أحد يفكر في هذا... ولكن الجميع مؤمنون! الدين ربما يحض الإنسان على الإيمان العقلي! وأنا وأمثالي لا نجد فرصة للتفكير، لأن عبء الحياة ثقيل على أكتافنا، نحن نكافح من أجل أن نشبع، ربما تعيش أنت حسب متطلبات الدين... أما أنا فلا! أنا مكتف بالقول «إني مؤمن»!

- عش أنت أيضاً وفاقاً مع متطلبات الدين، يا ولدي!

- بماذا يفيدني؟

- تنجو من شكوكك، وتفوز بالطمأنينة، وتأمن على نفسك في الآخرة.

- أؤمنها من ماذا؟

- من جهنم.. من النار الأبدية!

ضحك (ذو الكفل) رغماً عن إرادته:

- أين وعيك ياعم؟ أنا أعيش حالياً في جهنم: أنا أحترق فعلاً! أريد النجاة في هذهِ الدنيا، وسأفكر في الآخرة مستقبلاً!

- يا ولدي... النجاة في الدنيا الفانية غير مهم. الأهم هو النجاة في الدار الآخرة.

- الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعل للآخرة حالياً هو قولي «إني مؤمن» إني أخضع (لأتكيت) أو أتبع موضة!!

- لا معنى لقول لا يسنده فعل.

- ولهذا قلت إن المسألة كذب! أو تحايل واضح، يشبه قول رجل: أعرف ما يوجد خلف هذا الجبل، وفي الواقع لا يعرف: لا أحد يوثق به اليوم، لا أحد يمتلك ذرة من الصدق! الجميع مخاتلون!

وقع الرجل في حيرة شديدة.. فهو لم يسمع من قبل كلاماً مثل هذا، قال:

- بمثل هذا الكلام تقع في الإثم يا ولد!

- إثم؟ لم يعلمني أحد ما الإثم !

- تعلّمْ.. أنت طالب جامعة!

شهق (ذو الكفل).. ترافقت هزات من رأسه مع الشهقة:

- الناس حيث أدرس ينصبون الفخاخ لبعضهم! أمن هؤلاء أتعلم معنى الإثم؟ أين وعيك يا عم؟ أنت تائه في دهاليز نفسك! لا تعي ما يجري خارج نفسك! نار.. وظلم.. وباطل! افتح عينيك يا عم... واعرف الناس والدنيا، فستعلم أن جهنم التي تخافها هي هذه الدنيا بعينها!

- صحيح.. في الغالب أنا تائه داخل نفسي، لكنك تائه خارج نفسك، ولا تدري ما في نفسك! لندع الموضوع. لقد ثرثرنا كثيراً.. هيا قم إلى العمل.. كومة الخشب بانتظارك لتسحب المسامير منها! لو كنت أنهيتها قبل الظهر لعملت الآن في خلط الإسمنت، هيا، أنت تعرف طبع رب العمل، لا يمسك زمام لسانه وقد يسيء القول إذا تماهلنا.

نهضـا.. توجـه العجـوز إلى العـربة القـريبـة، غـمـر المسـحـاة في كـومـة الـرمل ثم أفرغها في العربة، غمرها ثم أفرغها، وغمرها....

مسح (ذو الكفل) قطرات العـرق المنحدرة إلى وجهه، واتجـه إلى كومة الخشب على بعد عشرة أمتار، وفي يده خالعة المسامير، حملق بنظرات شزرة في المسامير الصدئة... كان جسمه متصلباً مشحوناً بالحقد... ليت الفقر يبرز أمامه الآن في لباس اللحم والدم ليهشم رأسه بالقالعة تهشيماً! ما أعظم العذاب الذي يعانيه بسبب الفقر! آه من الفقر.. آه.. تظل تتمنى ولا تحصل على ما تتمنى!

عليه أن يسحب المسامير من أكداس الخشب هذهِ، عضلات يديه متصلبة، انحنى ببطء، عضلات ساقيه متصلبة أيضاً . وحينما استولت عليه موجة من الارتعاش، تنبه إلى برودة النسيم الهاب، وأحسَّ أن العرق تجمد في ظهرهِ والتصق بجسمه.. ثم غمره من جديد في مثل هذا الجو في شهر أكتوبر» استقام معتمداً إلى خشبة حملها من الأرض.. حدق فيها بقسوة واشمأز من منظر المسامير الصدئة.. تكثف الحقد في نفسه وهاجت الذئاب في داخله.

«لا أريد أن أسحب المسامير بعد الآن! ضجرت من الجمع بين الدراسة والعمل.. أنا جزء من هذا المجتمع الكبير، ولا أختلف كإنسان عن غيري، ومن حقي أن أدرس وأنفق نقوداً كثيرة مثلما يفعل بعض أصدقائي. في الوقت الذي أبلع التراب في عطل نهاية الأسبوع، أولئك يتذوقون لذة الحياة بارتياد السينما والمطاعم الفاخرة في صحبة فتيات جميلات! ما الذي يمنعني من ذلك؟ هل الانحناء أمام قدري بالولادة في

عائلة فقيرة؟ لِمَ أحرم من دراسة مريحة مثل أقراني بسبب هذه الولادة التي لم أخترها؟ لم لا يمنحني المجتمع هذه الفرصة؟ هل خلقت لأخدم غيري؟ ألا يحتمل أصحاب الثروات مسؤولية منح شيء للفقراء؟ أي دنيا هذه؟ أي عدل اجتماعي؟ كأن النظم الاقتصادية كلها متفقة على السعي بجلادة إلى الظلم الاجتماعي، لقد ساد الارتشاء والتحايل والنفاق! لا شيء ينجز بغير وساطة. في أي قرية تنجز أعمال المواطن العادي مثل عمدة القرية؟ في أي مدينة تنجز أعمال المواطن مثل رئيس البلدية؟ في أي بلاد الأرض تنجز أعمال ابن الشعب مثل رئيس الوزراء؟ في الواقع.. إن المرء قد ينهي أرفع المراحل الدراسية، ثم يتعلق بأوطأ الدرجات في السلم الإداري أو يرتقي إلى أعلى السلم، بفرص يمنحها المجتمع له، المجتمع هو الذي يمنح فرص الصعود إلى الأعلى، والمجتمع كل لا يتجزأ! إذن... ينبغي ألا يظن أنه يمتاز عن غيره، كأنه رجل خارق أو أهم من الآخرين! وينبغي أن يحصل على دخل يوازي جهوده لا أكثر!.

ينبغي عدم الإسراف في مصادر الثروة بلا مبرر. لا أطالب أن يعيش كالمعدم، ولكن يجب ألا يمنح أكثر مما يستوجب موقعه! نعم... أؤيد أن الفئة التي تعتبر العقل المفكر في المجتمع، أو التي تقوم بوظيفة الحواس الخمس له: تشكل العمود الفقري لجسم المجتمع ولا يقوم إلا بها. ومن العدل ألا تشقى كما يشقى عامة الناس، ولكن في الوقت نفسه ليس من العدل أن يعيشوا حياة مترفة أضعاف أولئك. عامة الناس بحاجة إلى الراحة أيضاً! خاصة أنهم يتجرعون العذاب الأكبر بسبب التصرفات الخاطئة لهذه الفئة المتسلطة على المواقع العليا والحساسة للمجتمع!

مـر الـرجل الـعـجـوز بعـربة الـعـمل قـريبـاً من (ذو الكفل)، فـلاحظ أنه شـارد يحـدق في المسـاميـر المغـروزة في الخـشب بغـرابـة «يالله.. في هذا الشـاب حـالة غـريبـة، لا أعـرفـهـا!» ورفـع صـوته المختلط بصـوت الصـرير الصادر من العربة.

- يا ولد.. لا تنم هكذا على رجليك! سيطردك رب العمل إذا رآك!

واسـتـمـر في دفع العـربة، قـذف (ذو الكفـل) الذي عـاد إلى الرشـد بالخشـبـة فـوق الكومـة، بحـركـة شـديدة الغـضب. في تلك اللحظة أحس بألمٍ شديد.. وامتلأ كفه بالدم.. دم أحمر وألم نفذ إلى مخ العظام كلها. لقد مزق مسـمار كفـه. ضم كفه بقوة وقـذف بالقالعة على كـومة الخشب وبصق بملء فمه على الأرض!

- سـحقـاً.. هل لقيت في الحيـاة شيـئاً سـوى العذاب؟ لو كنت حفيـد مليـونيـر لما لقيت مـا ألقى! أخـرج منديلاً ولـف به الجـرح. لكن النزف لم ينقطع.. والألم لم يخف. توجـه نحـو الـرجل العـجـوز قـائلاً بصـوت حـاد النبرات:

- جرحت يدي.

بان الارتباك على حركات الرجل وسأل في انفعال:

- ماذا تقول؟

- مسمار صدئ جرح كفي.

كـان الدم يتـقـاطـر من أطراف المنديل عندمـا فـتح (ذو الكفل) كـفـه ليطلع عليه الرجل:

- انظر..

فرأى العجوز كفاً مشقوقة ودماءً نازفة، توسعت حدقتا عينيه:

- هل جرحت بالقالعة؟

عبر (ذو الكفل) عن اشتداد الألم بحدة الصوت:

- قلت لك مسمار صدئ!

تأثر الرجل العجوز للنبرة الحادة، فآثر الصمت، ومع ذلك أخرج خيطاً طويلاً من حزامه، وشد به المنديل بكف (ذو الكفل) شداً محكماً فتوقف النزف:

- قم إلى رب العمل، وخذ نصف أجرك، ثم أسرع إلى المستشفى، من الضروري أن تداوي الجرح، فالصدأ قد يسمم الدم!.

- أنا دمي مسموم أصلاً.. ولن يضرني الصدأ.

- إذن استمر في عملك.

علم (ذو الكفل) أن العجوز قال الجملة الأخيرة مغاضباً، لذلك ودعه وذهب إلى رب العمل ليستلم أجره اليومي، ثم بدل ملابس العمل، وفي الحقيقة لا يبدو فرق كبير بين ملابسه المعتادة وملابس العمل، منظر (ذو الكفل) يدعو إلى الرثاء بحق عندما تتوحد صورته الجسدية مع الجاكيت القديم ذي النقوش المربعة، والبنطلون ذي اللون الباهت عند الركبتين، والحذاء الملطخ بالإسمنت والقميص الرث. على هذه الهيئة غادر محلة (يونس أَمْرَهْ).

ألم الجرح لا يهدأ. أثناء السير في الشارع الطويل ذكره الألم بآلام الأيام السالفة، وأدخله في حوار مع الذئاب الداخلية ليحكي لها بعض معاناته:

«سنـة ١٩٦٠م، ولدت في قـرية من قـرى خـوراسـان لا أود أن أذكـر اسمها.. وليتني لم أولد. يوماً ما خطر على بال أبي أن أدخل المدرسة، وأنهيت الدراسة الابتدائية في قريتين عند أقربائي لعدم وجود مدرسة في قريتنا. جعت وظمئت ومسني الضيق.. ولم يشعر بحالي أحد. استمررت في الدراسة. منذ تلك السنوات الباكرة بدأت آلامي.. فيها شعرت أن بني البشر يحيلون الحياة إلى سوء وشر ودجل. اصطدمت بألف نوع من الكذب والقذارة، رأيت أن الثري محترم ومقدر، وأموره تدبر بسهولة.. والفقراء يضطهدون ويسحقون كطبقة منبوذة.. ورأيت لدينا مسرحاً تعرض فيه الخدع. وأنا أشهد هذا العرض المؤلم والمخيف منذ مغامرة الدراسة. هذا العرض القاسي يجب أن يتوقف. ربما يرتقي خشبة المسرح بعض الدمى المتحركة من أمثالي، في كفاح يائس.. نعم قد ينجح عدد من المنبوذين في القفز فوق المسرح، ولكن ألسنتهم تقطع وأفواههم تكمم فوراً..

درست السنة الأولى من المتوسطة في (قارس)، وسكنت في بيت خالتي بسبب الدراسة، كان زوجها رجلاً شهماً، يعمل طيّاناً في المباني، ويتحمل مصروفات تسعة أفراد ضمنهم أنا - بأجر عمله، وكان يساويني بأولاده في المصروف اليومي، ويمنحني بقدر ما يعطيهم، ورغماً عن ذلك حاصرني الشعور بالوحدة. المدرسة كانت بعيدة عن البيت، البيت في طرف المدينة والمدرسة في الطرف الآخر، أصل إلى المدرسة مشياً في نصف ساعة، وأعود مشياً في نصف ساعة، مسيرة شاقة على طفل لمدة ساعة يومياً، خاصة مع المرور خلال أحياء يتطلع عيون أطفالها في شراهة وطمع!.. أيام مرعبة!!.

في تلك الأيام كنت أصوم رمضان.. حالياً اعتدت الجوع، تحملي للجوع الآن أسهل، ولكن لا أصوم، ما معنى الصوم عن الطعام فقط؟ صومٌ بلا صلاة ولا دعاء ؟ هاهاي.. حتى مخ العصفور لا يقتنع بذلك!

في تلك الفترة كان يجلد روحي بالسياط: الخوف من جهنم وصيحات الزبانية المشحون في ذهني بالقوة منذ الطفولة. كنت أشعر براحة البال عندما أصوم، رغماً عن ارتعاش ركبتي جوعاً. وأحسب نفسي بطلاً لقدرتي على الصوم، وأتوسل إلى الله كي لا يعذبني في النار، لست مقتنعاً بالصوم بعد أن انقشع الغيم عن بصري، ورأيت أن جهنم هي هذهِ الدنيا، والزبانية هم البشر، وأني أحترق فعلاً، أظن أن الشيء الصحيح الوحيد هو أن أتحدى الزبانية!

سنة كاملة أذهب إلى المدرسة وأعود منها، ساعة واحدة يومياً، ضُرِبْتُ فيها.. وأُسْقِطْت على الأرض، وطوردت.. لكن عزيمتي لم تضعف.. ينبغي أن أدرس وإلا «سأحمل أكياس السماد على ظهري مدى عمري» كما يقول أبي.

أتذكر في طريقي منطقة تسمى (قايا باشي) قريباً من دائرة البريد، طريق ملتوٍ يمتد، ويمتد حتى يصل إلى (قايا باشي) في ذروة الصعود.. كان الطريق يبدو كأنه يمتد كما يمتد حزني وحسرتي. عندما أجلس على صخرة هناك، متأملاً النهر المنحدر في أسفل الهاوية.. في تلك اللحظات كانت نجوم الآمال في سماء ذاتي تهوي شهباً محترقة، لأن الصخور الحادة، التي لا أجرؤ النظر إليها في الوادي إلا بعد إغماض

عيني إلى النصف، تقطع شرايين الحنين في نفسي شرياناً بعد شريان، فأستلب بعيداً عن ذاتي تحت تأثير الإحساس بالزمن غير المنتهي، ثم أنهض سالكاً طريق العودة كعجوز متعب بلغ نقطة النهاية في درب الحياة. وكنت أفرح لفكرة أنّ خالتي قد تقلق عليَّ لتأخري، الإحساس بوجود من ينتظرني يشعرني بالراحة.. وعندما أصل إلى البيت ألقي بنفسي فوراً بين ذراعي خالتي.. وآه يا خالتي.. كانت تحضنني كأمي!

اجتزت (قايا باشي) يوماً إلى البريد. وفي كفي نقود قليلة أضغط عليها بشدة، وجدت لنفسي مكاناً في الازدحام على الشباك، وأرسلت رسالة إلى أبي وأمي اللذين أحبهما أكثر من روحي، عندما تركت دائرة البريد كان معي نقود تغطي مصروفي لمدة أسبوع تقريباً. لاحظت شخصاً لا أعرفه يتطلع إلى النقود في يدي.. خفت، كان أكبر مني كثيراً، أخفيت النقود في جيبي بسرعة، كنت أشعر بمدى الحاجة إليها، لذلك توجست مما سيحدث. فلم تكن نظراته ودية. همس في أذني بكلام لم أفهمه في البداية، ثم أدركت أنه يشتمني، بلا سبب يدخل في إبطي ويمسكني ويشتمني! امتلأت نفسي بالكراهية، اندهشت، وتعقد لساني خوفاً، منذ هذا الحادث ينعقد لساني كلما أنفعل أو أخاف بسبب هذا الرجل. أقول «الرجل» لأنه الآن رجل إن لم يكن قد مات. سأمزقه كالذئب إذا وقع في يدي، ومن يعلم، قد ينعقد لساني خوفاً إذا رأيته. لكني مدين له لكونه الحجر الأساس الذي جعل مني شتاماً جيداً.

أعتبر نفسي محظوظاً لالتقائي به من هذهِ الجهة، فإني لا أرتاح لشيء مثل راحتي بالشتم واللعن.

على أي حال.. لم أفهم ولم أدرك في تلك اللحظة سبب شتائمه.. أتذكر فقط أني أُصبت بالبلاهة، أو ربما وقعت في الشك من إمكانية عيشي..

كأني في كابوس مرعب يمسكني فيه الزبانية ويقودونني إلى النار! ودفعني فجأة إلى حافة الطريق وبدأ بضربي.. لم يكن يحاذر، أدَفعَ الضربُ على عيني أو صدري، وتجمع علي أشخاص آخرون من الزوايا والأركان، لقد وقعت في كمين! تكالبوا علي كالضباع على صيد! جاهدت لحماية نقودي.. أمسكت جيبي بكل قوة.. أدركت أنهم يقصدون نقودي. أدخلت رأسي في بطني لأحميه من الرفس والركل، وتجمدت في هذا الوضع كقطعة حطب كانوا يضربون، وأنا أحس بصوت الركلات على ظهري: طب... طب.. ويحاولون في الوقت نفسه سلب نقودي.. أحسست بركلة ثقيلة فوق جمجمتي كأنها نثرت مخي. وانساب إلى وجهي سائل من الطين الآسن عفن الرائحة. من البديهي أن جسمي كان ملطخا بالطين. اشمأزت نفسي إلى درجة القيء، شعرت بالطين الآسن القذر بين أسناني.. ولد في داخلي في تلك اللحظة الحقد المخيف، وعشعش فيه، ولن يغادره أبداً! استقر فيّ الحقد الأم الذي يولّد الأحقاد! لن أغفر للظلم..

يجب أن أنطلق في الدرب حاملاً في نفسي هذا الحقد مدى الحياة ضد القوى التي تسحق الضعفاء والمحتاجين إلى الحماية! في ذلك الوقت

لم أكن أستوعب ضرب إنسان من أجل المال. المهم استسلمت أخيراً... أفرغوا ما في جيبي كله، وولّوا الأدبار هرباً. وعندما وقفت على قدمي شعرت أني أبكي. عدت إلى البيت ولم أشرح لأحد ما حدث.

لي خالة أخرى في (قارس) تسكن قريباً من مدرستي، لو كنت مقيماً عندها لما تعرضت إلى هذا الحادث، لكني لم أكن أمكث في بيتها إلا أسبوعاً واحداً كل شهر لأدرس مع (نالان). كانت (نالان) تقرأ كل خميس سورة (يس) لجدتها، اسم خالتي هذه (تولاي)، واسم خالتي التي أقيم عندها (سولاي)، و(نالان) ابنة خالتي (تولاي). (نالان قايق) و(نالان يلكن). ما أعجبها من مصادفة! معنى اسمي العائلة متقارب... «قارب، وشراع » ! إن ملامحها ليست غريبة عن عيني .. هل يمكن أن تكون ابنة خالتي؟

كنت أحسست بالحب تجاه (نالان) التي في (قارس) أيضاً! كنت أرفع نظري إليها أثناء زيارتي، ووجهي يحمر خجلاً وأحسُّ إزاءها بالقوة. ربما لأني بدأت الدخول إلى مرحلة الرجولة! (نالان) تلك كانت جميلة جداً أيضاً. لا زلت أذكر إحساسي بجمالها، وعيناها العسليتان، وخطواتها الوئيدة، ومناداتها لي باحترام، وغيرتي عليها من أولاد الحي، كانت تدرس في السنة الأولى للمتوسطة في مدرسة غير مدرستنا. في تلك السنة حصل زوج خالتي على وثيقة عمل في هولندا، فنقل قبل السفر عائلته إلى إستانبول.. ولم أر (نالان) بعد أبداً.. وبمرور الوقت انقطعت أخبارهم عنا تماماً. لعلها الآن شابة في ريعان الشباب، لقد ثبت أنهم عديمو الوفاء... استلمنا منهم بطاقة تهنئة بمناسبة العيد مرة أو مرتين، ثم قطعوا الاتصال بنا. أتراهم عادوا من هولندا أم لا؟

في نهاية العام اجتزت الامتحان وعدت إلى (خوراسان). كان عمي قد نقل مسكنه إلى (خوراسان)... وفتح مقهى، فعملت في المقهى طول فصل الصيف. تعبت لكني حصلت على مصروفي لسنة كاملة.

وفي بداية السنة نقلت دراستي إلى (خوراسان). أنهيت المرحلة المتوسطة عند عمي. حصولي على الدراسة الإعدادية مع المسكن الطلابي خفف الحمل عن أهلي، ولكن لم يكن كافياً لسد احتياجاتي، لذلك اضطررت إلى العمل في المرحلة الإعدادية لتغطية مصاريفي. صبغت الأحذية بعد الدروس.. أحذية أصدقائي، وأحذية المدرسين. لقد اشتريت في السنة الأولى من الإعدادية حذاء لأبي من كسبي!

آلامي لم تنقطع ساعة.. تعذبت سنوات.. بعدها بلغت الجامعة. لم يتحسن حالي. العمل إلى درجة الموت تعباً، الضيق، الحزن، الجوع، الموت.. والموت ثم العودة إلى الحياة. بؤس خالص. آه يادنيا.. آه ياجامعة.. سحقاً للحياة!.»

وصل (ذو الكفل) إلى (حوضباشي) مشياً على القدمين. واستدار يميناً إلى شارع المستشفيات، تمثلت صورة زميله في الغرفة (مصطفى فندك) من قصبة (أقجه قوجه) من توابع (بولو) – أمام عينيه، فانقطع عن التفكير في الماضي.. بتوجيه ذهنه إليه.

هذا الرجل ينفق أربعة أو خمسة أضعاف ما ينفقه (ذو الكفل) – المضطر إلى الاكتفاء بصرف ثمن حساءٍ يومياً – بدأ يشغل حيزاً كبيراً من تفكيره في الأيام الأخيرة. من وجهة نظر (ذو الكفل): إن مصطفى سخي في الإنفاق على نفسه وبخيل على غيره، لقد سمع منه

(ذو الكفل) مرات، إنه لا يدري كم ينفق، ولا يمسك حساباً لما بقي في جيبه من نقود.

«لم لا يعطيني النقود التي يقول إنه يتصدق بها على الفقراء؟ أيظنني غير محتاج لأني لا أبسط كفي بالطلب؟».

بصورة عامة «مصطفى» يترك جناح خزانته مفتوحاً في الليل، لأنه لا يتوقى مغبة البقاء بلا نقود.. فالتمويل الشهري من أبيه يصل إليه بصورة منتظمة، ولا تنقصه الدفاتر والكتب، ولا العسل والزبدة والزيتون وأنواع الجبن ودِبْسُ العنب! وإذا نقص نوع اشترى ما يسد النقص فوراً.. ومن عادته عدم تقديم أي شيء لشخص آخر إكراماً!.

«يجب الاستيلاء على ممتلكات البخلاء من أمثاله. أولئك الذين لايفيدون ذوي الحاجة. مجرد مسودات بشرية لا يساوون قروشاً!».

وخطر له فجأة أنه مخطئ في الحكم عليه. فالناس أحرار في كيفية التصرف بأموالهم ونقودهم.. ثم أبعد الخاطر عن ذهنه وقرر في النهاية أنه محق بوجهة النظر الأولى.

نسي ألم الجرح في يده. قال لنفسه: «إذن...» ولم يجرؤ على التكملة، أحسَّ بموجة رعشة تسري في جسده.. ما هذا الذي يخطر له؟ وتجعدت أسارير وجهه، وتكثفت الخطوط السوداء حول عينيه، هل تدفعه صفة البخل في شخص ما إلى السرقة؟ ولن يخسر كثيراً! هل يصعب عليه شراء ما فقده؟ إذن...»

ولم يستطع أن يسترسل في التفكير مرة أخرى.. تسلسل في ذهنه أسماء كثيرة من أمثال مصطفى في مسكن الطلبة.. خزائن كثيرة

مسروقة في ظلام الليل! ارتجف.. رفع النظارة المتدلية على أنفه.. وتمثلت أمامه صور أشخاص من أمثال (ذو الكفل).. ضغط على غضروف أنفه.. مللت العمل... سئمت خدمة غيري كالكلب، ما الداعي إلى تحملي هذا العذاب حتى الآن، وسبل الكسب الهين مفتوحة أمامي؟ وما أسهل تناول بعض المواد من خزانة مفتوحة؟ خلع مسمار واحد من خشبة أصعب بكثير! ثم إنه أحمق لا يعرف كم ينفق! شخص لا يبالي!»

خاض صراعاً عنيفاً مع أفكاره إلى أن بلغ المستشفى النموذجي.. وتوصل في النهاية إلى قرار بسرقة مواد غذائية من دولاب مصطفى.

دخل عيادة الأمراض الباطنية ليأخذ دوراً مع المنتظرين.. فاستقر جالساً في إحدى المقاعد. وضع يده المجروحة بين فخذيه.

المستشفى مزدحم يختلط فيه الضحك بالأنين. هذا موضع يفرح فيه بنو آدم ويحزنون في الوقت عينه... الداخل فيه قد يغادر على رجليه أو محمولاً على الأكتاف في التابوت! رجال ، ونساء، وأطفال، وشباب، وشيوخ، ورائحة لا تسر النفس! منظر يملأ النفس بالضيق!

العيادات تصطف في ممر طويل.. عيادات أمراض المجاري البولية، والأطفال، والباطنية والخارجية، والنسائية، والجلدية، وعيادات أخرى في الطابق الأعلى،. هذا حال الإنسان.. في الوقت الذي يبكي واحد منهم يضحك ثان». في مدخل كل عيادة قسم صغير للمراجعة والتسجيل بعدد من الموظفين. الممرضات والمرضى، وأقرباء المرضى، والأطباء في حركة يصعدون من الطابق الأسفل إلى الأعلى، وينحدرون من الطابق الأعلى إلى الأسفل.. ويهرعون من اليمين إلى اليسار، ومن

اليسار إلى اليمين، بعض المرضى يدمدم بغضب لضجره من الانتظار، وبعضهم لا يسأم من الأنين، وبعضهم يروح ويجيء، ثم يتوقف كأنه يفكر فيما سيحدث لاحقاً، ثم يحدق في الموظف الذي يتلو الأسماء كأنه يستفسر عن دوره.

لذعت رائحة دواء حادة أنف (ذو الكفل)، وتدفق الشعر عليه بسرعة البرق تحت تأثير الانزعاج. بشعر يفوح حزناً وكرهاً.. إنه الآن شاعر وليس لصاً في عالمه الذاتي:

«كرهت ما في الوجود كله..

وكرهت الناس أكثر حتى نفسي

كرهت نفسي

أخاف.. أخشى.. وأرهب

شاهقات ناطحات السحاب

أرهبها

أخوض في ثقب إبرة

وأدخل في سم الخياط

وإن ضاقت مساحته!

تساقط العرق المنصب أسمعه...

أموت من أجل أن أحيا..

أموت أنا.

وقال في نفسه: «آه.. كم أود أن أصرخ بهذا الشعر في العالم كله! لا يشعر أحد بشاعر مثلي، واأسفاه.. خسارة عظيمة لدينا الأدب! وغرق في بحر الأحلام.

«لبيت النقود تطير بي إلى الحب

إلى دنى السعد والأحلام واللعب»

تشاغل بالحلم في قصره الخيالي... واستقر حلمه بشطر بيت رائع

- لو امتدت الأزهار إلى شفاهيا...»

وأخيراً انقطعت الأحلام بمناداة اسمه.. جاء دوره...

فأجرى الفحص. عالجوا يديه بشد الأربطة، وحقنوه بإبرة ضد مرض (التيتانوس). قفل راجعاً إلى مسكن الطلبة بصحبة ألم أشد من ألم المسمار.

سلم على «مصطفى» الذي وجده في الغرفة.. وألقى نظرة على الخزانة التي يرسم خطة شريرة لسرقتها.. الخزانة مفتوحة كالعادة.

«سأنجح.. بل سأفتح حتى الأقفال المستعصية!..

نزل إلى صالة الشاي.. وهناك وجد «موسى»، وخرجا من الصالة ليلعبا كرة الطاولة في القاعة المجاورة.



الفصل الخامس

أحياناً يتوهم سماع أصوات غريبة، فيضع رأسه بين يديه ليدفع هذه الأصوات الموهومة، ثم يقع فريسة الخوف من الجنون عندما يقتنع بعدم وجود هذه الأصوات «هل سأجن؟». وأحياناً أخرى يتوهم الصمت التام في وسط ضوضاء تصم الآذان، مثلاً في مقهى مزدحم بالرواد-، ورغماً عن ذلك يستطيع أن يحلم أحلاماً سعيدة في تلك الضوضاء! فتتفتح الزهور في كفه، وتضيء الثريات أمام عينيه، ويتربع في الركن الرئيس من قصر الأحلام متابعاً رقصات الحور العين اللاتي يفحن برائحة الورود، وفي إحدى يديه غليون وفي الأخرى حمامة جميلة، فيحسب نفسه أفضل من الملك شهريار! وفجأة ينتبه إلى الضوضاء فتصعد الدماء إلى رأسه، ويهزه الحزن لابتعاده عن القصر والحور العين والحمامة والثريات، ويترك المقهى إلى مكان هادئ فعلاً.. وهنا يتوهم الضوضاء ثانية، يصدع رأسه.

يضاف إلى هذه الظاهرة أنه منذ دراسته في كلية الآداب وتعرفه بنالان بدأ يكثر في خوض غمار الاضطرابات النفسية التي تهيج في أعماقه. نار الحرمان الملتهب في أرجاء نفسه وبريق السعادة المأمولة المتلألئ في آفاقه البعيدة، تحاولان ما استطاعا أن يبقياه في العصر الأسطوري، فإذا امتنع عليه البقاء أحس بالغيظ. وأحياناً يستعصي عليه الانتقال إلى القصر الخيالي فيفتقد الحور العين ذوات الرائحة الوردية والوجوه الهاشة الباشة. ويحن إلى الورود المتفتحة في كفه والثريات المتلألئة في عينيه.. ويشعر كأنه ممتد على الأرض وسط رمال حارقة ظمآن وجائعاً.. وفي النهاية، عندما يدرك أن هذا وهم

أيضاً، يهرع إلى الشوارع على غير هدى كالسكران يتخبط في الأزقة، يمشي أحياناً ليوم كامل لا يذوق فيه لقمة طعام!

وقد يجلس أحياناً في حديقة عامة ساعات طويلة ينسى فيها الدروس. فإذا تذكرها انهارت معنوياته، وانتصبت صورة أبيه أمامه قائلاً: «هذا جزاء كدي وشقائي؟» وجارحاً إياه بالعتاب «أملي فيك أن تكون رجلاً مرموقاً.. فهل تنال مركزاً مرموقاً بقتل الوقت هنا؟ ما هذه الحال؟..» فلا يتحمل ذو الكفل العتاب، ينهض ويحار لإحساسه بضيق شديد فلا يدري ما يفعل.. يسير، ويسير بلا غاية «أنا إنسان ممسوخ ذو وجهين... شرير إلى درجة أن أخدع أبي!» وفيما بعد يتذكر «نالان» فينسى أباه، وينسى أنه مخادع في لحظة واحدة... ويبدأ بالأحلام.

وقد يكره أحياناً حتى الأحلام.. لأن الأحلام - كالبشر - تخدعه. يتألم جداً أن يخدع. استقطع المقاول مرة ثلث أجره لأنه لم يسحب قدراً كافياً من المسامير.. فشتمه (ذو الكفل) بأقذع الشتائم في غيابه، فهو عندما لا يستطيع أن يقهر شخصاً، يتخيل أنه يضربه ضرباً مبرحاً ويرميه بأقذع الشتائم، فيرتاح نفسياً -. من وجهة نظره أن القوي هو من يستطيع أن يحمي ظهره من الضرب، والشجاع من ينجو بجلده من مصيبة، والرجل من يهرب عندما لا يجد حلاً للنجاة من الضرب إلا الهزيمة، وفي الوقت نفسه يتوقع من منافسه أن يهزم عندما يكون موقفه قوياً!



استقبل عطلة الأحد بسرور. نجح في رسم الخطة التي يريدها لسرقة خزانة «مصطفى» لن يشعر أحد بذلك.. بل سيبحث هو بنفسه مع مصطفى عن اللص. «مصطفى» جالس معه على منضدة قريبة من شباك صالة الشاي.

(ذو الكفل) يراقب باب مسكن الطلبة - قسم البنات - والطرق القريبة مستطلعاً خروج «نالان»، وفي الوقت عينه يستمع إلى «مصطفى».

على المرء أن يعيش في راحة كلما استطاع، يكفيه من الراحة القدر الذي ينجح في تحقيقه. فالسعادة توجد حيثما وجد النجاح، وفي اعتقادي ينبغي أن نخوض كفاح النجاح كشعب.. كفاح النجاح على قدر المستطاع، بذلك سنعثر على الدواء الشافي لأوجاعنا.

- وإذا لم ننجح؟

- أيعقل ألا يجد الإنسان أي قدر من الراحة؟

- لنفترض أنه لا يجد، ثم إن الراحة المؤقتة لا تحل مشكلة!

- ومن لا يجد راحة أبداً؟

استغلظ صوت (ذو الكفل) كأنه يريد أن يعكس غلظة الحقيقة وقساوتها قائلاً:

- أنا!!

ابتسم مصطفى:

– أراك مرتاحاً هذه اللحظة مثلاً!

ضحك (ذو الكفل) مستهزئاً وهرش أذنه..

– أنا مرتاح؟! اسأل هذا القلب المسكين المسحوق تحت وطأة انتظار الآتي، وتقول : إني مرتاح؟!

– وما الآتي الذي ينتظره قلبك؟

– ألقى (ذو الكفل) نظره باتجاه باب مسكن الطلبة للبنات، وشهق شهقة عميقة... عميقة جداً.

– ينتظر السعادة والخلاص من الشدائد.. ينتظر قدوم النقود، لأن النقود تنقذ المرء من الشدائد، بالنقود تفتح الأبواب كلها، وللنقود ينتصب الناس احتراماً!

قلق «مصطفى» ذو الشعر المدهون، لأن لهجة (ذو الكفل) غير موزونة.. ضغط على الكلمات حينما استفسر!

– هل للنقود أهمية كبيرة وبالدرجة التي تظنها!

فاحت رائحة الحقد من صوت (ذو الكفل)، وبدأ شخصان جالسان قريباً منهما بالاستماع إليهما في انتباه:

– النقود تجعلك تدرك أهميتها حين تكسبها بألف مشقة لاوياً عنقك لغيرك. ستعرف الحقيقة عندما يكون بطنك جائعاً وجيبك خاوياً، فترضى حتى بالعبودية لشخص غني كي تشبع بطنك. أما الذين يحصلون على النقود بسهولة فهي عندهم كالنفاية، يجدونها في سلة النفايات متى شاؤوا.

لا يعرف أهمية المال أولئك الذين مراحيضهم ومكان تغوطهم ألطف من أجمل زاوية في بيوت الفقراء المستعدين للعمل في تربية كلابهم المدللة!

قال مصطفى

- صحيح.. لو كنت ثرياً لما تحدثت بهذا الأسلوب!

رفع (ذو الكفل) صوته:

- سأكون ثرياً! سأمتلك النقود يوماً ما... لكني يومذاك سأتحدث بالأسلوب نفسه. يومذاك سيفلس الذين تمتلئ جيوبهم بالنقود الآن..

وسيفكرون مثل (ذو الكفل).. وسيتحدثون مثل (ذو الكفل)، سيتعذبون سيمشون على الأقدام مسافات طويلة، وعندما تمر سيارة خاصة من جانبهم سيرون فيها من يلوح بيده بحركة مستهزئة، وعندما لا يجدون الخبز ليقتاتوا به، سيشهدونني أنتقي كعكة من بين أنواع الكعك!

يومذاك سيصدر من أفواههم الأنين قائلين «العدالة الاجتماعية... آه.. العدالة الاجتماعية.. ولن يسمعهم إلا ديدان الخشب القارضة في بيوتهم البائسة! سيقتلون أنفسهم بآلامهم!.

ضحك «مصطفى» وحك رأسه:

- عجيب.. أي طوفان يغور فيك ونحن غافلون؟ يالك من إنسان خيالي، تصوراتك ليست من النوع الذي يمكن أن يتحقق!

- ولم لا تتحقق؟

- إذا قـرأت الـصـفـحـات الاقـتـصـادية فـي الجـرائد اليـومـيـة سـتـعـرف السبب. مجتمعنا يحكمه اقتصاد يقوده عامل التضخم باستمرار. ووضع مثل هذا يجعل الأغنياء أغنى مما هم فيه والفقراء أفقر مما هم فيه دائماً.. بل يقلب الطبقة المتوسطة إلى طبقة فقيرة يوماً بعد يوم، هل يعقل تحت هذه الشروط أن تتنعم بملك «قارون» وأنت لا تملك شروى نقير؟ هذا محال!

غرق (ذو الكفل) في الصمت. الحقيقة المؤلمة كانت ثقيلة على قلبه. هو أيضاً يعلم علم اليقين أنه يسلو بالخيال. وبعد برهة قال:

- صحيح.. إنما أبحث عن السلوان في الأوهام! أوهام لن تتحقق أبداً وليس لي خيار آخر. أنت لن تفهم هذا. النار تكوي اليد التي تمسكها، لو كان أصحاب الثروة يشعرون بحال الفقير لما بات إنسان جائعاً. لكن هيهات... هيهات، هل من غني يشفق على أوجاع الفقراء؟ إنهم جميعاً مشغولون بضم الآلاف إلى الآلاف! أيهم يفكر فيمن لا يملك قرشاً واحداً؟ أكرر مرة أخرى: أنت لا تفهم.. ولن تفهم! لأنك تطير... تحلق في سماء زرقاء! لا تعرف شيئاً عن الظلمات. أنيننا هدهدة بالنسبة إليك! ما تراه ناصع البياض إنما هو سواد عيوننا!

احتد مصطفى:

- كفى!

كان محقاً في احتداده لأن (ذو الكفل) أطلق الحبل على الغارب. (ذو الكفل) نفسه انتبه إلى ذلك. لكن الزمام أفلت من يده. استمر مصطفى

«محتداً» - أنت إنسان لا نستطيع التحدث معه! أخي.. أنت مخلوق عجيب!

في النهاية تزعج المرء مهما صبر عليك. لا يحق لك أن تهين غيرك لأنك فقير.. أنا لا أستطيع أن أفهم، أنا لا أعرف الظلمات! ما معنى هذا الكلام؟ إنك تهمل نقطة مهمة: أنت لا تعرف شيئاً من الضياء! وهنا الفرق بيننا. تتحدث عن الظلام وأتحدث عن الضياء! وواحدنا لا يفهم الآخر. سأدفع ثمن الشاي وأخرج.. وأقولها بوضوح: إذا كنت تريد لصداقتنا أن تستمر لا تتكلم معي بهذه اللهجة. ها.. ولا تنس: أنك صديق طيب لولا انحرافك عن الجادة أحياناً!.

ضحك الشخصان اللذان يستمعان في المائدة المجاورة في أعماقهما تجمد (ذو الكفل) في مكانه. لقد كسر خاطر «مصطفى» قبل سلب خزانته.

انزعج ولام نفسه لاسترساله بغير ضوابط أو قيود. هذا حمق، لأنه قد يشك فيه بعد السلب. بتصرفه هذا، قد تحوم الشبهات حوله. حاكم نفسه مدة طويلة، ومن المؤكد، على عادته، أنه سيخرج من المحاكمة في النهاية بريئاً!.

نظر إلى يده المضمدة واختلى بآلامه: «سأضطرب حتى ساعة الموت كريشة متعلقة في جناح شباك! ولما أموت أطير محلقاً في الفضاء برهة، ثم أسقط في حفرة، يغطيني الطين والتراب. وهنا، في أشد النقاط حساسية من قلبي، يكمن ألم له أربعون ألف قبضة، يمتص

دمي. فليمتص! هذه حال الدنيا.. سأمص يوماً دم الدنيا حتى آخر قطرة!..» بلل شفتيه بلسانه، ومسح زجاج نظارته، ومرر يده على لحيته النابتة: «الحياة حريق، والعالم غابة مشتعلة، والجميع يحترق، ثم يُذّرى رمادهم! بعض الناس في القعر وبعضهم فوق الذرى، لكن النار ملتهبة في الجميع..» أجال الطرف في صالة الشاي... وأصابته موجة رعشة عندما رأى «راسم» جالساً على منضدة بعيدة. حول نظره نحو الشباك لأنه يكره أن يقع بصره على عينيه: « حتماً سأطفئ النار الملتهبة في روحي» حتماً سأنقذ غابتي من الحريق ستنمو أزهار أمنياتي.. سأفك حصار اللهيب، وأطلق الجناح نحو عالم السعادة.. سأصل إلى قصري المنيف. آه... ما أقسى أن تريد ولا تحصل على ما تريد. لا بد أن أعكس هذه المعادلة يوما ما.. لابد».

تقلص جلد وجهه وظهرت أخاديد عميقة في جبينه وهو يتساءل في همس خافت وبحنق:

– أين «نالان» هذه؟ ورفع نظره إلى باب مسكن الطالبات.

« أنا لا أثق بالإنسان.. كلا، لا أثق بأي إنسان، الإنسان الذي يسحق نملة أو ضفدعة، ويذبح طيرا أو دجاجة، ولا يرى أي حق في الاعتراض لأنه يملك سلطة على كل شيء.. كل شيء يجب أن يخدمه. يحتكر حتى الحب نفسه. الحب أسطورة سخيفة.. لا يحب الإنسان إلا جلباً لمنفعة شخصية! للمال أو للجسد. عقدة الجميع منافعهم الشخصية ، مثلي أنا، والحب في الحقيقة مجرد وسيلة.

كم حزنت في الماضي لما كنت أظن أني عاشق؟ كم نزلت مطارق الحب على مخي، وفي النتيجة صفر كبير! الحب على غرار المجنون وليلى صار أسطورة!

الحب عذاب وخدعة.. والذين يحبون بغير اغترار بالمظاهر الخادعة إنما يحبون لمنافعهم الذاتية.. فلا يوجد حب حقيقي في الواقع. والغيرة... ما الغيرة؟ من يستطيع أن يبرهن أنه مستقيم في أيامنا هذه؟ وهل في غير المخادعين معنى؟ صحيح أني أغار على (نالان)، لكن غيرتي لمجرد منع التسلط من قبل غيري على قدراتها المادية.. إنها تتضاحك مع الآلاف. لو كنت أغار عليها غيرة خالصة لقتلتها منذ زمن بعيد. لكنني لا أؤمن بالحب، الحب مدفون في طيات التاريخ! ومن السخافة أن تغار من الطير الطائر، والنسيم الهاب، والكلب النابح، والذباب الذي يئز!، كل الأشياء عديمة المعنى، «العالم والحياة..

آه يا «نالان!»

ظهرت (نالان) في مدخل مسكن الطالبات، تذكر (ذو الكفل) الرسالة وما قد يجري عليه! قفز قلبه في صدره، وأحس بانفعال لطيف.

«ها هي ذي ضمان مستقبلي، «بوليصة» التأمين على حياتي! أراقبها حتى الظهر لأنظر ماذا تفعل، ومع من تتلاعب؟ يجب أن أعرف من هم منافسي كيلا أؤخذ على غرة..».

يراقب (نالان) في هدوء.. يداه في الجيب متململاً في مكانه، يصفر بفمه في صوت خافت، يرتدي ملابس صيفية قديمة، والجاكيت القديم ذو الزخارف المربعة، والبنطلون الباهت اللون عند الركبتين، والقميص الرث. اختفت عن النظر منعطفة في زاوية الطريق على بعد قليل، قد حل الشتاء، وبَرَدَ الجو أثناء يوم واحد، وبدأ هبوب نسيم بارد. هكذا حال الجو في أرضروم.

وجه السماء مغطى ببرقع متناثر رمادي اللون، صوت زقزقة العصافير صار خافتاً، خفوت الصيحات البريئة التي كان الأطفال يطلقونها من أعماق قلوبهم الطاهرة، وهم يلعبون على سواحل بحر السعادة الغامر..

خفوت هذه الأصوات انسجاماً مع خفوت زقزقة العصافير، شيء يحزن القلب.

اليوم مختلف عن أمس تماماً. في وجه الحياة تغير محسوس. الطبيعة تتهيأ لتعرض على الإنسان وجهاً مغايراً آخر منحه الله لها.

الأوراق الصفراء تذروها الرياح في الأرجاء.

الشمس تغمز بعينها من بين الغيوم، كلما سنحت الفرصة، للناس الذين ينتظرونها، ثم تختفي خلف البراقع الرمادية اللون التي تغطي وجه السماء: تحول الخطو الشاعري الوئيد السائد في الأيام القليلة الماضية، إلى خطوات متسارعة في حال سباق...

وتستمر الحياة...



الأحد الأول من شهر نوفمبر (تشرين الثاني)..

حامت نظراته حول لوحات المناظر المختلفة المعلقة على جدران مقهى (كوركم) ثم استقرت جامدة في وجه الراوي القصاص بهجت فاضل (من أرضروم)، ذلك الوجه الأسمر المجعد، كل تجعيدة تحكي قصة الآلام التي عاناها في حياته. وجه عجيب. كل لحظة من العمر فتحت أخدوداً عميقاً فيه. وهاتان العينان والضوء المتعب المنبعث منهما؟ كأنهما شمعتان على وشك الانطفاء تبثان في الأطراف ضوءاً عليلاً... ثم يحل يوم ويمحو فيه ظلام العدم كل شيء!.

إنها دورة الحياة. ظلمات قبل الولادة، ثم الولادة بألف مشقة ثم النمو في ضيق وضنى، ثم الشيخوخة، ثم الموت بألف مشقة، وبعد الموت ظلمات أيضاً.

إيقاع السعادة في الحياة مختل.. و(ذو الكفل) وأمثاله ضحايا لهذا الإيقاع المختل. ينبغي إنقاذهم، فخلاصهم يعني خلاص المجتمع..

خلاص أمثال (ذو الكفل) أينما وجدوا.. خلاص كل الشعوب.. نعم.. كل الشعوب!!

تحولت نظرته من وجه «بهجت ماهر» إلى خارج المقهى، وغاصت في السيارات والناس والمباني.. الذي كان يقول لنفسه «أتمنى أن يأتي (ذو الكفل) لنلعب دور شطرنج.

كان مقهى (كوركم) الذي يقع على بعد مئة متر جنوب مقر الحكومة مزدحماً جداً. على بعض المناضد يلهون بلعب الشطرنج. المناضد كلها

مغطاة بفرش سميك، مدفأة في وسط المقهى مشتعلة رغم عدم هطول الثلج. ويتجمع حولها ثلة تشعر بالبرد. مسجل الصوت القابع على منضدة صاحب المقهى في الطرف البعيد تبث أغنية لمطرب شعبي محلي، بإزاء منضدة صاحب المقهى، وفي بيت زجاجي على ارتفاع مترين، يبث التلفزيون برنامج (حفلة الأحد) بالألوان، ولكن بغير صوت لأن الرواد لا يرغبون الاستماع. محل تحضير الشاي ولوازمه واسع نسبياً، يصطف فيه ثلاث أسطوانات للغاز السائل، وبرميلان من البلاستيك لخزن الماء، وكرسيان، وصندوق لصبغ الأحذية، عاملان وصانع الشاي يعملون في المقهى بغير توقف. الساعة تشير إلى الواحدة والربع. حك رقبته. تذكر «فريدة» أو «دميت».. فتاة طيبة لكنها خجولة بعض الشيء، كلتاهما لا تتوانيان عن أي تضحية من أجل قضيتنا، تضحيان حتى بجسديهما إذا اقتضت الضرورة.. وما أقل مثيلاتهما! لقد جاءتا من (أنتاليا) للنضال هنا. جديرتان بالثناء!» «الدكتور فقد رشده.. فهو لا يعود إلى البيت بشكل منتظم. في الواقع يصنع معروفاً إذا ضمني إلى كادر البيت. إنه لا ينفك يحتسي الخمر.. والحق أن عمله هذا ينفعني، إذ أقضي وقتاً طيباً مع الفتاتين، مع ذلك وبصراحة، ينبغي أن يلتزم بضوابط تلجمه باعتباره مسؤول منظمتنا في أرضروم إننا نخسر قضيتنا - إن خسرناها - فبسبب السكارى المدمنين من أمثاله. العبء على كامل المثقفين ثقيل، ولن يخف العبء عن كاهلهم إلا بالتفاف أكثرية الشعب حول عقيدة التضامن الاجتماعي.

لا أكاد أفهم، لماذا يحكم إنساننا على نفسه بالهلاك؟ لماذا ترفض الأكثرية التمتع بالدفء في ظل نظام المساواة؟ لقد فقد إنساننا ذاته حتى صار وجوده مجرد قشر.

قشر فقط.. قشر صلب لا يمتلك أي قدر من المرونة. قشر غليظ، قاسٍ، متوحش!».

هز رأسه مع إغماض عينيه الخضراوين نصف إغماضة.. خفض رأسه وتطلع إلى «طاقمه» الأسود، وإلى القميص والحذاء وربطة العنق. نفخ الغبار العالق على ركبة البنطلون. في اللحظة التي استعد فيها للنهوض رأى (ذو الكفل) قريباً من دار الاستراحة متوجهاً بسرعة نحو مقهى (كوركم). انتظر إلى أن اقترب فرفع يده مشيراً إليه، لاحظه (ذو الكفل).



كما فعل (ذو الكفل) في الأسبوع الماضي، اقتفى اليوم أثر (نالان) حتى الظهر، إلى أن دخلت صالة التجميل، فانتظرها نصف ساعة، فلما يئس من خروجها انصرف متوجهاً إلى مقهى(كوركم) على أمل الالتقاء بموسى للعب دور شطرنج وللتنعم بالدفء. وعندما رأى «موسى» في المقهى استبشر وسر. ودخل المقهى سريعاً وجلس بجانبه. قال «موسى»:

- مرحبا. وأجاب (ذو الكفل):

- مرحباً!

- من أين أتيت؟ وماذا حصل لكفك؟

قـدم (ذو الكفل) سـيـجـارة مـن نوع بتليس إلى مـوسـى، واسـتل هـو سيجارة من العلبة. أخرج عود ثقاب وأشعل السيجارتين، وموسى ينتظر جواباً لسؤاله قال (ذو الكفل):

- كنت.. كنت أصيد السمك!

قهقه موسى:

- وهل صدت شيئاً؟

- لا .. أي سمك أحمق يعلق في شباك أمثالنا؟

- حسناً... وما الذي حصل لكفك؟

- ليس مهماً، شرخ مسمار أثناء العمل في التشييد، عالجته وقد تحسن الآن.

طلب «موسى» كوبين من الشاي وسأل (ذو الكفل):

- هل نلعب دور شطرنج؟

- أجاب (ذو الكفل):

- ذهني مشوش... ستغلبني!

- ما الذي شوش ذهنك؟ هذا الشيء الذي هو أهم من صحتك!

- الشيء الذي يدهور صحتي!

- وما هو!

- تعلم كيف أدرس وأي مصاعب أعاني. وكيف يرتاح مخي وأنا

أدرس، وأخدم غيري؟! وأنا أسحق وأطحن، وأتمزق تحت عجلات الحياة؟!

استدرك «موسى»:

– أقدر وضعك جيداً. يجب ألا تتدهور حالتك النفسية، لأن هذا الوضع ليس من صنع يديك بل بسبب خلل في المجتمع. نحن نتجرع جريرة الذين يقودون المجتمع، نحن ضحايا أولئك الإنسانيين –كما يدعون– الذين يصبون كدح الآلاف في حلقوم شخص واحد، لأننا أسرى الرأسمالية.. ولن نستطيع أن نستدل الهدف أو الدرب بوضوح، إذا تدهورت حالتك النفسية، مهما كانت المصاعب ثقيلة عليك، يجب أن تفكر فيما ينبغي أن تعمل، وكيف تعمل، وكيف تقلب الوضع الراهن لصالحك.

– وفي النهاية أموت. ميتة الحيوان! أفكر وأنا أزحف.. وأموت وأنا أفكر! ما الفائدة التي أجنيها؟

التفت «موسى» يميناً ويساراً.. وخفض صوته:

– إذا توحدت أفكارنا وحركتنا، تتغير أمور كثيرة، يمكن أن نحقق فائدة للبشرية.

اشتم (ذو الكفل) رائحة السياسة، يعرف أن فئة «موسى» من ألد أعداء فئة «راسم»، ولو علم «راسم» أنه يتحدث مع «موسى» لانقلب إلى عدو حقيقي له، أراد أن يغير الموضوع:

– هل نلعب الشطرنج؟

- نلعب على أن تسـمعني أولاً، أنت تعـرف وضعي ليس كمـا ينبـغي أيضاً! ابتسم (ذو الكفل) وهز رأسه ثم تكلم في جد:

- أنت مـرشح لأن تكون طبـيـبـاً بعـد سنتين، ثم تكون غنيـاً. تجس النبض، وتقيس الضغط، وتدق مـرتين على الصـدر، ثم تسـتلم كل مـا يملكه المريض! النقود ستـصب في كفيك وتغتني على أكتاف المتـألمين المتـأوهين، ستكون في طبـقـة الرأسـماليـين، أما أنا، فسأكـون مدرسـاً للأدب، خالي الوفاض، بلا مسكن ولا مأوى، إضافة إلى ذلك، تخرجي في الكلية ليس مضموناً!

- لكنك لن تنجو أنت من وضعك عندما أكون أنا طبيباً!

- ولكن أنت تنجو!

- لا يهم أن أنجو أنا، المهم خلاصنا جميعاً. خلاص الذين لا يجنون ثمن كدحهم، ويتعذبون بفقرهم، الحل الوحيد أن نتـوحد بكل ذواتنا.. لكننا نتهرب دوماً من هذا الحل. نتهرب من الحقائق.. لا نريد أن ندرك أننا مُستغل!

هز (ذو الكفل) كتفيه قائلاً:

- الحقائق... الحقائق..!

ثم استمر:

- لا أحد يدرك ما الحقائق: الكل يتكلم من زاوية مصالحه، ويدعي أن الحقائق ما تحقق مصلحته! نحن مثلهم أيضاً، لا نختلف عنهم في شيء، الفرق الوحيد أن صدرنا يسع لهموم غيرنا.

جلب النادل الشاي. كان المقهى قد ازدحم أكثر من ذي قبل. ارتشفا الشاي، وهما يدخنان. قال «موسى»:

- لا يكفي أن تكون صدورنا رحبة تسع هموم غيرنا، بل ينبغي أن نجدد إحساسنا بالكرامة وعزة النفس.. أن ننسجم مع ذواتنا ونتحرر من الاضطهاد. ومن يحصل هذا إلا بوحدة القوى.

- وكيف نتوحد؟ استفسر (ذو الكفل) في شك!

برقت عينا «موسى» بصوت منخفض، كيلا يسمعه شخص آخر وتقع مصيبة، ومن يرغب أن يكون رقماً إضافياً قي قائمة القتلى في تركيا التي تشهد يومياً اغتيال خمسة أو عشرة أشخاص؟

- اسمعني يجب أن نحطم الحواجز المهمة التي تعيق توحدنا. قبل كل شيء يجب أن نمزق نظام المعتقدات الفاسدة المستمدَ من تراث الماضي الذي كبلنا به المجتمع. هذه المعتقدات تمنعنا من اعتناق الأفكار العالمية المعاصرة، فلا نستطيع تكسير قشرة البيضة والانفتاح إلى الخارج. الدنيا ليست بيضة يا (ذو الكفل)... الدنيا فسيحة جداً، ونحن نجهلها. ولم نتخلف إلا بسبب هذه المعتقدات البالية..

قال (ذو الكفل):

- المعتقدات؟!

وتذكر أباه الذي كان يكرر أن «من لا يؤمن لن يشعر بالاطمئنان، ولن يخطو بخطوات واثقة... واستمر (ذو الكفل).

- هل نحن مؤمنون إلى درجة تكوين نظام؟ معتقدات متخلخلة!! بل معتقدات متخلخلة لبشر متخلخلين! يجب تصحيح المعتقدات مثلما

يجب تصـحـيـح البـشـر.. ربما علينا أن نجـد حـلاً لهـذه المشكلة، وإلا سنكتفي بطرح الأسئلة. نحن لا نتـحـمل مـشـقـة إيجـاد الحلول لذلك نتخلخل أكثر، ويجف آخر شرايين الخير فينا. أنا مثلاً، كلما نظرت إلى المرآة شعرت في نفسي بتغير جديد... أتحول إلى ضبع! الاستيلاء على شيء ما يمنحني إحساساً لذيذاً، حتى لو أدى إلى الإضرار بغيري. في هذه الحال أشعر بنفسي قوياً جداً. وعندما أفكر أن حصولي على شيء أضر بأناس آخرين، أضعف، وتتراخى خطواتي.

مسك «موسى» بيد (ذو الكفل)... في اللحظة ذاتها كان (ذو الكفل) يفكر بخزانة مصطفى. حدق في أعماق عينيّ «موسى» وابتسم ابتسامة خفيفة، بادره «موسى» بالحديث:

- الحق معك، ولكن تذكر أولئك الذين يرصدون، في مرح ومتعة، بؤسنا بعيونهم الخسيسة، مقيمين صرح سلطة الرأسمال بما نخسره نحن! لن ننتصر في هذا الصراع مالم نستخدم السلاح نفسه، لأننا لا نمتلك رأسمال. يجب أن نسلب رأس المال منهم. ومعنى هذا أن يندحر طرف وينتـصـر طرف آخـر. ولا بأس من أن تزهق بعض الأرواح في سبيل تحقيق انتصار. أصحاب رؤوس الأموال يرتكزون على هذا المحور في حركتهم، فهم يلهون ويتمتعون في الوقت الذي تزهق أرواحنا.

- ألا يعني سلوك الطريق نفسه. أن ما نفعله ليس إلا تبديلاً في المواقع؟

- كلا... سنسلك الطريق نفسه، لكننا لن نكرر ما يفعلونه.

- وما الذي سنفعله إذن؟

- سنقسم رؤوس الأموال بالتساوي!

مط (ذو الكفل) شفتيه، وحدق في «موسى» بنظرات الشك:

- تظن أن هذا ما سيحصل حقاً؟

- بل أفضل من هذا! سيقام عالم لا يضطهد فيه الكادح. عالم يتقاسم فيه الجهدُ الكادحُ ورأسُ المالِ الربحَ مناصفة. هل لك أن تتصور؟ عالم مثالي.. عالم مرفه! لكل حسب حاجته.. هذا ما نسعى إليه. فلنتحد من أجل هذا الهدف لن يقام عالم مثالي.. ما لم يتحد المضطهدون!

اختلطت الأمور على (ذو الكفل). «هذه الأفكار ليست سيئة إن كانت هي ما يسعى إليه «موسى» ومجموعته فعلاً وحقاً...». لا زالت في نفسه شبهات عميقة «يحاول أن يكسبني إلى صفه...» نظر إلى الساعة القديمة في معصمه وشرب الجرعة الأخيرة من الشاي. قال والاضطراب باد عليه:

- موسى.. هل تأذن لي الذهاب؟ أنا على موعد، وقد نسيته... إني مضطر إلى الذهاب الآن، وسنتحدث فيما بعد..

- كنا سنلعب الشطرنج.

- فيما بعد... ما رأيك؟

ابتسم «موسى»:

- حسناً.. سأدفع ثمن الشاي.

- نهض (ذو الكفل) وصافح «موسى» مودعاً:

- في أمان الله..

خرج من المقهى مسرعاً وتوجه نحو (حوضباشي). «إذا توحد المضطهدون سيضطهدون غير المضطهدين... تبادل في المواقع. ثم يتوحد المضطهدون الجدد وينتصرون على أولئك... وهكذا تستمر الأمور. سخافة.. كلها سخافة..» سحق عقب السيجارة تحت قدمه سحقاً كاملاً. حدث نفسه عندما مر بمبنى المحافظة» لو كنت محافظاً لما قاسيت المآسي، ليتني كنت محافظاً!» وتقدم في السير ماراً بمسجد (لالا مصطفى باشا). الشارع مكتظ بالمارة.. كان يتخيل (نالان) في ذراعه كلما شاهد رجلاً يتأبط امرأة، ويتحسس أنفه «الشاورما» التي تفقده الوعي كلما مرّ بمطعم.. لاحظ لغطاً ولغواً على مسافة قريبة أمامه... وأناس يهرولون يمنة ويسرة، ويتصايحون. «من المؤكد أنها حلقة جديدة في سلسلة العنف السياسي».

علت أصوات طلقات نارية، الشرطة تطلق الرصاص في الفضاء لفك المتخاصمين... لكن... لا!، الشرطي يحمل مسدساً في يده وجسد مدمى يفترش الأرض... لقد اغتالوه واختفوا... ولهذا سحب الشرطي المسدس. «رحل رجل آخر.. مات عبثاً.. والقضية ضد مجهول!». بدل اتجاهه فوراً خشية أن يتورط ويتهم، انعطف نحو (أرزنجان قابو) وأسرع الخطى حتى وصل إلى دائرة البريد، ومن ثم توجه إلى (حوضباشي). «يا لهم من عميان يجسون الفيل من جهات متغايرة!... ثم يتصادمون لتفسير ماهية الفيل.... ويدعي كل منهم أن تفسيره أصح

من تفسير غيره. أليس الأصوب أن يصبوا تفسيراتهم في بوتقة واحدة؟ «موسى» أعمى... كذلك، «راسم».. كلاهما يجهل ماهية الفيل. المتخاصمون كلهم عميان وجهلة متعالمون.

- لو امتدت الأزهار إلى شفاهيا!...

عندما انساب أجمل شطر بيت في الدنيا من شفتيه، ارتدّ إلى عالم (نالان).

«يوماً ما، في غرفة خيالية، لا.. في غرفة مفروشة كقصور السلاطين، لا.. لا.. في قصري المنيف، أتمنى أن تلقي بنفسها بين ذراعيّ، بجمالها الساحر.. وفي ملابس العرس البيضاء..»

انتبه أن هذهِ الأمنية لن تتحقق أبداً، فانفرجت شفتاه في حزن:

- لا أملك المال أو حسناً يزينني

في أمة قد تزلزلت حقائقها

ولاحبيباً يحبني سوى أبويَّ

ثم تكرهني طرّاً خلائقها

جلس فوق أحد المقاعد العامة في (حوضباشي). أشعل سيجارة بتليس. مخاطباً إياها:

- آه.. لولاك لهلكت هما. أنت صديقة الفقراء، يا حياتي (بتليس)!

الجو مستقر كما هو منذ الصباح. قطع من الغيوم الصغيرة تتناثر في طرف جبال (يالان دوكن)، الرياح تهب بضعف بعد أن خفّت شدة

هبوبها في الصباح الباكر. الماء في بُرْكة (حوضباشي) راكد هادئ.. هنا لا يسمع لغط ما عدا أصوات صباغي الأحذية. عينا (ذو الكفل) مسمرتان في نقطة ثابتة، نافثاً الدخان حلقات في الفراغ: «أستاذي... أستاذي الموقر، متى سترتقي إلى درجة أستاذ متمرس؟» الخيال الواسع جعل منه عميداً لكلية الآداب! زيٌّ العمادة يليق به!

«وتقدم نحو المقعد في وقار بخطوات مستقرة كأنه تمثال متحرك، وأسارير وجهه تنفرج عن ابتسامة مغرورة، عندما استقر في المقعد ألقى نظرة إلى السكرتيرة التي يبدو جزء من وجهها وخصلات من شعرها خلال فرجة الباب. كفاه منقبضتان وذراعاه ممدودتان فوق المنضدة ذات النقوش الخشبية المحفورة قال:

- نفسي فداء سكرتيرة مثلك!

وامتص نفساً جديداً من سيجارة، ثم نفثها في ظهر عابر سبيل مرَّ به.. وانتفخ كالمنتصر:

- (نالان)... تعالي هنا..

جاءت (نالان) بحركات رشيقة، شبكت يديها أمام جسمها، وتمتمت في أداء وقور ينم عن الطاعة المطلقة.. ويسحر روح (ذو الكفل):

- تفضل سيدي..

- سعل (ذو الكفل) ليصدر صوته واضحاً، وبلع ريقه مرة أو مرتين.، وحدق بعمق في عينيها قائلا بصوت يسربله الحزن:

- سأكشف لك عن سر مهم يخصني... مهم جداً!

أجابت (نالان) بصوت طائع:

- تفضل سيدي.. كلي إنصات إليك!

- لأسأل أولاً... كيف تجدينني؟

احمرت (نالان) خجلاً، وأجابت بشكل متهرب، وإن كانت قد فهمت مغزى السؤال:

- أنت؟ كلك طيبة... أنت الخير كله!

انفجرت العروق في رأس (ذو الكفل).. وهل يعقل أن يقع فريسة لمثل هذه الأحابيل؟

- أنا لا أقصد ذلك.. أنت سكرتيرة عميد عظيم... ينبغي ألا يغيب عنك التفاتة مثل هذه. عيب!

- تكلمت (نالان) متضايقة.

- أعتذر.. لم أقصدك سيدي!

- وهل هذا صعب؟ أي امرأة في وضعك تفهم ما أقصد! أريد أن أعرف رأيك فيّ كرجل! حارت (نالان) وتلعثمت.. فلم تدرِ ما تقول جواباً عن هذا السؤال غير المتوقع والسخيف حسب رأيها. ضاق صدرها، وتسارع لهاثها، وزادت حمرة وجنتيها.. انخفض وجهها إلى الأرض وتبعثر ذهنها كأنها تواجه سؤالاً صعباً في امتحان عسير، وصدرت الكلمات منزلجة فوق لسانها وأرجاء فمها:

- أن.. أن.. أن..

- أجيبي.. ألا تفهمين؟

الارتفاع المفاجئ في صوت (ذو الكفل) حرك «نالان»:

- إنني.. في اعتقادي أنك رجل ممتاز، أنت رحيم.. وذو قلب نظيف.

- أنا لا أقصد ذلك!

صوته المخيف أفزعَ «نالان».

- هل أنا رجل يمكن أن يُحب؟ هل أملك قدرة التأثير في النساء؟

مثلاً أنت.. هل أؤثر فيك؟ هل يمكن أن تحبيني؟ هل تتزوجينني؟

أحست «نالان» بدوار في رأسها، وأسدلت حجباً سوداء أمام عينيها... هذا الرجل الذي يبدي تصرفات غريبة منذ أمد.. قد جن! لا يدرك ما يقول وما يفعل!..

لقد حان الوقت لتصرخ بما في نفسها.. لن تستسلم لهذا السافل!

وزأرت كلبوة جريحة:

- انتبه يا سيد.. أظنك قد جننت، ونسيت أنك عميد، أنت رجل مخيف، لك أنف ضخم ومنظر مقزز.. حتى أحدب نوتردام لو كان امرأة لنفر منكَ.. تشبه ذكراً وحشياً أكثر من شبهك برجل. أنت وحش الوحوش! إني أستقيل.. لن أعمل معك بعد الآن. خذ وانطح رأسك في عمادتك!

ولت نالان خارجة... مخلفة وراءها نظرات تشع باللعنة وحقداً غريباً. في هذهِ اللحظة وقف (ذو الكفل) على قدميه، وتجمد في وقفته برهة، ثم جلس في مقعده الوثير. كفاه مقبوضتان، حدق في الباب بحقد، وضرب المنضدة بقبضته:

- سافلة... ستدفعين الثمن غالياً... شيطان أنثى!.».

امتدت يده إلى أرنبة أنفه، وضغط عليها إلى حد التألم، واختفت الكلية والعمادة أمام ناظريه، وتخلفت في مخه غمامات سوداء، قال:

- بل أنا السافل! إذا صرت عميداً فسيرتقي الأعمى والأبكم إلى منصب رئيس الوزراء.. الحق مع «نالان» أنا مسخ الرجولة.. وضحك.

«الأستاذ الدكتور (ذو الكفل) يشيل يورد! رمز الرجولة! في مقعد عمومي قديم. فقيراً ومسكيناً!»

وتجعدت أسارير وجهه تجعداً لو رآه من مرّ به قبل قليل لهتف: لقد تغير وجه هذا الرجل!. امتلأت عيناه بالغضب، وخيم عليه الشؤم «الأستاذ الدكتور (ذو الكفل) يشيل يورد! آخر مصادفة في العالم يمكن أن تقع، قذف بعقب السيجارة في الحوض. نثر الأوراق الزائدة من جيبه في الفضاء، فتطايرت القصاصات مع الريح في كل اتجاه

- أخي.. حافظ على النظافة!

صوت رجل قصير، كث الشوارب، عريض المنكبين، قبيح الشكل، لا يخفى من حاله أنه حارس الساحة.

صباغ الأحذية:

- لا تدفع إذا لم يلمع كالمرايا..

طرد الحارسُ بإشارة من كفه الصباغَ المقتربَ من (ذو الكفل):

- ولِّ!... يا ابن «.....»! تتبتون كالنمل!

تدخل (ذو الكفل):

- يا عم... دع الولد ليصبغ حذائي.

ابتعد الرجل مدمدماً... الصباغ الذي يبلغ ١٣ - ١٤ سنة من العمر يتحدث أثناء تلميع حذاء (ذو الكفل)..

- مررت قبل قليل بك وكنت تكلم نفسك.. لم أفهم شيئاً.. ربما كنت نائماً! ابتسم (ذو الكفل) وداعب شعر الغلام. نظر إلى شعره المتسخ الأشعث وعينيه الزرقاوين القذرتين، وانفرجت شفتاه بصوت فيه نغمة حب:

- لم أكن نائماً!

وأشار إلى الجهة المقابلة من الشارع حيث مركز الثقافة الشعبية:

- أحفظ دوري في المسرحية التي سأعرضها، أكرر الدور مع نفسي كلما سنحت الفرصة، أضاءت عينا الطفل بالحماسة.

- يا الله.. أنت ممثل مسرحي؟

- ألم تكن تعلم؟

- لا.. لم أحزر.. وشكلك لا يشبه ممثلاً!

اندمج (ذو الكفل) مع تيار الكذب، فصار يختلق شيئاً جديداً يبرر كذبه:

- هذه ملابس التمثيل، أمثل دور طالب جامعي فقير! لو رأيت ملابسي الحقيقية لفغرت فمك دهشة! أنا ممثل في الفرقة القومية.
خفض الغلام رأسه منشغلاً بالصبغ:

- لم أرَ المسرح في حياتي.!

صوته الحزين أثار (ذو الكفل) من الأعماق، فمد يده إلى جيبه وأخرج حفنة من النقود، وقال:

- خذ.. ستذهب إلى المسرح هذا المساء، البطاقة للطلبة بسعر مخفض، وأخرج حفنة أخرى.. خذ.. أجرة الصبغ

شغلته السعادة التي أحسها في نظرات الغلام حتى وصوله إلى مسكن الطلبة، أمام المسكن لاحظ «نالان» واقفة مع فتيات ينتظرن الباص، اضطرب قلبه، وتسارع وجيبه. في لحظة رنت إليه «نالان»، فثارت المشاعر فيه.

غداً «الإثنين» وربما سيكون أشد الأيام رهبة عليه. ستصل مغامرة الرسالة إلى نهايتها، وفجأة سمع لغطاً، فالتفت إلى مصدر الصوت.. رأى (راسم) يأتي مهرولاً، ثم اقترب من (نالان) ووقف عندها يلهث! لم يلاحظ (ذو الكفل) الذي كان قريباً منهما. سمع ما دار بينهما لرهافة أذنيه:

- مرحباً «نالان».

- مرحباً «راسم» لم تأخرت؟

- أعتذر لتأخيري... كنت أتصل بالتلفون مع صديق؟

- فتاة؟

- أسفاً «نالان»: ليس لي صداقة مع فتاة غيرك.

مطت «نالان» شفتيها، وحدقت في عيني «راسم»:

- هل أنت متأكد؟

- طبعاً متأكد.. ولم أكذب؟

احمر (ذو الكفل) غضباً، صمتا برهة، كانت «نالان» قد تركت مسافة كافية بينها وبين الفتيات الأخريات وسألت باضطراب:

- هل تعرف (ذو الكفل) يشيل يورد؟

السؤال أثار الدهشة في نفس «راسم»، والرعشة في نفس (ذو الكفل):

قال «راسم»:

- لماذا تسألين؟

- لا.. ليس لسبب معين، تذكرت فجأة اسمه، طرق سمعي أنه مولع بالأدب، وأنه يكتب شيئاً، وينشر شعراً في إحدى المجلات. هو معنا في الصف، فبدر لي أن أسألك عنه.

- يكتب الشعر؟ مع ظني أنه يكتب شيئاً.. لكن لا يكتب إلا التوافه! أين الشعر من هذا البليد؟!

- تعرفه إذن.. هل هو في صفنا حقاً؟

- نعم.. مع الأسف.. من سوء الحظ أن نصادق بعض الحمقى أربع سنوات طويلة، لكن لماذا تهتمين به؟

- هل تريني إياه غداً؟

- اندهش «راسم»، وسأل في شك:

- لماذا؟

- لا تندهش يا عزيزي.. عندما أتعرف عليه سألقنه درساً لتجاوزه الحد واعتقاده أنه أديب فعلاً!

- هل فعل شيئاً؟

- وما الذي يقدر أن يفعله؟ أساء الأدب قليلاً، هذا كل ما في الأمر! صعدا الباص بعد انتظارهما في الموقف... فتعسر على (ذو الكفل) سماع حديثهما، اصفرّ وجهه، تصور «راسم» جلاداً منتصباً أمامه، لقد سمعهما، ستحدثه «نالان» عن الرسالة حقاً، وسينقلب «راسم» إلى ضبع مفترس، شيء مخيف. «من حسن الحظ أنه لم يلاحظني». وتقدم نحو السلالم «ستدفعان الثمن غالياً، كلاكما، لن يشم «نالان» إنسان غيري ما دمت حياً.. لن يحدث هذا أبداً... أقتله»، وغاب عنه أنه يرتجف.

«عجيب... كنت أظن أني المخاتل الوحيد... وفي الواقع أن أكثر الناس براءة في الظاهر منافق أيضاً.. خدعت الصباغ بأسطورة المسرح.. لعبت عليه دور ممثل مسرحي حقيقي وغني، ومنحته ثمن

بطاقة مسرح رغم حسرتي إلى إشباع بطني.. كم أنا مخاتل!؟ و«نالان» المخاتلة! أكتب الشعر وأنشره في إحدى المجلات! أيتها الكاذبة. من أين علمت أني أكتب الشعر؟

صعد السلالم وأطلق ضحكة أو ضحكتين، التفت إلى الخلف واطمأن لعدم وجود أحد. بعد قليل كان في غرفته. لم يبد اهتماماً بمن في الغرفة. نظر إليه أحمد ونوري، مشدوهين، تمدد بملابسه على السرير، ثم غرق في النوم. كانت الساعة الثامنة والنصف مساءً، عندما استيقظ، نزل إلى الصالة لمتابعة التلفزيون «ربما أشرب أكواباً من الشاي على حساب غيري» هذا ما كان يجول في خاطره.

في جيبه ما يكفيه لمدة أسبوع واحد، ينبغي أن يعمل في الأسبوع الذي يليه... يجب أن يعمل!.



الفصل السادس

(ذو الكفل) يشـمـئـز من الأنف الذي يظهـره قبيحـاً جـداً، كلمـا مسـه ردد: «ويحك أنفي!.. يا لك من عـذاب عظيم! لماذا أنت ضخـم إلى هذا الحـد؟ يخطر لـه أحـيـانـاً أنه يأثم بمثل هذا التـفكيـر. ورغم ذلك يشكو «ولم خلقني الله قبيحاً؟» ويجد نفسه محقاً باجتراح هذا الإثم.

الثاني عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) يوم الإثنين.

ينتظر فـي صـالـة شـرب الشـاي فـي الكليـة حلول مـوعـد الدرس الأول في السـاعـة العـاشـرة، وجهه لامع لأنـه حلق لحيتـه منذ الـصـبـاح البـاكـر، هدير الريح العاصفة في الخارج لا ينقطع، والجو ملبد بالغيوم».

السـاعـة التـاسـعة والنصف. ازدحام ودخان السجائر، لاعبو الشطرنج، والمتحـدثون والمتـمـازحـون فتيـات وفتيـانـاً، والصـخـب، كل هـذه الأمـور لا تلفت اهـتمـامـه، فـهـو في زاويـة بعـيـدة، غـيـر منتبـه إلى صخب الـصـالـة إطلاقـاً. مـتفـرغ للحـور العين في قـصـره السـاحـر الرائع. والآن صـار لا يفـزع خـوفـاً من رد فـعل «نالان»، قـدر النفوس السـامـيـة أن تتـعـرض إلى الاسـتـصـغـار «لاحظَّ للنفوس السـامـيـة في المال والحب..» صـار ينشـد القوة من هذه الفكرة للتغلب على مشاعر الخوف النابعة من المغامرة!

سـعـل سـعـالاً متقطعـاً وهو يجيل بصـره في الازدحـام بنظرات غـريبـة. يدقق بشكل خاص فـي الفتيـات الضـاحـكات بصوت مـرتفع - معتقداً أنه من النفوس السـامية حقاً «ابنـا الشيطان التوأمـان: المال والحب! يجب أن تنتصـر روحي السـامية وأقـهـر ابنـي الشيـطـان.. يجب أن تطأطئ «نالان»

الرأس أمامي، فلأذهب إليها قبل أن تأتي إليّ، ولأخبرها عن سبب كتابتي للرسالة».

«المال والحب، يجب أن يخدماني، يجب أن أستعبد الشيطان! وأستغله كما أشاء.

يجب أن لا أتعذب كما تعذب المفكرون العظام والنفوس العبقرية مدى العمر، بل لابد أن أنتج أروع مؤلفاتي في وسط معطاء! يجب أن أحفر اسمي في التاريخ فلا أنسى إلى الأبد!».

الانفعال الذي أثاره تصوره الخيالي بأنه مفكر كبير جعله يردد أروع أشعاره:

- «لو امتدت الأزهار حتى شفاهيا»

أخرج ورقة وقلماً وسود بعض الأبيات من الشعر مصوراً الجو الذي كان فيه منذ قليل، وحفظها عن ظهر قلب على أمل أن تفيده عنوان القصيدة «شحنة بارود»، مزق الورقة وألقاها في سلة المهملات، وألقى نظرة غامضة على المزدحمين في الصالة، وقال بصوت لا يصل إلى سمع غيره:

«أنا أبله.. هل تسمي هذه الأبيات شعراً؟ إني أخادع نفسي.. كل من يشاء يستطيع أن يكتب بهذا المستوى.. لكن ذلك لا يدل على أن نفسي ليست سامية». عندما أمتلك المال، سأكتب أروع أشعاري وأنشرها حقاً».

مط شفتيه.. وهز حاجبيه إلى الأعلى:

هاهاي!.. عندما أمتلك المال! ثم أموت.

صمت... ولما تعلقت نظرته بأعقاب السجائر في المنفضة، دس يده في جيبه، وغمره حزن حين أدرك أن سجائر «بتليس» قد نفدت. تذكر

أصـدقـاءه الـذين يدخـنون «مـارلبـورو.. خـاصـة مـصطفـى. «أولئك يموتون أيضـاً. كلنـا نموت، الموت! لا أذكـر هذه الكلمـة كـثـيـراً.. ولا أرغـب في التذكـر، أحياناً يبدو الموت جذاباً. من المؤكد أن الخلاص في الموت، لكن رغم كل المصاعب تسيطـر غريزة حب البقـاء على نفسي، وأحيـاناً يثور فيّ الفضـول لمعـرفـة مـاهيـة الموت. إني أتمنى الموت، لو تيقنت بالحـيـاة الأخرى بعد المـوت فإني سأموت!. الموت – بعيد عن البعض مسافة آخر نجمة من درب التبـانة.. وقـريب إلى البـعض إلى الثانيـة التاليـة للحظة التي هو فيها..»

انفرجت شفتاه بصوت خافت:

– هـا أنت يا وطنـي..

أصبحت برميل بارود قد اتقدا.

وشحنة قد بدت تسري بها النار..!

«بلادي برمـيل بارود بحق! يشتـعل فتيلهـا... على وشك الانفجـار. كل شـرارة تزهق أرواحـاً، لا يمر يوم من غيـر أن يسـمع في أخبـار التلفـزيون عن تفجير مبـان أو إطلاق النار في المقاهـي أو اغتيال أشخاص. يا ويح الفقـر! يا ويح الفقـراء! النكبـات لا تصب إلا فـوق رؤوسـهم.. الأقـويـاء لا يفـتـؤون واقـفين علـى أقـدامـهم، والـضـعـفـاء يسـحـقـون. مـن الـنادر أن يستهدف عضو برلمان أو بيروقـراطي كبير، أكثر القتلى من الذين يظنون أنهم عثروا على الجنة عندما حازوا على النقود.

– حتى في أرضروم، حيث أكثرهم من المحافظين، يوجد ناس من كل الفئـات، بين فـتـرة وأخـرى يلتـهب الجـو، ويمسك الموت بتـلابيب البـعض، وأحيـاناً عندمـا لا يجـدون أحـداً يصـبون عليـه جام غضـبـهم من الفـئـات المضـادة، يصطدمـون بأناس يقـاسـمـونهم الأفكار في المعـسكر نفسـه،

مناطق كاملة يفرضون سيطرتهم عليها، والأحياء والمدارس تعلن «بمناطق محررة»! سينفجر البرميل قريباً إن لم يوقف امرؤ هذه المسيرة! غداً ربما تسيل الدماء إلى حد الركب أو يذبح الناس بعضهم بعضاً كما يذبح الحيوان، باختصار: المستقبل لا يبشر بخير أبداً.

«ها أنت يا وطني..

أصبحت برميل بارود قد اتقدا وشحنة قد بدت تسري بها النار..

شعر رائع... رائع جداً، هذا جوهر الشعر وعين الحقيقة في وطن صار برميل بارود، لن تمتد الأزهار حتى شفاهي إطلاقاً، لن أستطيع إطلاقاً أن أحب زهرة لم يمسسها إنسان! كل شيء يتوسخ، كل شيء يتشبع برائحة ملعونة».

لامست يد كتفه، ارتعش جسده، وسرت في روحه موجات من الخوف كأنه شمَ رائحة «راسم»، رفع رأسه.. ووقعت عينه على «محمد فؤاد»، بادره «محمد فؤاد»:

- أبشرك.. نشرت أسماء مستحقي السلفة النقدية.

امتلأ بفرح غامر لسببين، المتكلم ليس «راسم» وصدور قائمة السلفة، برقت عيناه بالسرور، سيعمل مرتين في الشهر بدلاً من أربع مرات، تساءل:

- من قال ذلك؟

-لم أسمع من أحد.

- كيف علمت إذن؟

- قرأت الخبر في لوحة الإعلانات.

- اجلس أولاً واشرب كوب شاي.

- لن أجلس.... ها.. لأسأل قبل أن أنسى: هل مازلت تكتب الشعر؟ سمعت أنك كتبت قصيدة جميلة.

امتلأ غروراً، لقد داعب «محمد فؤاد» شعوره بالعظمة، يا له من رجل طيب، وأشار إلى الكرسي:

- اجلس لتشرب كوب شاي ونتحدث.

- لن أستطيع المكوث.. لدي عمل.

- من ذكر لك أني كتبت قصيدة؟

- «راسم الإسبارطي».. قبل حوالي عشرة أو خمسة عشر يوماً. ولمرات عديدة بدا لي أن أسألك، لكني لم أجد فرصة حتى الآن.

- لقد تخاصمت مع «راسم».

- لماذا؟ هل جرى ما يسوء بينكما؟

- ذكر بصراحة أنه صادقني من أجل الجمعية.. فتركته.

- عجيب!

- نعم عجيب! من الصعب أن تفهم الإنسان!

- لا تهتم.

- ولم أهتم؟ ربحت ما استدررته منه!

- حسناً. وداعاً يجب أن أجد «مصطفى» سنلتقي في الدرس.

- مع السلامة.. أوصل سلامي إلى «مصطفى»

- طيب، سلامك سيوصل.

- ابتسم «محمد فؤاد» وفارقه.

انتشر ألم فجائي من نقطة مزرقة بإبرة منع التسمم إلى سائر أنحاء جسده، ثم أحسّ براحة زوال الألم ، ونظر إلى يده المجروحة التي فك أربطتها «لقد تحسن الجرح جداً». مرت أطياف الشخصيات الرئيسية في الأحداث الغريبة التي شهدها في الأيام الأخيرة:

- «راسم» وحش لئيم ومخيف! يجب أن لا يخطف «نالان»... يجب أن أنتصر عليه.. ولكن كيف؟

- صفر العجوز: الرجل المسكين المنقطع من العالم، لا زال يعيش في عصر ما قبل الجمهورية.. أحمق.

- مصطفى: يجب أن أسرق خزانته... لن يتضرر لأنه يحصل على النقود بيسر.

- موسى: رجل لئيم يمني نفسه بالظن أنه سيقنعني، وهل أنا أحمق لكي أخدع، معنى ذلك يجب أن أحذر!

- محمد فؤاد: ذكاء خارق متدين أكثر مما ينبغي، ولكنه يكسب إعجابي لأنه طيب القلب.

- «نالان»: آه نالان!..».

لما مر به طيف نالان... شرد ذهنه إلى أن أيقظه رنين جرس الدرس من الأوهام.



«كان شاباً وسيماً جدا الفتيات كلهن يسترقن النظر إليه، يعدلن تسريحة شعرهن وينظرن إليه مرة ثانية.. ليتأكدن أنهن جلبن اهتمامه، ينظرن تارة أخرى، الموقف هذا يمنحه إحساساً مريحاً جداً، تتوسع مساحته بمرور الوقت كالتموجات المتوسعة الناشئة من إلقاء حجر صغير في ماء راكد... كأنه نجمة مشعة تخلب أبصار الفتيات.. يشدهن برؤيته. منهن من تصب الشاي في كمها بدلاً من فمها، ومنهن من تضع البسكويت في أنفها... لا بل منهن من تقرب أحجار الشطرنج إلى فمها، بدلاً من السيجارة! انتابت الغيرة الشباب، فلم يبال بهم.. إنه واثق أن الفتيات سيزحفن خلفه:

ها هو ذا جميل ووسيم... ما الذي زاد فيه؟ ما الذي اكتسبه؟ ما الذي تغير فيه بتعلق الفتيات به؟ على أي حال هذه فرصة يجب أن ينتهزها بدلاً من الانشغال بإلقاء الأسئلة والجواب عنها! أجال طرفه في الصالة، وقفز فوق إحدى المناضد.

- كيف؟ هل أعجبكم؟ هل ترون الفرق بين (ذو الكفل يشيل يورد) الذي تنفرون منه لأنه رجل عادي وشكله غير مقبول، وبين (ذو الكفل يشيل يورد) الجديد؟ إذن كل شيء يمكن أن يتغير! أمس كنت قبيحاً وخجولاً، وبقدر خجلي كنت جباناً! واليوم أجعلكم تقشعرون! أنتم الأن أمام رجل قوي ترتعشون منه حتى نخاع عظمكم! وغداً صباحاً قد أتغير أكثر - ربما أقف أمامكم مثل سوبرمان.

وقع الجميع في حيرة يرمقونه كما يرمقون مجنوناً، وبالطبع لا يتصرف تصرفاً مثل هذا إلا مجنون بحق! الانفعال على وشك أن يصل إلى الذروة، زاد التوتر مع استرساله في الخطاب!.

«لم تحزروا من أنا حتى الآن!.. أليس كذلك؟ ولن تحزروا بالطبع! أنا ذو الكفل يشيل يورد ... ذو الكفل يشيل يورد!»

تحول صوته إلى الاستهزاء، أما الابتسامة في وجهه فقد كانت أكثر هزءاً وأكثر إيلاماً! كان يلتفت إلى الجهات الأربع أثناء الكلام:

- ذاك المسكين القبيح الذي لم تتواضعوا إلى حد تبادل الحديث معه. ذاك الأحمق الذي يخادع نفسه قبل غيره بإعلانه للجميع أنه شاعر وروائي، وأن كتبه ستطبع قريباً ويرتقي إلى أسمى المراتب في الأدب العالمي، وأنه سيحصل على جائزة نوبل للأدب مميزاً بين البشر! ذاك الخيالي الرهيب.. عاشق المغامرات البليد.. ذاك المهرج الذي ضحكتم منه ملء أشداقكم! ها هو أمامكم في صورة جديدة تماماً! أمامكم قوياً تملؤه الحيوية.. تغبطونه، (حدق في عيون الفتيات)، تقولون ليتنا نتأبطه فنرافقه إلى عالم السعادة! لكن.. كلا أنتم تلهثون وراء سراب في صحراء قاحلة! مثلما تركتموهُ يلهث وراء الأوهام!

لقد حللت شخصياتكم إلى درجة يمكنني أن ألقي عنها محاضرة أمام الرأي العام العالمي.. أنتم أصنام حجرية تتمنون الشكل فقط ، وتحكمون على الظاهر، وتغفلون عن جمال القلب والروح من وجهة نظركم، الحيوان الوحشي أو بالأحرى من يحمل من الجهة اليسرى في صدره صفيحة قاذورات بدل القلب. السئ النية، ومريض المنافع الذاتية المنقاد بالفكرة القائلة «ما يدخل جيبي حبيبي!». إذا كان جذاباً ووسيماً، أفضل عندكم أضعافاً مضاعفة من إنسان غير جذاب وغير وسيم، (وربما قبيح وذو أنف ضخم)، وإن كان يحمل قلباً شفافاً، وعاشقاً للفضيلة، ومهووساً بجمال النفس!

أنتم تفضلون الثـري المخادع على الفـقيـر المسـتـقيم، والليل المظلم المخاتل على النهار المضيء الطاهر. تشـيحـون وجوهكم عن العسل إن وضع في صفيحة ظاهرها صدأ وباطنها براق، وتتنافسون على السم إن وضع في زجـاج بلوري... ذلك مـبلغكم من العلم! ولقلة عـقـولكم لم تكتشفوا عبقرية مثلي حتى اليوم، ولولا إظهاري لنفسي لما كشفتموني على مدى السنوات.

تظنون أنكم تحسنون صنعاً.. وأنكم تحيون حياة الملائكة!!. مغترون بالثقة في أنفسكم في عالم لاثقة فيه.. إن أنتم إلا لُعَبُ! لعب طائشة! لاتفقهون حديثاً، وتودون أن تتحدثوا ليسمع غيركم.. أنتم كسفن تغرق في البحر شيئاً فشيئاً.. لكنها لا تدري أنها تغرق.

نزل من فوق المنضدة، الجميع في الصالة مسمرون في أماكنهم.. وليزيد الجو رونقاً أخرج من جيبه سيجارة مارلبورو وأشعلها بانتشاء قائلاً:

- لحظة يا سادة ويا آنسات! إلى أين... إلى أي دار للسعادة تمضون حسب ظنكم وأنتم على هذه الحال؟

لم يستطع أن يكمل... فقد تماماً تلك القدرة السحرية، وظهر بصورته الحقيقية... أنف ضخم، وخدان لا صقتان من الهزال، جسم ضئيل، عينان تلفهما هالة زرقاء ونظرات ذابلة.. انفجر في الصالة طوفان من الضحك. أصداء الأصوات ارتدت من الحيطان وملأت أذنيه:

- نحن ماضون إلى جهنم!

- إلى حانة آغوره»!

- إلى سينما «داداش»!

أحس بهزيمة منكرة.. أراد أن يرد عليها بالبكاء لكنه لم يقدر، فهرول إلى خارج الصالة، ثم اختفى بين الأروقة...»

عندما استيقظ (ذو الكفل) الجالس في أحد المقاعد الخلفية في قاعة الدرس، من حلم اليقظة الذي خطب فيه محدقاً في رواد صالة الشاي من فوق إحدى المناضد، وهو مفتوح العينين، كانت المحاضرة عن الأدب التركي قد انتهت وبقي من الدرس خمس دقائق.

الأستاذ حسن ذو شعر أبيض، ويستعين بالنظارات الطبية للرؤية، خاطب الطلاب:

- يا أصدقاء.. هل فيكم من يكتب الشعر؟

- ارتفعت يد في وسط القاعة:

- نعم.. أستاذ..

كان «راسم» قد نهض واقفاً، حدس (ذو الكفل) بشيء سيقع.. راسم يريد أن يستخف به. التفتت «نالان» إلى الخلف، وتبادلت نظرة سريعة مع «راسم».

سأله الأستاذ:

- أنت تكتب الشعر؟

- لا .. أستاذ.

- من إذن؟.. ولمَ لا ينهض هو؟

- إنه يخجل من إظهار نفسه شاعراً، اسمه (ذو الكفل يشيل يورد) ويكتب شعراً جذاباً.

أجال الأستاذ الطرف في القاعة، وقال:

- من هو (ذو الكفل يشيل يورد)؟ لينهض واقفاً

نهض (ذو الكفل) مُنزعجاً.. وتركزت العيون كلها عليه، وضحك بعض الطلاب ضحكات مكتومة. « فترة ذهبية.. سأظهر نفسي «لنالان».. وقد أجعلها تغير رأيها في النيل مني بسبب الرسالة...»

- تفضل.. أستاذ!

- أأنت تكتب الشعر؟

- نعم.. أستاذ...

صدرت ضحكات مكتومة، بينهن ضحكة «نالان»، انزعج الأستاذ:

- اصمتوا... لا تتصرفوا كالأطفال..

وحول نظره إلى (ذو الكفل):

- نعم (ذو الكفل) ما الذي يدفعك إلى كتابة الشعر؟

- إحساسي الداخلي... عندما أتأثر بشيء أحس بالرغبة لكتابة الشعر.

- وما الذي يؤثر فيك!

- كل ما يسمى (بالجمال).. وكل ما يسمى (بالقبح). باختصار أتأثر بكل شيء حسب الساعة!

- هل تحفظ شيئاً من شعرك؟

همس «راسم» في أذن زميله الجالس جنبه:

- انظر.. يريد أن يبدو إنساناً راقياً!

وهمست «نالان» في أذن الجالسة أمامها بأشياء.

قطع الأستاذ شروده بنظرات فاضت إلى الخارج من خلال الشباك ثم التفت إلى (ذو الكفل):

- اقرأ ... ولنسمع.

بدأ (ذو الكفل) بقراءة قصيدته بصوت مشبع بالغلظة:

برميل بارود

المال.. والعشق..

توأمان قد ولدا..

في ليلة كالح ظلامها.

وَلَد الشيطان توأمين!.

وحشان فتاكان قد وجدا..!

وغطياني، كنبتة من المتسلقات..

تنمو كثيفة..

فتلصق بي روحاً..

تمتصني.. تمتصني جسداً

وتقذفاني إلى أزقة دموية تمتص دمي

.. بلا هدى

ولا مسترشد رَشدا

العمر ضاع سدى

ما أنت يا وطني..

أصبحت برميل بارود قد اتقدا

وشمعة مولع فتيلها.

وثعابين الدروب..

عقارب الطريق..

تبث النار،

لاهبة أفواهها،

وطني قتيلها

المال.. والعشق،

ريح تضرم النار

تلهب الحريق سراً

من يخمد النار في هذي البلاد معي؟

إني أكافح وحدي لإخمادها!

- عند انتهاء القصيدة قال الأستاذ:

- أنت متشائم جداً!

- أستاذ.. لم أعش حياة تجعلني متفائلاً!

- طيب جرس الدرس يكاد أن يرن... هل نتكلم عن القصيدة فيما بعد؟

- حسناً.. أستاذ.

رن الجرس وخرج الأستاذ. وانفجر ضحك ولغط في القاعة.. فلا يسمع قول لقائل، أدرك أن البنات (وخاصة نالان) تستهزئ به. فتأبط دفاتره وانبرى خارجاً لم يكن يود أن يفهم ما يقال. سار نحو الباب بغية التوجه إلى مسكن الطلبة لانتهاء الدروس.

- انتظر لحظة!

ارتجف. هذا الصوت لنالان، لقد دقت ساعة الحساب! بعد قليل سيتوضح نتيجة السخافة التي قام بها! استدار بتردد:

- تفضلي.. ماذا تريدين؟

اقتربت «نالان»، وحافظ هو على هدوئه. ها هو مع «نالان» وجهاً لوجه بأسارير وجهها الماكر وبدنها الرائع! «زوجة المستقبل؟ أم عدو لدود؟ حظ عظيم أن يكون للمرء زوجة ثرية وجميلة كهذه».

قالت «نالان» بصوت يسمعه (ذو الكفل):

- أيها الشاعر.. شاعر السخافات! رغم أني لا أؤمن بشاعريتك، ولكن هكذا اشتهرت في الصف! ما العمل؟ سنتقبل ذلك رغماً عنا!»

أسلوب «نالان» لا يدل أبداً على بداية طيبة! من الواضح أنها تستخف به كثيراً، ولهذا ارتجفت ساقاه. سأل متلعثماً ووجهه محمر:

- ماذا تريدين؟

- سأخبرك بما أريد في الخارج، فلنمشِ معاً إلى مسكن الطلبة إن لم تمانع!

ارتبك (ذو الكفل)... وأشد ما يخيفه تهكم «نالان» بهدوء كبير! قال متلعثماً:

- لا.. لا مانع... فلنسر!

خرجا من الكلية سوية، لم يتوجها نحو المسكن الطلابي بطريق مباشر، بل اتجها نحو بوابة الخروج من الحرم الجامعي خلال أشجار السنديان، كلاهما صامت، (ذو الكفل) صامت خوفاً، «نالان» تفكر بما ستقوله، خفت سرعة الريح قياسا عما كانت عليه صباحاً. وتبددت الغيوم. ومال الجو إلى الحرارة. والعصافير تجيش على عادتها وتتقافز بين فترة وأخرى على الأغصان. الشمس تبدو مثل صينية ذهبية مسطحة، والسماء الزرقاء تتماوج في امتداد البصر. يتقدمان بخطوات بطيئة، وفي آذانهم صياح الأطفال الصادرة من بيوت المنتسبين ممزوجة بدقات مطارق مجهولة المصدر. وأحياناً تسقط أمامهما ورقة صفراء.

(ذو الكفل) هائم كأنه سكران بتأثير السير جنباً إلى جنب مع فتاة.. بل مع فتاة يريد أن يؤمن أنه يحبها، هائم يغمره السرور.

هذا هو الوقت المناسب للتعبير عن حبي، وولهي بها إلى الحد الذي جعلني أضع الرسالة في معطفها، وإذا وجهت لي إهانة سأخبرها بأني لن أكفّ عن حبها، ولا أقدر أن أكف عن حبها حتى إن أردت، ومرتبط بها مثل ارتباط الإنسان الآلي بصاحبه، وعلى استعداد للموت في سبيلها، بل هي أعز عليّ من روحي، على أي حال يجب ألا أعتذر.. الاعتذار قبول بالخطأ، بينما الحب في نظر هؤلاء ليس خطأً..

كسرت «نالان» الصمت.. فأنصت (ذو الكفل) في حالة السُكر هذه:

- اسمع يا زميلي، سندرس في الصف ذاته أربع سنوات، لا أريد أن تشوب علاقتنا شائبة، تعرف السخافة التي ارتكبتها، سخافة لا تليق بطالب جامعي.. عمل من أعمال الجهلة، لا يليق على الخصوص بشخص يدعي أنه شاعر! إضافة إلى ذلك مشاعر من طرف واحد لا يفيد أي معنى! الحب يكسب معنى في حال المشاعر المتبادلة، لأول ولآخر مرة أتحدث معك، أرجوك ألا تزعجني بأي صورة من الصور.. قد لا أكون طيبة إذا ارتكبت سخافة أخرى، وفي الحقيقة فكرت بأشياء سيئة جداً.. لكني تركتها، لأني لا أريد أن أحط من كرامة شاعر. كان في مقدوري أن أهينك وسط الجميع، مثلما أهنتني بين صديقاتي، كان في مقدوري أن أوجه الإهانات في الصف.. لكن ما الفائدة في ذلك؟

- أطلقت علي اسم شاعر.. أعجبت بالقصيدة إذن؟

أطلق الكلمات بصوت مرتعش.. كان يمشي وبصره في طرف حذائه.

- كل ما في الأمر أنه يختلف عن الكلام العادي فقط.!

لم يستمع إلى ما قالته «نالان» كان منشغلاً بالطوفان الهائل الذي كان في داخله.

ها هو ذا يسير مع الفتاة التي يريدها جنباً إلى جنب، ومن يراهما يظنهما حبيبن. هذا تطور كبير. ومن الغريب أنه هادئ رغم ذلك. المتوقع أن ينعقد لسانه!

لقد زادت جرأتي الأدبية في الغالب وكأني أصاحب الفتيات منذ سنوات! شك أنه في حلم لأن خياله قد جمح به حتى إنه لم يعد يدرك أن ركبتيه ترتجفان!

كلا.. ليس حلماً، الفتاة التي معه «نالان»، ويسيران جنباً إلى جنب!

«آه.. ليتنا نسير ونسير.. إلى القصر! ليتها تعلن عن موافقتها للزواج مني فنتزوج، ليتها تمتد إلى شفتي كزهرة، وفي قصر على الساحل.. نعيش بلا عمل.. يا لها من متعة! يا للقصر الوردي... آه للحظ التعيس!»

قطعت «نالان» تأملاته:

- لماذا تسكت؟ ألم تسمع ما قلته لك؟

رفع رأسه.. نظرات «نالان» نفذت أولاً في أعماق عينيه، ومن هناك إلى أعماق قلبه..

- آ آ.. قد.. نعم.. ليكن ما تشائين.. أعتذر... أعتذر للسخافة التي ارتكبتها..

- كانت مجرد مغامرة.. أليس كذلك؟

- آه.. كلا! كان يجب أن أعبر عن حبي المجنون مواجهة، لكني لم أجرؤ.

- لم يكن لينفع، لأني لا أعرفك إطلاقاً.

تصور (ذو الكفل) أنه أصاب الهدف.

-لو شئت يمكن أن تعرفيني.

- كلا.. لا أريد!

أحسّ (ذو الكفل) بالهزيمة! وسكتا مرة أخرى، خفض (ذو الكفل) بصره نحو طرف حذائه «من الضروري أن أبدي مهاراتي كلها، وأسحرها بجمال ألفاظي، فأوقعها في حبي، يقال: إن الحب هو يبدي السيئات العوجاء معتدلة، إذا استطعت أن أعمي بصرها بسحر الكلمات المشحونة بطاقاتي الأدبية. فسترى أشياء جميلة، جميلة جداً، في وجهي القبيح!.

بدأ بالتكلم في لغة:

- جمال الباهر جعلني أجن.. فانعقد لساني. أقول من كل كياني، لا فتاة تدانيك.. الشمس والقمر والنجوم والسماوات الزرقاء، وكل الأشياء الجميلة تغبط هذا الجمال الباهر.. حتى الملائكة.. حتى الحور العين!

- تمالك عواطفك رجاءً.. لقد سمعت هذه السخافات من غيرك، كلكم نفعيون! هل كنتم تسلمون عليّ إذا كنت دميمة؟ كلا.. بل تشمئزون وتعبرون بلا تحية. بعضكم يضع رسالة في جيبي، وبعضكم يتبعني كالكلب. أنا الذي أختار، لست غبية كيلا أهتدي دربي، تريد أن تجرب

حظك بالكذب والخداع، أنت في الأقل منافق مثل الآخرين.. كذبك يكتشف في تشبيهك إياي بالملائكة والحوريات.. وأنت لم ترَ الملائكة ولا الحوريات! اخجل قليلاً! بأي حق تزعج فتاة لا تعرفها بلا أدنى شعور بالمسؤولية؟

رغم أن «نالان» أوصته بتمالك عواطفه.. لم تضبط هي عواطفها! كلماتها احتدت ونظراتها تغيرت، حدقة عينيها تدور في محجريهما «من حسن الحظ لم يسمعنا أحد، لقد خدعتني بأسلوبها، اقتربت خطوة ثم ابتعدت مئة خطوة.. إنها شيطان في ثياب أنثى!

تكلم (ذو الكفل) من غير أن يرفع بصره عن طرف حذائه، في نبرة صوته حزن ينبع من الأعماق.

- وأنت أيضاً... لو كنت وسيماً وغنياً لما تحدثت هكذا. أفهم جيداً أن أطباقكم البلورية لا تسع فضالات من أمثالنا.. شيخ طريقتكم قد أفتى: اهتموا بالمظهر ولا تهتموا بالجوهر!

انطلق صوت «نالان» مضغوطاً:

- لا أريد بعدُ أن أسمع نعيقك! يبدو أنك تحسب نفسك شاعراً بجد.. لا تحاول عبثاً. الشاعرية لم تسقط تحت الأقدام بعد. الويل للأدب التركي إذا صار الغلاظ من أمثالك شعراء. لا تقنع نفسك. لن تكون شاعراً بشخصيتك هذه.. وفي أرض مثل أرضروم، الشعر ينبع من الجمال.. وهو غير متوافر فيك ولا في أرضروم، في الصيف مطر وسيول! وفي الشتاء أعاصير وثلوج! لا بحر ولا جمال طبيعي!

محرومون من منظر الغروب في البحر. تسلو بكتابة الشعر في محيط لاحدائق فيه ولا أزهار.. أنت لا تصلح إلا لنقل أشعار غيرك وقراءتها معكوسة من النهاية إلى البداية، ثم التباهي بلا خجل مدعياً «هذا شعري».

- وكيف عرفت أني من أرضروم!

- راسم «أخبرني».

تصنع (ذو الكفل) الابتسامة وقلب شفتيه:

- ذلك الوحش المؤدب!

- لكنه لم ينحط إلى مستوى وضع رسالة في جيب فتاة لا يعرفها!

- خطر له للحظة أن يكشف عن رسالة «راسم» التي كتبها باسم «عائشة دُوران» وهو كونه سياسياً خطراً، وتعالمه رغم جهله، ثم طرح ذلك من ذهنه لأنه لن يقنع «نالان» بصحة أقواله، هو في رأيها إنسان سافل! قال في حقد مخيف:

- ستندمين حتماً على تفكيرك الخاطئ، وانتبهي أن كلانا نسلك الطريق غير الصحيح، وأنك منحطة أيضاً. لأن من يجعلني سافلاً، سافل أكثر مني. كلانا على شفا الهاوية... بل ستسقطين أنت قبلي.

- استدار إلى الخلف بسرعة وابتعد - صاحت «نالان» بالحقد نفسه:

- اذهب إلى الجحيم... يا كلب!

- سنلتقي هناك! هكذا أجاب (ذو الكفل)، وبصعوبة سمع «نالان» تقول:

– ستندم إذا رأيتك في طريقي مرة أخرى!

لم يستطع تفسير التغير المفاجئ في نفسه، في السابق كان يتلعثم أثناء التكلم مع فتاة، والآن يمتلك الجرأة الكافية للتعبير عما يريد بل لتوجيه الإهانات. وقد اجتاز يوم الحساب بلا خوف، في الأقل ربح السير جنباً إلى جنب مع «نالان» والتحدث إليها! «لن أتركك يا «نالان».. ستدفعين أنت و«راسم» الثمن غالياً، يا أبناء اللعنة!. هل كانت جرأة.. أم تكشير أنياب لوحش الشر الذي لا يدرك كمونه في داخله بشكل واضح. سيزول آثار الخجل والتردد فيه إذا سارت الأحوال على هذه الصورة.

«وماذا أظن نفسي؟ إذا قطع «راسم» طريقي، وسألني عن سبب إهانتي «نالان»، ربما أبول تحتي خوفاً!.. أليس هذا هو الواقع؟.

افتخر بنفسه لأنه حدثها بصراحة.

كان يسير مسرعاً، ومتعثراً يكاد أن يرتطم بالأشجار.. وفي خطواته الغضب، ويملؤه فرح غامض بالانتصار، في الواقع يبدو أنه فقد «نالان» ويئس منها تماماً، ويريد أن يسلو بفرحة الانتصار كيلا يفقد عقله «سأغيب عن دروس ما بعد الظهر».

ركل علبة فارغة بقدمه اليمنى كالكرة، انبعث ألم من أصبع قدمه إلى أن بلغ قلبه.

ذئاب الحقد تثور في داخله من غير توقف.

«يوماً ما سأركلك بقدمي يا (نالان)! سأبصق في وجهك! ويل «راسم»! ويلك يا ضحل!..من جهة تشيع عني أني شاعر، ومن جهة أخرى تحيك

مؤامرات لا يعلم بها أحد. سأضيق عليك أرضروم بما رحبت. وأحيك حولك شباكاً يحير حتى السحرة.. ستعرف عندئذ من (ذو الكفل)..

الجو ذلك اليوم كان متميزاً «ليست الأيام كلها مثل هذا اليوم». زقزقة الطيورِ الفرحة وقت ميلان الشمس نحو الغروب بهدوء، تمنح الإنسان سعادة يعجز عن وصفها. تتقافز من غصن إلى غصن، وتزقزق وتغرد. السماء الزرقاء النقية، كل الأشياء تغمز بعينها للسعادة، وجبال «يالان دوكن» كأنها أشرعت أجنحتها لتطير بعيدة، لتنجو من الدخان الكثيف للمدينة الرابضة على سفوحها، ولكي لا تشعر بأنفاس البشر المتسخة يوماً بعد يوم.

الجمال كله تركز في خريف هذه السنة ليهتف في قلب الإنسان بأنه متميز، وينشر الدفء في نفسه، ويبهر عينيه، تطاير الأوراق الصفراء المتساقطة فوق الطريق أحياناً وتماوج الأشجار بتأثير الريح الهادئ وكأنها مغشية عليها تقتلع (ذو الكفل) من ذاته المضطربة ولو لحظة، ثم تعجز عن منعه من دفن نفسه في عالمه الغريب تارة أخرى حيث تثور فيه العواصف، رغم الهدوء السائد في مظهره الخارجي «أتغير شيئاً فشيئاً .. سأتغير أكثر، فأكثر.. لن أتألم لأحد.. لن أرحم دموع الحياة، سأستغل الفرص إلى مداها.. كل ما يحقق لي منفعة فهو مشروع، من حقي أن أعيش كإنسان، وسأغتصب هذا الحق مالم أعطه.. وجداني يدرك أني لن أعيش كإنسان إن لم أنقذ نفسي من الفقر.. ولهذا سأتغير وأنتف ريش من يقف في طريقي.. ابتداء من «نالان» ومصطفى، وموسى.. وكل من يقف في طريقي.. لا فرق بين ذكر وأنثى! المهم أن يكون له ريش ينتف!

لن أخاف أي شيء بعد الآن.

اللعنة على السياسة.. اللعنة على الثعالب الباحثة بين الجثث، اللعنة على الفقر.. اللعنة على الشيطان، وعلى أبناء الشيطان.. في حياتنا أمور كثيرة ليست صحيحة، والأدهى أننا نعرضها بغير خجل على أنها صحيحة، لا نعي ما نقول لأننا منحرفون، لكننا لا ندرك لماذا، ومتى، وكيف انحرفنا، ولهذا نتجرع آلامنا كلها، لسنا في الطريق الصحيح. نحن مغمورون في المستنقع إلى درجة أننا نعمى عن رؤية الحقيقة.. أضعنا الطريق ولا من مرشد يقول: هذا هو الطريق الصحيح. فلا أحد يعرف الصح يقيناً.. الكل يبشر بالخلاص بالدعوة إلى اتباع طريقه الخاطئ. إننا كمجتمع نتجرع عذاب هذا النقص.. نعيش في نقطة الوسط مذبذبين... لا نحقق ذاتنا ولا نكون مثل غيرنا.. كقارب جريح في بحر هائج.. معرضون للغرق في أي لحظة، وللنجاة أيضاً في أي لحظة.. وإن كان الاحتمال بعيداً.

النجاة.. هذا ما أسعى إليه.

آه يا شيطان.. ليتنا نستطيع إبعادك عنا..

آه يا أمنياتي.. ليتني ألقاكن!

لقد نجوت بيسر على غير ما أتوقع.. مرت المسألة بإهانات هينة، كان في الاحتمال أن يهاجمني «راسم» وأصدقاؤه فيفترسونني كالوحوش! وها أنا حي سليم، بل ظهرت كلقمة غير سائغة!

نالان، يا نالان! لو انهدت الدنيا على رأسي لن تكوني إلا لي.. أو أقتلك.

أحفر قبرك إذا استسلمت «لراسم».. والله لن أرحم دموعك، تضيعين هباءً!! كم أكره «راسم»! اسمه يفزعني...

أرضروم لا توحي بالشعر! سخافة! وهل للشعر وطن؟ «نالان»... أنت مغرورة! الجمال جمال الروح. في بلاد مثل أرضروم أناس عباقرة يحتضنون في صدورهم حدائق خضراء، وطيوراً صداحة، وبحاراً، وأزهاراً. هؤلاء ينظمون الشعر وهم يرنون إلى صدورهم، وما الشعر إلا ما يولد من النفس، وليس ما يولد بالضغط على النفس! وإلا لوجب أن يكون الذين يعيشون في بلاد جميلة شعراء كلهم! والحال أن الذين يعيشون في أجمل أرض من الطبيعة ولا يضمون في دواخلهم إلا الصحارى القاحلة - مثلك - لن يقدروا أن ينظموا بيتاً واحداً من الشعر حتى في جزر هاواي.

يا نالان.. سأتعرضك لك بشعر هذا موضوعه.. يفغر فاك دهشة!»

ووضع عنواناً للقصيدة: عتاب!

لا يرغب التحدث مع أحد.. لذا لم يدخل إلى صالة الشاي «سآكل لقمة بعد الاستيقاظ»، فكر في سرقة بعض النماذج حسبما قرر، في هذه الليلة.. يجب أن يأخذ قسطاً من النوم كيلا يرتكب خطأ يؤدي إلى القبض عليه.. والقضاء عليه بالتالي. عليه بالحذر! صعد إلى الغرفة مباشرة «أحمد» و«نوري» يلعبان الورق في الغرفة، سلم عليهما وجلس على السرير، يمكن أن يستغرق في نوم عميق أثناء فترة الغياب عن دروس هذا اليوم. تمدد على السرير من غير أن يرفع الغطاء، وقبل أن يشبك يديه ويضعهما تحت رأسه، أدار زر التشغيل للساعة القديمة

والوسخة مراراً قائلاً في نفسه:

«ساعتي تشبهني»

أغمض عينيه وتمتم:

لا أملك المال أو حُسناً يزينني

في أمة قد تزلزت حقائقها

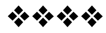
ولا حبيب يحبني سوى أبويّ،

ثم تكرهني طراً خلائقها

وغرق في بحر النوم!

في اليوم التالي، بعد أن أكل ما سرقه من دولاب مصطفى - سَرق قضاه في ألف رهب، تفصد جبينه أثناءه بعرق بارد كالخائف من الموت! - أتم القصيدة المسماة عتاب، في مقهى من مقاهي المدينة.

«يا لها من قصيدة رائعة!»



الفصل السابع

مضى كل شيء بهدوء حتى شهر تشرين الثاني (نوفمبر) تقريباً، منذ أسبوع هطل الثلج للمرة الأولى، وانخفضت درجة الحرارة إلى التجمد. لم يواجه «راسم» ولا «نالان» كثيراً.. أحياناً التقت عينه بعينها من غير أن تستقرا سوى لحظات، بين أمد وآخر التقى مع «الباليكسيري» «موسى» في مقهى «كوركم»، لعبا الشطرنج، تحدثا عن أشياء عادية، وتبادلا وجهات النظر أحياناً في طرق الخلاص، وتناقشا عن الفوضى والعنف.

لم يعد يعمل في البناء في نهاية الأسبوع، السلفة التي استلمها (مجموعة لعدة أشهر) تكفيه لمدة طويلة.. إضافة إلى ذلك يسرق بعض الأشياء بين حين وآخر! بل اكتسب خبرة في هذا العمل، وأثبت لنفسه أنه ماهر! اعتاد أن يسرق يومياً شيئاً قليلاً من العسل والزيتون ومسحوق البندق والجبن من خزانة «مصطفى»، والدفاتر الثلاثة وقلم الحبر التي سرقها من قاعة المطالعة تزهو الآن في خزانته!

ولقد دس بصمت في الجيب ساعتين منسيتين في المغاسل، هذه تجارب، والسرقات الدسمة ستأتي مستقبلاً، فلا زالت خزانة «محمد خير وموسى وراسم» ولا سيما خزانة «راسم»! «لقد احترفت السرقة» لكن هذا خير من الموت جوعاً.

لن يعمل بعد الآن.. لقد ذاق طعم الراحة، حتى لو أراد العمل.. فإن قطاع التشييد راكد لحلول فصل البرد. كيف لو لم تصرف السلفة؟ كان يتحطم!

تبع آثار «نالان» وراقبها ساعات الفراغ من الدرس.. وأحياناً ترك

الدرس ليتبع فتيات أُخريات! دخن علبتي سجاير ونستون التي منحها له «موسى» خلال أسبوعين «آه .. ما ألذ سجائر ونستون!»

لكن.. ذات يوم.. يوم ٢٢ نوفمبر «تشرين الثاني» التهبت النار بينه وبين «راسم» ونالان مرة أخرى.



«**العزيزة نالان:**

لقاؤنا أسعدني كثيراً، نحن مدينون بها لـ «ذو الكفل»، فقد علمت بوجودك في أرضروم - كما أخبرتك - منه، تأكدي أن جمالك كبل فؤادي منذ النظرة الأولى في إستانبول.. من كان يتخيل أن نلتقي من جديد، وفي مكان مثل أرضروم؟ لهذا أرجو الاكتفاء بالمراسلة - كما قررنا - في المرحلة الحالية، تأجير صندوق البريد كانت فكرة طيبة، لن يشعر بنا أحد.. وسنكون معاً عندما يصفو الجو.

استمري في مشاغلة «راسم» فقد انتخب مسؤولاً عن مجموعته في الجامعة، لقد حل هنا بالأمس فصار يصول كوحش مفترس. سأفنيهِ حتماً، وسأدبر له خطة محكمة إلى درجة لن أشك أنا في نفسي!

تحدثت عن (ذو الكفل). أعرفه، يبيع حتى أباه من أجل المال!! حدثك عن حبه وعشقه أولاً ثم تحدث عن استحالة وجود الحب الصادق في وجه الأرض. هذا الأحمق! يريد أن يتزوجك لأنك جميلة وأبوك غني. أظن أن بإمكاني استغلاله طعماً ووسيلة.

احذري أن يلقاك بوجه باسم! نكاية به اقتربي من «راسم» أكثر ليشعر هو بذلك! فسيكبر حقده على «راسم».. وهذا ما أخطط له.

إلى الآن لم أؤثر فيه كثيراً.. لكني سأسيطر عليه حتماً، أي فقير بائس يستطيع أن ينجو من مصيدتي كي ينجو هذا؟ خاصة وأنه يبذل روحه عندما يرى بريق المال!

عنده استعداد للانخراط في صفوف «الميليشيا».. رغماً عن أنه يخاف اليوم من دجاجة، فسيبدي استعداداً لمقاتلة جيش غداً.. المهم إثارته، سأتصل بك عندما يقرر بنفسه أن يقتل «راسم». لندعهما يمضيان في اقتسام قدرهما... ولنلتق نحن في الغابات، وليمت أحدهما... لا فرق، أحدهما إلى المقبرة والآخر إلى السجن... والحياة لنا!

لقد أرسلوا نقوداً كثيرة من إستانبول، مع توصية رئيس الجمعية بالصرف حسب الحاجة، سأجعل (ذو الكفل) يشم شيئاً منها.

نحن نجتمع يوماً في الأسبوع مع الأصدقاء القادمين من الأرياف القريبة في منزل الطبيب أرول، ونتدارس وضعنا. ويريد الطبيب أن أتحمل مسؤولية مسكنه عندما يغادر إلى خارج البلاد. لا يكف عن احتساء الخمر في مطعم (شن يورد) منذ وفاة زوجته. لم أقرر بعد بشكل نهائي، لكني أميل إلى قبول العرض، أعلميني إن احتجت إلى نقود!

لقد أخبرتك أني فوجئت فعلاً بلقائك من جديد.. لا أكاد أصدق! ما إن تعارفنا في إستانبول حتى افترقنا، ولما نعرف بعضنا بعضاً تماماً، ثم التقينا في أرضروم بواسطة مجنون، لولا أننا رفاق عقيدة، ولولا التقاؤنا في استانبول بواسطة الجمعية، لما عرفنا بعضنا بعضاً أبداً! أي سعادة أن نحب بعضنا بعضاً ونشترك في العقيدة ونحمل روحاً واحدة!

قد أسافر إلى «باليكسير» الأسبوع القادم.

حافظي على نفسك، أنتظر رسالتك.

احرقي رسالتي بعد القراءة فوراً! احذري أن ترسلي الجواب إلى الكلية! لأن رسائلي تفتح.. وأحياناً لا تصلني. لا تهملي إرسال الجواب إلى صندوق البريد! مع التحيات

موسى دمير ص.ب ٢٧ أرضروم»

بعد أن قرأت «نالان» الرسالة، مباشرة أخرجت القداحة فأحرقت الرسالة وذرت رمادها من خلال الشباك، خرجت مسرعة واختلطت بزميلاتها، وتوجهت إلى الكلية. جلست في مقاعد صالة الشاي وبالها مشغول بالرسالة، لم تغب عنها صورة حبيبها الوسيم لحظة. حدثت نفسها:

- يا للمصادفة... تعارفنا وتحاببنا في إستانبول، والتقينا في أرضروم سنتزوج بعد أن نغادر هذه المدينة اللعينة فوراً.. وفي هذه الأثناء سأشاغل «راسم»، وأستمر في الاستفادة من كرمه! و (ذو الكفل) هذا المريض النفسي؟ لقد صار بلاءً فوق رأسي!

(ذو الكفل) دخل الصالة أيضاً.. وعندما لاحظ حدة نظرات «نالان»، غير اتجاهه، بعد قليل رنّ جرس الدرس.. فخلت صالة الشاي.



بعد يومين يحل «يوم المعلم» انتهت محاضرة، «الشعر التركي» وتحدث الأستاذ عن «يوم المعلم» لمدة (١٥) دقيقة ليصل بالحديث عن الطلبة:

- أنتم زراع حديقة البشر.. ستكونون مربين للناس.. وظيفتكم مقدسة.

فترات التاريخ البراقة تحمل بصماتكم في صفحاتها، أنتم مهندسو الحضارة، في الماضي أسهمتم في نشوة العلماء الحقيقيين، والباحثين عن الحق وخدم الإنسانية الذين يرومون سعادة البشر المادية والمعنوية، وستسهمون في نشوتهم حاضراً ومستقبلاً.

الفترات المظلمة من التاريخ يسودها الظلم. في الفترة التي منعتم من قيادة دفة سفينة الإنسانية، أسدلت المواقف المخيفة المتولدة من الجهل وانعدام الثقافة ستائر كثيفة على وجه الأرض، وغرق البشر في مستنقعات الجهل الغائرة فاشتاقت الإنسانية التي أطفأت مشاعلها حتى إلى ضوء شمعة خافت لما انحصرت في زاوية عذاب الذات الرهيب الناجم من الشعور بالندم على ما فات.

لم يكن (ذو الكفل) يستمع إلى الأستاذ، إحدى يديه تسند وجهه، والأخرى تخط الورق أشكالاً عابثة، سائحاً في عالمه الذاتي، انتبه الأستاذ إليه، الطلاب كلهم - عداه - في حالة انهماك كامل. «الأستاذ يظننا ملائكة. يجهل الذئاب التي تعيش فينا، سنكون لطخة سوداء في وجه الإنسانية على حالنا هذه.. ويخاطبنا كمنقذين! أنحن نكون منقذين؟ نحن!! الذين لا يفكرون بغير جيوبهم وشهواتهم! الذين يستسهلون حتى القتل... نحن...! الزواحف!!.

نعم.. ربما فينا خيار.. لكنهم لا يستطيعون الانشغال بغير أنفسهم. والعجيب أن الشرار - لا الخيار - يجهدون في دعوى إنقاذ المجتمع - لماذا؟ هل معرفة الشرار بالشر عن قرب يدفعهم إلى هذا الموقف؟ أم أن الخيار يجهلون واقع الشر فينسحبون من الميدان؟ أم أنهم لا يقيمون

روابط مع الأشـــرار؟ لست أدري؟ لكني لا أشك أبداً في هذا الواقع المعيش.

الحياة تكاد تختنق بالدم. الظلام المدفون منذ دهر غيّر وجهه تغييراً كلياً.... وتحول إلى تنين ذي سبعة رؤوس وأنياب قاطعة، ينفث من أفواهه ناراً. العالم كله يحترق... وتركيا تحترق، في سعير أحمر!

إنساننا في اختلال أعمى. يخوض ما يظن أنه كفاح البطولة من غير أن يعلم من هو.. ومن سيكون، وفي الواقع يخدع نفسه بالبحث عن الماء وسط السعير.

والشيء الذي يحيرني: أني أقوم بأبعد الأشياء عن العقل رغم أفكاري هذه، لا أتوقف عن فعل أي شر عند سنوح الفرصة! لماذا أنا هكذا؟ ولماذا هؤلاء هكذا؟ من منا يسلك الطريق الصحيح؟»

- (ذو الكفل).. هل تنظم شعراً من جديد؟

أنقذه سؤال الأستاذ من تخيلاته. وأجاب بعد التخلص من الارتباك:

- لا.. أستاذ - أطرق برأسي منصتاً إليكم.

- هل نظمت قصيدة جديدة؟

تذكر القصيدة التي كتبها لنالان، انفعل كثيراً، إنها فرصة سأريها من أنا!

- نعم.. أستاذ! نظمت قصيدة جديدة لو سمحت لي سألقيها أمام الطلبة.

تردد الأستاذ لحظة، وألقى نظرة شاكة على (ذو الكفل)، ثم تموجت شفتاه ببسمة خفيفة قائلاً:

- حسناً... تعال!

قام بارتباك. ردَّ الورقة التي أخرجها إلى جيبه ثانية «أحفظ الشعر عن ظهر القلب » ووقف أمام الطلبة، الصف يتابعه بصمت.

- أستاذي المحترم - أعزائي الطلبة - قال لي صديق: لن يستطيع أرضرومي أن يكتب شعراً لأن الشعر يولد حيث البحر والساحل والجزر، ولا يلهم الشعر من لم ير سحر الغروب في البحر. وأنا كأرضرومي، كتبت قصيدة في هذا الموضوع مهداة إلى الصديق المحترم ألقيها أمامكم، أشكركم:

انحرف بصره نحو «نالان» التي كانت تنظر بعينين متوسعتين، لم يعجبها كلمة «صديق» كما يبدو، قال في نفسه « ستعلمين هل يكتب أرضرومي الشعر أم لا ». أجال بصره في الصف كله، بثقة غير متوقعة في نفسه، وبصوت مستقر الأداء بالإلقاء، كأنه يعيش ما يقوله في تلك اللحظة:

عتاب

حزينة هذه الأزهار

يفزع حزنها المواسم

والضياء يدفن في بحر

من الظلم

والطير يصدح شدواً غير منكتم

يشدو حزيناً..

وفي تغريده نغمي

أمشي.. وتحسبني الغيوم طيفاً

لإنسان، فلست سوى

حطام منهدم

أنا الذي ما رأى بحراً، ولا جزراً

عشت في بلدة بعيدة

عن ضياء الشمس.. نائية

قضيته عمراً

نشأت أنفث سمّاً

يرتوي جسدي به

خلال شفا سجائري

يرتوي

خلية.. فخلية

سموماً

إلى وقت بلغت به

من العمر الكبرا

سعادتي... بسمتي

- وقد تقيأتها

بين الصخور وفي الأحجار

مترية

مغربة

جمدت كالثلج

تحضنني..

بقوة، كحبيبة مشوقة

الدمع من ناظري قد سال وانهدرا

فخاطبتني بشدوها...

طيور عميت

عيونها

فقدت أنظارها البصرا

قالت منبهة

أن ألزم الحذرا

توقف.. وسعل سعالاً متقطعاً. آجال طرفه في الصف كرة أخرى، ورمق الأستاذ، ثم استمر بالأداء العاطفي والمنفعل نفسه.

- أرنو إلى الكائنات

من خلال الأفاعي خائفاً

وفحيحها تطاردني

وفي المغارات أنيابي أكشرها

أحدّها في كهوف الجن..

أشهرها..

في وجه هذي الحياة

ويقطع الجن حبل الخوف والرهب.

لم أشهد الشمس يوماً تختفي سرباً

وقت الغروب الجميل الساحر الطرب.

في البحر

بل في التلال.. تطلب الهربا

في الدرب، فوق الحجارة الباردة المتعبة،

وفي زوايا المقاهي

أتلف العمرا..

لكنني هادر..

أسرِّ في داخلي

بحراً يمور

ويمّاً مائجاً لجبا

ماتت أماني..

أنشبت أظافرها

في جبهتي.

تركت آثارها حفرا

صارت ليالي تسقي كأس لعنتها

سمّاً.. نهاري

وطوفاناً ومضطرباً

لما أسيح بخيلي

في الطبيعة لا أرى سوى

وجهك الفتان والرحبِ

أفكاري الجامحات

تسأل الكون عن

عروسة.. طيف ساحلية عذب

وجدتها..

فبصقت في مخيلتي..

بصقت في أملي

وحلمي الكذب،

كرر قراءة المقطع الأخير. كان الأستاذ مركزاً ذهنه على (ذو الكفل)، والصمت مخيماً على قاعة الدرس. احتقن لون «نالان»... فقد أدركت أن الإهانة موجهة إليها، لكنها حرصت ألا تبدي أي رد فعل يفضحها، توسعت عيناها غضباً..

وتمنت أن تزهق روح (ذو الكفل) خنقاً.

أما (ذو الكفل) فكان يطرب جذلاً.. لقد أنزل ضربة قوية على رأس «نالان»، حسب ظنه.. مع اليقين أنها لن تستطيع الرد بالمثل، «لقد نالت ما تستحق... أدركت من هو (ذو الكفل)!»

بعد سماع الشعر.. فكر الأستاذ لعدة ثوان، ثم التفت إلى (ذو الكفل) قائلاً: بصوت هادئ ومؤثر.

- حسناً (ذو الكفل) قصيدتك هذه أفضل من القصيدة السابقة. بغض النظر عن السبب، شخصيتك متشائمة، تشاؤمك أنفذ إلي كل كلمة من القصيدة.. كأنك لم تعش لحظة بغير ألم.. لماذا تتشاءم؟

أفلا تكون هذه القصيدة أجمل إذا انطلقت من المرتكزات الجميلة في الحياة؟

- أستاذ.. ليس في حياتي مرتكز جميل، كلما تذكرت حياتي الماضية، بل أمسي، لا أجد سوى ظلال الألم القاتمة، أمسي ظلم، وغدي يأس، وأجهل فائدة حياتي في حاضري، فكيف أنظم شعراً

مرتكزاً على الجمال والتفاؤل؟ أنتم هل تتفاءلون بواقع البلاد؟ من يستطيع في سفينة معرضة للغرق وسط الطوفان أن يحلم أحلاماً وردية: القبطان؟ أم البحارة؟ أم المسافرون؟ التفاؤل في بحر ثائر وسفينة مثلومة!

إني أقول الشعر كما يولد في نفسي.. لافرق إن فكرت في الماضي أو المستقبل..

صراع مع الألم.. أتألم حتى في لحظتي هذه، لأني ربما صرحت بأشياء غير مجدية.

-في الوقت الذي استقبل معظم الطلبة كلامه بضحكات خفية.. كان الأستاذ يستمع بجدية:

- اسمع (ذو الكفل)، أشاركك الرأي، إن وضعنا كشعب غير مرض.

لكن انجرافنا مع تيار التشاؤم واليأس يسهم في سقوطنا لا في خلاصنا.

- أنا لا أهتم كثيراً بواقع البلاد.. لأن المهتمين بتخليص البلاد كثيرون، أنا أبذل جهدي في إنقاذ نفسي. أولئك قد يخسرون أنفسهم وينقذون الوطن. أما أنا فأحاول أن أنقذ نفسي ولن أخسر الوطن.. لكني لست متفائلاً في تحقيق أملي.

- أنت تخطئ يا ولدي! من لا يهتم بوطنه لن يهتم بأي شيء.

رفع «راسم» يده للسماح بالتكلم، ثم ارتفعت عدة أياد أخرى. في هذه اللحظة رن الحرس معلناً انتهاء الدرس وقاطعاً سبيل الكلام

عليهم.. أحس (ذو الكفل) بالسرور لذلك.. قال الأستاذ:

- انتهى الوقت.. سنعود إلى الموضوع فيما بعد.

وخرج. بدا منكدراً وكأنه أصيب بخيبة أمل.

عاد (ذو الكفل) إلى مقعده، فجمع دفاتره والتفت بحركة لا إرادية صوب «نالان» فلما رآها تهمس بشيء في أذن «راسم» أحسّ برجفة باردة في جسده.

«يا ويحي، يبدو أنها تشرح ما دار بيننا».

نزل مدارج القاعة غير ملتفت لأحد.. كان يريد الانسلال خفية.. وعندما وصل إلى الباب مسكت يد قوية معصمه:

- مهلاً... لم العجلة أيها الشاعر؟.. ألا نتحدث قليلاً ؟

استدار فالتقت عيناه بعيني «راسم».

- لا شيء أتحدث عنه معك.

تلبس «راسم» طوراً هازلاً:

- ولماذا؟ ألسنا صديقين سابقين؟

- ذاك في الماضي.. لقد انتهت صداقتنا.

خفض «راسم» صوته وضغط على أسنانه قائلاً:

- إذن.. اسمعني جيداً يا فضلة الشعراء.. يبدو أنك تحسب نفسك عمر الخيام! احفظ شتات عقلك في جمجمتك.. ولا تزعج «نالان» مرة

أخرى... إنها لا تصادق أحداً من غير أعضاء جماعتها أبداً.. ولن يستطيع شخص من فئة أخرى أن يزعج فتاة من جماعتنا.

ركز هذا الكلام في مخك الأحمق.. خاصة وحبلك غير موصول بفئة، ومعلق في الوسط! وإلا ستذوق طعم لقمة مرة.. الويل لك إذا ارتكبت حماقة مثل هذه مرة أخرى.. سيعثرون على جثتك في حفرة!

- وما فعلت؟

- أنت تعرف الـ.. الذي أكلته.

- اترك يدي!

هز ساعده وحرره من يد «راسم»، لمعت شرارات في عينيه، واضمحل ذعره. قال في نفسه: «كفى.. لن يهينني أحد بعد الآن».

- احفظ لسانك.. ولا تحدثني بهذا الأسلوب مرة أخرى.. وإلا ستندم، أنا لا أزعج أحداً.. تنحّ عن طريقي!

- أهكذا؟ أنت تستطيع أن تغرد إذن؟ حسناً.. سنلتقي قريباً لنعلم وجه من سيدمى ومن سيتوسل كالكلب!

ابتعد «راسم» غضبان يتنفس من خياشيمه.. ولم يسمع صرخة (ذو الكفل) الأخيرة..

- الكلب أنت!

في هذا الموقف الصعب غمره ذلك الصوت الدافئ، والعطف الجذاب الذي يهدي ألطف صداقة، واحتضنته تلك النظرات الوديعة:

- لا تهتم!..

ومسك محمد فؤاد» ذراع (ذو الكفل) مندساً إلى إبطه وأكمل:

- هيا.. لنذهب معاً.

وتأبطه «مصطفى» من الجهة الأخرى متوجهين إلى الباب الرئيسي. كان (ذو الكفل) شارد الذهن عندما غادروا الكلية «لا أتوسم خيراً في ختام هذا الأمر».

ساروا نحو مساكن الطلبة. تساءل «مصطفى»

- ما الذي حدث؟

- أجاب (ذو الكفل):

- لا أدري - سنتصادم في النهاية لأنه جاوز الحد، لكلِ إنسان كرامة، ويخطئ إذ يظن أنه سيغلبني!

لم يفهم هذا التغيير الذي طرأ عليه.. يخاف من ظل «راسم» في لحظة.. ثم.. في لحظة أخرى يكون على استعداد لمصارعته وجهاً لوجه وحيداً.. بل يعتقد أنه سينتصر عليه! يتولد في نفسه إيمان عميق بالانتصار.. إنه (ذو الكفل).. هذا هو (ذو الكفل)! قال «محمد فؤاد»

- يجب مراعاة الاتزان.

ضحك (ذو الكفل) من شر البلية:

- الاتزان؟ أي اتزان؟ ذاك الرجل لا يراعي وزناً ولا قاعدة!

قال مصطفى:

- «ذو الكفل» صادق، «راسم» يتصرف بتفريط وإفراط.

صوت «محمد فؤاد» الدافئ غمر روحيهما فاستمعا إليه وأنصتا:

- عدم اتزان الآخرين يجب ألا يفسد اتزاننا. سنتأكد يوماً بعد يوم، ما دمنا نتصرف باتزان، أن الذين يتصرفون بغير اتزان يضمحلون ويذوبون في شرورهم. وما شمول الدين الإسلامي لحياة المسلم بكل جوانبه وفي كل الأوقات، إلا لتحقيق هذا الاتزان. والذين لا ينظمون حياتهم وفق معايير الإسلام يفقدون الاتزان، وما هذا إلا سبب لجلب آلام كثيرة الأطراف.

سأل مصطفى:

- ما الذي تعنيه من آلام كثيرة الأطراف.

- أعني ألماً لا يكتفي بجلب الضرر على صاحبه.. بل يتعدى بضرره من أقرب الناس إليه إلى أبعدهم عنه. تصور مجموع الأفراد الذين أعمالهم كلهامضرة بالآخرين! المجتمع يتحول إلى بحيرة من الآلام، في مجتمع كهذا تتوسل الآمال لتبقى في الحياة، وتطلب النجدة من كل يوم جديد يولد.

سأل (ذو الكفل) بصوت غليظ كالمستهزئ:

- أتدعي أن الحل في الإسلام.

- نعم.. في الإسلام وحده! لأن الإسلام يحقق انسجاماً لطيفاً في حياة الإنسان، فيه السعادة والتعاون، والابتعاد عن الأضرار،

والطمأنينة، وفيه أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه.

- هل هذا حكم لامفر من تنفيذه؟

- نعم.. حكم قطعي! ولا يملك المرء نفسه من التساؤل إزاء هذهِ العظمة: أي دين يمكن أن يمنح الإنسان كرامة كهذه.!

أجاب مصطفى في اعتزاز:

- الإسلام.

- الإسلام وحده

كانوا يصعدون المدرج شرقي المطعم، حين مر «راسم» مع «نالان» مسرعين قريباً منهم متغافلين عنهم، عبر (ذو الكفل) عن لسان الذئاب الثائرة في نفسه بكلمات لم يسمعها إلا صديقاه:

- كلب... وحش كريه!

قال محمد فؤاد:

- اسمع.. شتائمك في غيابه لا يفيدك بشيء. إذا كنت تريد الحصول على نتيجة سليمة وتصرف صحيح تغلب أولاً على غضبك.

قال مصطفى:

- صحيح جداً.. لا يليق بالرجولة أن تشتم شخصاً في غيابه.

- حتى لو كانت تليق بالرجولة.. لا مكان لهذا التصرف في حياة

المسلم مادام يتعارض مع الإسلام، ضاق (ذو الكفل) ذرعاً. هذان مثل «راسم وموسى»، يحاولان جذبي إلى معسكرهما، لكنهما سيرجعان بخفي حنين! ثم تأمل «مصطفى» مصطفى يتحدث عن الإسلام بعد كل أعماله؟ حول وجهه إلى «محمد فؤاد» بأداء فيه استعلاء:

- هل تدرك أنك لا تختلف عن غيرك! لا أعرف الحزب الذي تؤيده، ويقيناً أنت تحاول أن تكسبني إليه..

احتد مصطفى:

- إنه لا يدعو إلى التحزب!

أشار «محمد فؤاد» إلى مصطفى بالسكوت، وتبسم ابتسامة خفيفة:

- عزيزي.. أنا لا أهدر وقتي في التحزب.. أنا واجبي أن أبلغ الإسلام بقدر معلوماتي إلى من يجهلونه، أتحرك بقدر حركة نملة لتحبيب هذا الدين المقدس إلى النفوس، رغماً عن ذلك تظنني بحكم مسبق داعية إلى حزب ما.. لا بأس، من الصعب أن أغير حكماً مسبقاً أصدرته علي. لقد تقربت إليك لحبي إياك وعدّك صديقاً عزيزاً، وإذا أحسست أني أزعجك سأبتعد عنك كيلا أزعجك أكثر.

لم تتغير نبرة (ذو الكفل) حين قال:

- لا تمل الترديد: الإسلام، الإسلام، كأني لست مسلماً! أنا أحسن إسلاماً من كثيرين!

ولم تتغير النبرة الهادئة في صوت «محمد فؤاد» أيضاً:

- أنت مسلم ولاشك! أؤمن بهذا بكل جوارحي.. لكن كونك مسلماً لايستلزم أنك تعرف الإسلام كما يجب!

- وهل تعرف الإسلام كما يجب!

لم يجب «محمد فؤاد»، وشعر «مصطفى» بالغضب لكنه صمت، ساروا صامتين إلى أن وصلوا مساكن الطلبة. ولما دخلوا صالة الشاي أراد (ذو الكفل) الانفصال إلى الغرفة، قال «محمد فؤاد».

- (ذو الكفل) أنت تفهمني بشكل خاطئ، أنا لا أود السوء لأي إنسان.

- حتى «راسم» يقول لا يريد السوء بي!

- حسناً يا صديقي.. لنسكت على ظنك.

- أريد الصعود إلى الغرفة للنوم.

- طيب.. لا أريد إزعاجك أكثر.

- أشغلا مقعدين في الصالة، وصعد (ذو الكفل) إلى الغرفة في عجلة.. الغرفة خالية.

أنعم النظر في خزانة «مصطفى»، الخزانة مفتوحة، أخذ سكيناً من خزانته وقطع به قليلاً من الجبن وأكله في استعجال، ثم أعاد الجبن إلى العلبة، وامتد في الفراش. فجأة خطر له أنه نسي السكين في دولاب «مصطفى»، نهض من الفراش مرتبكاً وأعاد السكين إلى خزانته.

حاول أن يتخيل أشياء مختلفة لأنه يعلم أن ضميره سيعذبه إن اختلى به. فخلد بعد قليل إلى النوم.

بعد نصف ساعة تقريباً جاء «مصطفى» إلى الغرفة، ولما رأى (ذو الكفل) مكشوفاً في النوم غطاه بغطاء من أغطيته محاذراً ألا يستيقظ، ثم أقفل الخزانة وخرج من الغرفة. كان ذو الكفل قد بدأ بالشخير.



الفصل الثامن

السبت الثاني من شهر كانون الثاني (يناير):

مداخن البيوت تنفث الدخان، والأشجار تبدو جرداء.

الجو بارد.. بارد. والشوارع والأزقة جمدت رغماً عن أنه أول ثلج في الموسم، السماء ملبدة بالغيوم.

(ذو الكفل) يمشي في شارع الجمهورية. توقف أمام واجهة محل كبير لبيع مواد مختلفة. على مسافة قريبة محل للأشرطة الصوتية يبث أغاني هابطة.. أغاني مزعجة وقت العصر! تولدت فيه رغبة استطلاع المعارض والواجهات...

لحوم الدجاج الطازجة، المعلبات، الزيتون، الجبن الدسم، العسل، السجق، البيض. لب الجوز..

سال في فمه اللعاب، وأحس بالجوع «يجب أن أفحص خزانة مصطفى.. يا حسرة على الدجاج المشوي.. واللحم.. والبفتيك!»

مر بواجهة محل اللحوم. توقف عند واجهة محل للألبسة. القمصان والبلوزات والملابس والمعاطف.. الأسعار مرتفعة! صك أسنانه:

- تضخم الأسعار، متى يتوقف؟

وانقبضت أساريره.. واستمر في السير.

وصل إلى واجهة صيدلية.

أنواع من الدواء، والشامبو، ومرطبات الجلد، ولوازم التجميل، والصابون، وفرش الأسنان....

دقق في الواجهات والمعارض جيداً، ثم شهق شهقة عميقة «آه... ليتني ثري..!» توجه نحو البريد المركزي من أمام نادي الضباط.

ازدحام وصخب، على الخصوص بنات الجامعة، في ردهة المدخل رجل مشلول يتسول.

المنتظرون في صف الهاتف.. مشترو الطوابع، المرتعشون ببرد أنفاسهم في صف الحوالات، مشترو أقراص الهاتف العمومي، الواقفون في البريد لسبب مجهول، المتأملون يمنة ويسرة كالأشباح، المتسربلون بمعاطفهم وقمصانهم من البرد. الأنوف المحمرة... والخدود المشدودة والمتوسعة.. خاصة الأنوف المحمرة.. أنف (ذو الكفل) المحمر كثيراً.. وعلى أرنبته حبتان!

وقف أمام كابينة التلفون رقم (١).. ثم أنصت، يا للسمع المرهف، يسمع حتى همس الرجل.. التفت صوب الرجل.. يا للحيرة.. إنه «موسى»!

- أنا جيد حبيبتي... أشكرك.

- ...

- وكيف حالك.. هل الأمور على ما يرام؟

- ...

- هل جن جنونه؟ يا له من أحمق.

- ...

- اصبري حبيبتي.. سأفعل أي شيء لأطوعه. سنتجاوز الأزمة ولو قليلاً إذا تخلصنا منها.

-...

- لا تقلقي. سأدبر المسألة.

- ...

- أنا جيد.. جيد لا أخرج في الأمسيات، لا يمكن توقع ما قد يفعله المجانين. عليّ الحذر، قد أكون هذه اللحظة تحت المراقبة، لهذا أختصر الكلام.

-...

- حافظي على نفسك.. ولا تفكري فيّ ، لن يحدث شيء فقد اجتزت أعاصير كثيرة ومصاعب عظيمة.

- ...

- ليكن الأمر سراً!

- طيب... طيب.. سأحذر.

- ...

- لك أنت يا روحي، مع السلامة، حافظي على نفسك!

(ذو الكفل ينصت ويصارع ذاته في الوقت نفسه، لذلك لم يهتم بمغزى حديث. «موسى». «اللعنة على حياتي المليئة بالأخطاء! أنصح

الناس، دوماً بالخير والطيب والحق، وأرتكب أفدح الأخطاء هذه الفترة. يا له من موقف رهيب...

أنفر من شخصيتي، لماذا لا أكون طبيعياً كالآخرين؟ آه من الدنيا.. آه يا نالان».

ارتد إلى نفسه عند خروج موسى من الكابينة، والآن بدت الحيرة على «موسى»! أفزعه هذا اللقاء غير المنتظر، لكن (ذو الكفل) لم ينتبه إلى وضع «موسى»

- مرحباً... «موسى».

- أوووه.. مرحباً صديقي العزيز، كيف حالك؟

- حسن.. وكيف حالك أنت؟

- أنا جيد.

- هل تذهب إلى المقهى؟

- حسناً لنذهب، لم نلعب الشطرنج منذ فترة طويلة!

خرجا من البريد متشابكين.. توجها إلى مقهى «كوركم» ولعبا الشطرنج لثلاث أو أربع ساعات متوالية، كلما انطفأت سيجارة أشعلا غيرها، شربا الشاي كوباً بعد كوبٍ.. كلاهما مسروران.. بل بدا (ذو الكفل) أكثر سروراً لتغلبه على «موسى» في الشطرنج! بعد اللعب سرد (ذو الكفل) ما حدث في القاعة والشعر الذي قرأه، قال : «موسى».

- أنت داهية.. أريد أن أرى «نالان» هذه لأعرف إن كانت تليق بك.

أجاب (ذو الكفل) :

- أعط ما لقيصر لقيصر.. إنها أجمل مني!

-أجمل؟ ومنك؟ وهل أنت قبيح؟

- إن لم أكن قبيحاً... فلست جميلاً؟

- لا.. تعدِّ وتكرر بأنك غير جميل. أنت لست قبيحاً، إذا تغلبت على شعورك بالنقص، وصار عندك قليل من المال، لن تنجو فتاة من شباكك.

- أنا مفلس.. من أين المال؟

- سهل جداً!

اندهش (ذو الكفل) وأحس برائحة السياسة تفوح:

- كيف؟

يبدو «موسى» واثقاً من نفسه:

- أستطيع أن أمنحك شيئاً كل شهر من أموال جمعيتنا.

- وكيف أؤدي المقابل؟

- بغير مقابل!

برقت الأضواء في عيني (ذو الكفل):

- صحيح؟

- أنا لا أكذب.

- ولماذا تعطيني؟.

- لأني أحبك

- سلمت لي... ولكن..

- أتشك فيّ؟

- لا أشك.. ولكن..!

- لا تقل «لكن».. إن لم تصدق قم نذهب إلى البيت، قليل من المال، وشيء من الكلام يجعلك تصدقني، وسترى أني لا أريد أي مقابل. أريد أن أساعدك لأنك صديقي، هذه فلسفتنا كأيديولوجية «التعاون»، تلعثم (ذو الكفل):

- طيب.. فرحت جداً جداً.. ثق.. لا أكاد أقدر أن أصف سروري، كـ.. كنت محتاجاً فـ.. فعلاً

- هيا بنا إذن.

- لـ.. لنذهب فوراً!

دفعا ثمن الشاي وخرجا... سارا جنباً إلى جنب صامتين (ذو الكفل) يفكر: «موسى» يعطيني شيئاً ما.. وأسرق من هنا وهناك.. أقبلي يامتعة الحياة! ينسى أحدهم ساعته على المغاسل.. إذا بعت واحدة كل أسبوع أحصل على كل ما أرغب في أرضروم!

سأحصل على ما أريد.. سأري «راسم» و«نالان» ما يحذرون!»

مر رجل كهل، تذكر (ذو الكفل) وجهه. قال:

- آه، نعم... أعرفه

تساءل موسى:

- تعرف من؟

- العم الذي مر بجنبنا.

- من هو؟.. أهو قريب لك؟

- رفيق عمل، خدمنا كالعبيد ربَّ عمل، في حي (يونس أَمْرَهْ).. وجرحت يدي فتركت العمل. رجل طيب. لقد ضمد جرحي.. أحس بالاحترام إزاءه.

- لماذا؟ ما ميزته؟

- شخص عجيب، لا يعرف معنى الشر.. ضائع في دهاليز ذاته. حاولت أن أعلمه شيئاً عن الخلل الاجتماعي، لكني لا أظنه يستوعب هذه الأمور في عمره هذا، احترف العمل في البناء.. لا يتعب.. لا يشكو.. كأنه رجل آلي يحفظ عمله، لم أستطع أن أفهم كنه ذاته.

- ألهذا تحس بالاحترام إزاءه؟

- ربما...

سارا صامتين قليلاً. يضطرب في نفس (ذو الكفل) سؤال «هل يفي «موسى» بوعده؟ أعلن السؤال:

- هل تعطيني نقوداً بجد؟

دخل «موسى» في إبط (ذو الكفل) ملتصقاً بساعده، ومشبكاً يده في يده، فنفخ في أنف (ذو الكفل) ريح عطر قوي :

- سأعطيك بجد، لاسبب يدعوني إلى الكذب، لاأظنك ترفض إذا كنت تريد أن ترتاح قليلاً.. على أن تحفظ الأمر سراً.

إنها أموال جمعية كبيرة... أرسلت لسد حاجة المحتاجين.

برقت عينا (ذو الكفل) أكثر من ذي قبل، إنها فرصة ذهبية أن يحصل على نقود بلا مقابل.

- إذا كان الأمر كما تدعي..

- يا لك من شاك، سأمنح النقود لصديق آخر إن لم أمنحه لك!

انبرى (ذو الكفل)..

- لا .. امنحه إياي.. إني بحاجة إليه.

لم ينتبه إلى وميض الخبث في عيني «موسى»:

- أعرف أنك بحاجة إليه.. وإلا لم أمنحك.. سأعطيك شهرياً ثلاثة أو أربعة أضعاف المنحة الرسمية التي تستلمها، مع المنحة ستلبي احتياجاتك كلها.

- ستزيد عن حاجتي!

- ستعيش حياة محترمة!

- سأعيش حياة محترمة!

- ستذهب إلى السينما كل يوم!

فاض (ذو الكفل) فرحاً.. جاشت نفسه بتأثير النقود بلا مقابل.

- السينمات.. المسارح.. محلات الحلويات، المطاعم، الملاعب، البنات.. قطع «موسى» نشوته:

- على ذكر البنات.. التقط اللاتي لا يعملن في السياسة.. فهن يصبن بمرض القلب أسرع من غيرهن.

- لكن «نالان» تعمل في السياسة مع فئة «راسم».

أطرق «موسى» ملياً، ثم مطَّ شفتيه.

- لا يهم.. لا تتركها إن كنت ترغب فيها.. يجب ألا تندحر أمام «راسم».

أبداً.. أموت ولا أنهزم أمامه.. «نالان» ستكون لي أو لن تكون لأحد.

سأحرق مئة ألف «راسم» من أجلها.

- الحق معك.. «نالان» ليست من اللاتي يمكن تركهن.. عليك أن ترصد حركات «راسم» دائماً في الخفاء، ويجب أن يقع في مصيبة إذا تجاوز الحد.

- حتماً... وإلا سيخطف «نالان» مني.

- ماذا لو خطبها؟

- سأثقب صدره كالغربال.

- هل أنت جاد؟

- وبغير تردد!

- أمن أجل «نالان»؟

- نعم من أجل «نالان».

- صحيح.. إنها مسألة حياة أو موت. قد يرتكب المرء جريمة قتل في هذه الحال.

هزَ (ذو الكفل) رأسه:

- نعم.. قد يقتل!

صمتا.. سارا نحو «يني شهر» سأل (ذو الكفل):

- إلى بيت من نحن ذاهبان؟

- إلى بيت طبيب صديق.

- هل النقود هناك؟

تبسم «موسى» مخفياً ابتسامته:

- هناك طبعاً.

- كم بقي من الطريق؟

- شيء قليل.. ألاحظ أنك كثير الحماسة.

عبرا مؤسسة الطرق الخارجية.. وانعطفا إلى «يني شهر»، مرت

بهما سيارة شرطة المرور. ولم يتحدثا إلى أن وصلا باب البيت. «موسى» منشغل ببعض الحسابات ، و (ذو الكفل) في حوار نفسي عنيف كعادته. «موسى» ما أطيبه! ليس من السهل أن تعرف الإنسان! يوجد أناس خيار في كل فئة سياسية مهما تكن عقائدها..

أما أنا، فإنسان جيد بين المستقلين عن الفئات السياسية..

- عجيب.. لم يمنحني أحد مالاً بلا مقابل حتى الآن.. بل لم أستلم أحياناً ما أستحقه مقابل عملي.. لماذا يعطيني «موسى» بغير مقابل؟ أخشى سراً مكنوناً في الأمر! هل يريد أن يساعدني بجد؟ عليَّ أن أثق به؟ لا بد أن أثق به. الرجل يريد مساعدتي، وبالي مشغول بالشك فيه أو الوثوق فيه، أنا شاك بطبعي. لكني خائف، رغماً عن كل شيء، أشعر بنفسي منجرفاً إلى مكان ما.. لكن عليّ أن أستلم هذه النقود، لقد ضقت ذرعاً بالعمل.

أنا طيب فعلاً.. لومي الشديد لنفسي متولد من طيبتي الزائدة. لو وقع غيري في ظروفي لصار قاتلاً منذ وقت بعيد. القضايا التي تشغل بالي ليست غير أمور فرعية. فلم أرتكب عملاً يعذب ضميري.

ربما تتجاوز خسارة «مصطفى» في القمار أضعاف ما أسرق منه.. فليخسر شيئاً من أجلي.. ليتي أستطيع أن أسرق شيئاً قليلاً من النقود.. ساعة أو خاتماً! ومحمد فؤاد ينتظر دوره.. إنه يحب مساعدة الفقراء بطبعه، ووضعه المادي جيد.. إضافة إلى أنه متدين.. حتى لو عرف أني أسرقه فسيفرح لعلمه بحالي وحاجتي. نعم.. تأخذ من الذي

لا يعطي، وتعطي للذي يريد، وإذا خجلت أن تطلب ممن يعطي.. تسرقه!.. يجب أن أكون ثرياً.. يجب ألا أذوق العذاب على الأرض بعد الآن.

سحقاً للحظ!»

ولجَا من الباب. الطابق الثاني من عمارة ذات أربعة طوابق. المنظر بهر عيني (ذو الكفل). «ياالله.. فتاتان كأنهما وردتان.. ما أجملهما، سمراء وشقراء، يالحظ «موسى»! والموبيليا..! والمرآة الكبيرة بطول القامة ذات الإطار الرائع المصنوع من خشب الجوز. وهذه الفرش؟ هذه ليست شقة.. بل قصر ملكي صغير، وجوار حسان! يا للذة...!»

- اجلس هناك على الكنبة.

والتفت «موسى» إلى الفتاتين:

- «فريدة» و «ديمت» جهزا لنا قهوة.

- من هاتان الفتاتان؟

- بنتا الطبيب.

- من الطبيب.

- سبق أن حدثتك عنه.

- خفض «موسى» صوته:

- قلت يحتسي الخمر في مطعم «شن يورد».

هز (ذو الكفل) رأسه:

– نعم.. تذكرت.. هل هما طالبتان؟

في الحقيقة ليس الطبيب أباهما. إنهما من إحدى قصبات شاطئ البحر الأبيض المتوسط تعرَّفا على الطبيب بواسطة صديق.. فيما بعد، وإثر وفاة زوجة الطبيب السكير. استقرتا في بيته، كلتاهما في طريق غير سوي.. وقد رجحتا جامعة أرضروم في الامتحانات الجامعية، ولكي يعيش «موسى» معها قبل طلب الطبيب، رفيق أيديولوجيته السياسية، بالسكن في بيته، تاركاً مساكن الطلبة. يعرِّف نفسه والفتاتين كأقرباء للدكتور. والفتاتان تهتمان بالأحداث السياسية جداً وتبدوان مرتبطتان بالأيديولوجية إلى حد التضحية بكل شيء في سبيلها.

«ديمت» تهتم بالطبيب، و«فريدة» تهتم «بموسى»، أما (ذو الكفل) فقد صدق تماماً أن الطبيب أبو الفتاتين!

بعد أن سأل «موسى» إن كانتا طالبتين أجاب «موسى» فوراً:

– الشقراء في معهد التربية، والسمراء في كلية الزراعة، تمتلكان قلباً من الذهب!

– هل أنت من أقرباء الطبيب؟

– خالي من الدرجة الثانية... وفي الوقت نفسه نحن رفاق فكر..! إنه إنسان غزير الثقافة يعمل في المستشفى التطبيقي، أعصابه منهارة منذ وفاة زوجته، لذلك يعود إلى البيت متأخراً، ويحتسي الخمر كل ليلة، يبدو أنه لن يبتسم مرة أخرى حتى الموت.

– بما أنك انفصلت عن مساكن الطلبة. هل ستقيم هنا؟

- لقد انفصلت لأقيم هنا، الدكتور أصر كثيراً فلم أستطع الرفض، إني مرتاح.

ولا أنشغل بمشكلة الطعام أو الغسيل.. حتى الماء الدافئ جاهز للاستحمام!

- هل الفتاتان تخدمانك؟

- نعم.. لهما قلبان كالذهب الصافي. إنهما مرحتان جداً.

- هل أستطيع أن أزوركم متى شئت؟

- برقت أشعة وحشية في عيني «موسى»:

- متى ما شئت.. بابنا مفتوح على مصراعيه.

- إنه بيت جميل جداً.. سآتي كلما سنحت الفرصة، خاصة أن الفتاتين مرحتان.

- إنهما محبوبتان.. ستعجبان بك أيضاً.. أنا واثق!

- سأل (ذو الكفل) في شك:

- أتظن أنهما تعجبان بي حقاً؟

- انتظر، وسترى.

نهض «موسى» إلى المطبخ، فانتظر (ذو الكفل) لمدة عشر دقائق في هدوء.. سمع همسات غير واضحة، من المؤكد أن «موسى» أسرّ بشيء إلى الفتاتين، لكنه لا يخمن سر الحديث، لما عاد «موسى» كانتا معه، وقفتا أمامه، ومدت الشقراء يدها:

- مرحباً بك يا سيد (ذو الكفل).

- مرحباً..

- كيف حالك..

- أشكرك.. أشكرك جداً. أنا جيد، كيف حالك أنت؟

- أشكرك.

بعد أن رحبت السمراء أيضاً به عادتا إلى المطبخ.. ثم بعد مدة رجعتا، مع القهوة. وجلستا في الكنبات الخالية، أشار «موسى» إلى الشقراء:

هذه «فريدة» في معهد التربية - قسم الرياضيات.

ثم أشار إلى السمراء:-

- وهذه «ديمت» في كلية الزراعة - قسم النباتات الحقلية.

والتفت إلى الفتاتين:

- (ذو الكفل) من «خوراسان» في كلية الآداب - قسم الأدب التركي السنة الأولى، وهو شاعر ممتاز، ينظم شعراً رائعاً.

انتفخت أوداج (ذو الكفل)...

ولم تخف فريدة إعجابها.

- رائع.. أنا أحب الشعر كثيراً.. والشعراء أيضاً!

أردفت «ديمت»..

- وأنا أيضاً:

انبرى موسى:

- (ذو الكفل) ضيفنا هذه الليلة، أعدا طعاماً لذيذاً يتخم بطوننا.. وسنسمع شيئاً من أشعاره ساعة الشاي.

قال (ذو الكفل):

- إنني أنوي الذهاب..!

اعترض «موسى» بحركة حاجبيه وتوسيع فتحتي عينيه.

- لا.. لا يمكن.

ومال إلى أذن (ذو الكفل):

- سأعطيك الآن نقوداً كثيرة.. ثم تنام على فراشنا الوثير.. ونرحل بعد الاستيقاظ صباحاً! ستستلم بعد الآن نصف ما أعطيك الآن كل شهر.

ثلاثة أضعاف المنحة الرسمية شهرياً.. هل رضيت؟

أجاب (ذو الكفل) هامساً:

- تذكر.. بلا مقابل!

- سبق أن قلنا بلا مقابل! يا لك من شاك!

- حسناً.. حسناً.. سأمكث الليل هنا.

- جيد.. اتفقنا تماماً.

ابتعد «موسى» عن أذن (ذو الكفل):

يابنات! اجلبا عدة علب من سجائر وينستون للسيد (ذو الكفل) من الخزانة.

وصمتا. شرد (ذو الكفل) في عالمه الذاتي.

«أمثال موسى» لا تسرق خزاناتهم.. لا ضمير لمن يسرقه، هكذا ينبغي أن يكون الأغنياء محبون للخير وكرماء. ما كنت لأقترب من خزانة «موسى» لو سكن في مساكن الطلبة.. فهو يتصرف كما ينبغي بل وأكثر..»

يعيش في القصر الذي أحلم به حقيقة وواقعاً.. بين الحوريات، ونقود كثيرة، كالسادة الأكابر، أتمنى أن أسكن هذا البيت! «نالان» أو «فريدة».. ما الفرق؟

لن أضيع هذه الفرصة مهما كلف الأمر، عليَّ بمراضاة «موسى»، لأول مرة ابتسمت لي فتاة ومدت يدها إلي بإخلاص. هذا يثبت أن «ذو الكفل» قد يكون جذاباً! يالطراوة يدها.. كالحرير.

حوريات «موسى».. كأنهن أزهار..

سيكون لـ(ذو الكفل) حوريات يوماً ما.. آه.

«فريدة» و «ديمت» وردتان لم يشمهما أحد.

لقد شككت في «موسى» بلا سبب، رجل خير يحب الخير.

يا للدنيا العجيبة..

ماذا أرى.. ماذا أسمع؟

- لو امتدت الأزهار حتى شفاهيا»

انتبهت «فريدة» التي وضعت ثلاث علب من الونستون على منضدة مرمرية ثم ألقت بنفسها في الكنبة، إلى هذه الكلمات التي صدرت في همس من شفتي (ذو الكفل).. فقالت بنغمة ارستقراطية:

– هلا أعدت الكلمات؟

كرر (ذو الكفل) بصعوبة وكأنه يصحو من النوم:

– لو امتدت الأزهار حتى شفاهيا!

– يا له من شطر بيت جميل، ذو معنى غائر وجذاب.. ألا تكملة له؟

التوى (ذو الكفل) في مكانه «آه.. لو كانت له بقية!» وقال:

– لا.. لا تكملة له.. شعر من شطر واحد.

– جميل مع ذلك.

والتفتت «فريدة» إلى «ديمت»

– أليس صحيحاً يا «ديمت».

– معجزة بحق!

ترنحت نفس (ذو الكفل).. لأول مرة يقال له مديح بلا حساب، ويستقطب الإعجاب، قال «موسى»:

– السيد (ذو الكفل) يمتلك موهبة لا مثيل لها!

قالت ديمت:

– نعم، يقيناً.. إن من يعبر عن هذه المعاني الجمة في شطر واحد، يمتلك خيالاً رحباً.

تدخلت «فريدة»:

- صحيح حقاً..

أحس بغرابة في نظراتها.. فتوردت وجنتاه عندما حدق في عينيها مجيباً بأسلوب سامق الأدب:

- شكراً جـزيلاً سـيـدتي.. أنتم الـذين يرفـعـونني إلـى الذرى، لأن الإحساس بالموهبة يدل على امتلاككم للموهبة.

أجاب «موسى»:

- طبـعـاً.. نـحن نميـز الـذهب عن المعـدن الرخـيص! وأشـار إلى الفتاتين:

- وتميزان الذهب أحسن مني!

احمر وجه (ذو الكفل) تماماً... حصلت له أشياء غير متوقعة فنسي «نالان»، أثناء انشغال الفتاتين في إعداد الطعام ناول «موسى» رزمة من الأوراق النقدية لـ(ذو الكفل) فوضعه في الجيب. فرح فرحاً شديداً حتى أحسّ أنه يطير بلا أجنحة! جيبه لم يحو طول العمر مبلغاً كهذا... عيناه تبرقان!

بعد العشاء شربوا الشاي.. وتحدثوا عما هبّ ودبّ، تابعوا نشرة الأخبار والفلم في التلفزيون، (ذو الكفل) منتعش تماماً.

- يا ا ا اه.. هذه هي الراحة.. لبيك شبيك، كالبهوات..»

الدكتور لم يعد حتى الآن.. ولم يأتِ حتى ساعة إيواء (ذو الكفل) إلى الفراش.

كان على وشك الإخلاد إلى النوم حين أحس بطيف كالخيال يندس إلى الفراش.

عندما غادر البيت في اليوم التالي قال لنفسه: «لقد التقيت بتوأمي الشيطان! أنا تحت أمرك يا موسى.. لأني ذقت أشياء لم أعرف لها طعماً في حياتي، أدركت لأول مرة معنى الحياة حقيقة.. آه.. آه... ياثراء!»



الفصل التاسع

حـتى تلك الليلـة.. كـان قـد سـرق نقـوداً من خـزانة «مـصطفى»، وباع ساعة سـايكو منسية في المغاسل بثمن أكبر من النقود التي سرقها، وقد بدأ بالالتذاذ من هـذا العمل! وبتبـذير نقـود «مـوسى»، لـم يعد يعـاني أيَّ ضيق.

يوم الأحد الثالث والعشرين من كانون الثاني:

زار البـيت الكـائن في «يني شـهـر» لكنه لـم يجـد الفتـاتين. جلس مع «مـوسى» فتـرة من الزمن، ثم عـاد إلى مـسكن الطلبـة، قـرأ قصـائد من الديوان الذي أهداه إليـه «مـوسى»، ونام بعـد ذلك... الديوان ترجـمـة للشـاعر الفرنسـي «أراجون». أعـجب بقـصيدة «عـيون إيلسـا» فحـاول أن يكتب قـصـيـدة بعنوان «عـيـون نالان» ولما لـم يفلح ترك المحـاولة.. كـان طيف «فـريدة» على صـورتها في تلك الليلة ينتـصب أمـام عـينيـه على الدوام..

جفاه النوم لأيام، لما علم أن الساعة التي سـرقها لطالب لا يعرفه عن قـرب، يعمل ليسد مصاريف الدراسـة – مثله – مردداً في نفسـه: «كيف أسـرق رجـلاً في عوز!» وأخيـراً.. قـرر أن يسرق خـزانة «راسم» سـأجعله يندم على يوم ولدته أمه... سأفنيه».

حتى تلك الليلة مضى كل شيء في هدوء. ليلة الأربعـاء الأخيـرة من شـهـر كـانون الأول (ديسـمبـر)، الساعة التاسـعة مسـاءً خـرج من سـينمـا «داداش» فـسـار إلى شـارع «جـاي قـارة».. دخن سـيـجـارة ونسـتـون إلى النصف ثم رماها.

كان ينوي ركوب سيارة متوجهة إلى مسكن الطلبة، أشعل سيجارة أخرى، كان يحس بالانتعاش، وجهه محمر لخروجه من مكان دافئ إلى الجو البارد القارس، وفجأة تبعه ثلاثة رجال لم يدرك من أين برزوا... يمشون بحذاء ظهره كأنهم يريدون أن يطؤوا قدميه.. لا بد أنهم دلفوا من الزاوية. تعرّف على صوت «راسم»:

- اسألوا رجل الليل هذا إلى أين يريد الذهاب؟

أجاب الذي يبدو كالعملاق:-

- إلى أين يريد غير جهنم؟

سأل «راسم»:

- ما رأيكم في كسر عظامه قبل أن يصل إليها؟

صوتان أجاباه معاً:

- لنكسر عظامه!

أحس (ذو الكفل) بشيء ينتزع من قلبه، اختفى احمرار وجهه، كأن نهايته تقترب، تذكر «فريدة» وديمت؛ «نالان».. فلتذهب إلى الجحيم.. كل ما أعانيه بسببها» ثم لام نفسه في هذا التفكير «كلا... «نالان» لي.. ولن أتركها لراسم».

أسرع في السير كأنه يهرول.. وأولئك يتبعونه، يرتجف خوفاً وهلعاً، دخان السيجارة ينفذ في رئتيه ويذوب فيهما.. «ويلي لقد حل أجلي..

أيها الوغد «راسم».. كنت أدرك أنك ستوقعني في مصيبة.. متوحش.. إذا نجوت سأريك يوماً أسود!».

إذا وصل (البوفيه) في الزاوية... سيصل إلى موقف السيارات.. وقد تسنح عندها فرصة للنجاة.. خطوة.. خطوتان.. كأنه مغناطيس يجذب هؤلاء من خلفه! يداه جمدتا من البرد.. أنفه أحمر... خداه منملتان، وأذناه مخدرتان.

لوثوقه بملاءمة الأحذية التي اشتراها بنقود «موسى» للسير في الثلج، كان يسرع بلا حذر فوق الأرصفة الجامدة.. لكنه تزحلق فجأة وسقط أرضاً.. نظارته سقطت جانباً، أحس بجمر في قلبه.. كادت مرارته أن تنفجر ذعراً.. حاول أن يلمَّ شتاته لكنه لم يفلح.. قفز «راسم» وصديقاه فوقه فوراً كنمور متوحشة، فضربوه بغير هوادة، بلا مراعاة لرأسه وعينيه و ظهره! ولخلوِّ الشارع لم يظهر من ينجده.. حتى لو كان الشارع مزدحماً.. ليس الناس على استعداد للنجدة هذه الأيام.. مصيره لم يكن ليتغير على أي حال! انكفأ على وجهه قبل أن يجد فرصة للصراخ.. نزلت الركلات فوق رأسه بلا هوادة.. رعف أنفه رعافاً غزيراً.. أحس بآلام رهيبة، كسرات الثلج النافذة إلى فمه، ورائحة كريهة، وسيلان الدم من الأنف إلى منافذ أسنانه. أحيا في وعيه ذكرى ضرب الأولاد في الطفولة لسرقة نقوده في «قارس»، اصطدم رأسه صدمة مريعة بالرصيف بركلة قوية. سقط سنَّان من فكه في فمه، وعندما اكتوى خده بالسيجارة التي سقطت من يده أحس بخيوط الألم

في كل أجـزاء جسـمـه.. اسـتطاع أن يصـرخ: لعنكم الله يا ثعـالب!... ونزلت ركلة أخـرى فـي منتصف ظهـره.. أحس أن نَفَسَـه ينقطع، كـأن روحه صعدت إلى حلقومه. هؤلاء يضربونه وكأنهم يؤدون عملاً هادئاً.. أو واجـبـاً وطنيـاً في راحـة بال!. ضـربوا (ذو الكفل) حـتى ملّوا من الضـرب.. لم يبق في جـسـمـه مكان لم يدوسـوا عليـه بالركل، وأطلق «راسم» قهقهتان مثيرتان للغضب قائلاً: «لا تزعج «نالان» بعد الآن!» ثم ولوا مـسـرعين. رفع (ذو الكفل) رأسـه وتمتم في صـوت خـفـيض «خنازير...» اسـتفـرغ كل حـقـده، نهض بصعـوبة بالغـة، بصق سنيـه المخلوعتين مع الدم المتجمع في حلقـه.. وتشـجع مع تجمع بعض الأفـراد فصرخ:

- ثعالب... يا أبناء الـ..

الدماء تسيح في وجهه... أخرج منديلاً وغطى به أنفه، كان يتألم ألماً مـريراً، الدمـاء تملأ فـمـه من جـديد كلمـا بصق». لن أتحـمـل أن يروني هكذا في مسكن الطلبة.. لأرجع إلى «موسى».

التقط النظارة من الأرض ووضـعهـا على عينيه، وحـاول أن يمشي، سـاقـاه تحولتا إلى قطعتي حطب، فكاه تؤلمانه، خطا خطوات عـديدة، غمره غضب عارم أحال حقده على «راسم» إلى درجة مخيفة: الموت!

«سـأقتلك يا «راسم».. سـأقتلك كالكلب.. يا ابن الشيطـان»، تحـرك بدافع من الحقد الدفين في نفسه.. وبدأ بالسير وهو يعرج.

«راسم» يا ثعلب، خطفت «نالان» منـي، وسـحـقـتـي كـالجـراد، سـتندم على فـعلتك، لـم أعـد أخـافك.. إذ لـم يبق لـي شـيء أخـاف عليـه.. لقـد فعلت مـا وسعك، وحـان دوري أنـا. سـأحـيلك إلى جثة في أول فـرصـة.. سـأجعلك طعمـاً لفئـران المجاري القـذرة، أيها الكلب الأجـرب. سـأسـرق خزانتك أولاً.. سـأسلب كل ما تملك.. وبعد ذلك سـأسلخ جلدك!».

سلّب خزانة «راسم»! فكرة رائعة تشبع غريزة الانتقام فيه ولو قليلاً. لابد أن ينفـذ هـذا القـرار الذي سـبق أن أصـدره... لابد! سـأسـرق خزانته... أسلخ جلده.. أخطف «نالان» منه، فلست الآن مفلساً!»

بصق دمـاً مـلأ فـمـه، ولا زال ضـاغطاً علـى أنفـه، بمنديل بيـد، وضـاغطاً باليـد الأخـرى على مـصـدر الألم في سـاقـة اليـسـرى، وهو يواصل السيـر بسرعة. وجيبه يعلو في خوف. عبر شـارع «أرزين قـابو» باتجاه مـوقف الحـافلات في «يونجه لق»، لكنه لا يرغب في ركوب حافلة أو (تاكسي) لكي يختفي عن الأنظار، أمامه طريق طويل عليـه أن يقطعه رغم الألم. أوووف.. أطلقها من الأعماق.

«الموت أولى لمن يعيش مثل حياتي»

العيش! الحياة في تركيا التي لا تعترف فيها الفئات الرافعة لشعارات التحرير بحق الحياة لمناوئيها، وتعد الرشوة والاختلاس والسرقة..

– سـحب هذه الكلمة فوراً – والكذب، والنفـاق، والمظاهر والمسح على الأكتاف، مهارة وشطارة! هذا هو حالـي كنتيجة: مسحوق، منهدم، منهك، وحـيد، بائس ومـسكين!. كم عـدد الذين هم مـثلي، في تركيـا؟ كم عـدد

المنكوبين الذين ساروا على الطريق إلى السمو والمعالي فتكسرت أسنانهم، وسحقت كرامتهم، ورعفت أنوفهم، وامتلأت أفواههم دماً بركلات أقدام الرجال الأقزام؟ كم من الحمقى؟...»

لقد حشر نفسه مع الحمقى في حالة غضب، تحت وطأة الفشل لتزحلقه وسقوطه أرضاً، فلولا تزحلقه لأدرك سيارة وربما نجا من الضرب المبرح بالأحذية!»

عبر مؤسسة الطرق البرية، مر من زقاق يوصله إلى «يني شهر»، إحساسه بالبرد زاد من آلامه.

«اللعنة! أردت أن أتمتع في السينما لتوافر النقود.. فتقيأت متعتي! وهل تمتعت بشيء في راحة بال؟!

يقال إننا نولد لنتكامل إنسانياً... نولد صغاراً ضعفاء، ثم ننمو لنتكامل روحاً وبدناً.. وهل ثَمَّ معنى آخر لطردنا من الجنة؟ ألم نطرد لنتكامل روحياً؟». شعر في تلك اللحظة أنه لم يعد يؤمن بالجنة إيماناً كاملاً، ومن البدهي أن من نقص إيمانه بالله لا يمكن إلا أن يشك في الجنة. «إذن لماذا نتجرع كل هذا العذاب؟ لماذا تتقاتل أرواحنا التي من المفروض أن تتكامل؟ يحيكون المؤامرات بعضهم لبعض بدلاً من التكامل في حالة جماعية؟ من الذي أوصلهم إلي هذا الدرك؟ أي أنياب وحشية انغرست في قلبنا؟ لمن هذه الدنيا.. للمطرودين أم للذين طردوهم؟ من يوسخ الأرواح التي تولد طاهرة نقية؟».

أسئلة.. دائماً أسئلة.. أسئلة بلا أجوبة تحرث مخه. نفسه تحدثه بالدخول إلى مستشفى الأمراض العقلية، والبقاء فيها إلى ساعة الموت،

فـمن الأجـدر العـيش بـين المجـانين بحق، بدلاً من مكابدة الحـيـاة بين المجـانين الذين يعـتقـدون أنهم عـقـلاء! وضع المنديل في جـيبـه لتـوقف رعاف أنفه.

«لا أقدر أن أفهم.. لماذا يقوم الإنسان - رغـماً عن عقله - بأعمال شـريرة يتجنبه حتى الحيوان؟ أي شيطان مجهول يستعبد هذه العقول التي تضخ السـموم في شـرايين المجـتمع؟ البـشـر يقـتلون.. والدكـاكين تنهب، والمصـارف تسلب، والمقاهي تمشط بالرصاص، والبيـوت تنسف، والناس الأبرياء يضـربون في الشوارع.. من المسؤول عن كل ذلك؟ أمثال «راسم» وأمثال «موسى».. بيادق لمن؟ من الملك الذي ينطقون نيابة عنه؟ أما ترى أن المساكين من أمثالي هم الذين يبقون مستغلين في الوسط؟ هل يجب أن نتمسح على أعتاب ملك جبار؟ من يدفع الثمن عن القتلى وكيف؟ إنهم لا يموتون بسبب مرض معد! بل يقتلون بأياد خائنة تشد زناد فوهات ظالمة. من العفاريت التي تخطط في مصانعها مؤامرات زج أناس يعـيشـون في أرض واحدة، لهم تاريخ ودين وأصل ولسـان واحد، إلى حد صراع الموت أو الحياة فيما بينهم! أولئك يسيحون في الأرض متنعـمين على خيول أعـرافها من الذهب أو الفضة، في الوقت نفسه يـرمجـون أبناء الوطن الذين يمسكون زمامهم لتفجير المجتمع. نحن لا ننتبه كشعب إلى هذه اللعبة الدموية، لأن هدفنا الوحيد حبْكُ المؤامرات لغيرنا، من أجل ذلك لا أخوض في السياسـة.. والعجيب بعد ذلك هو تفكيري في قتل «راسم» يعني أن أكون بيدقاً أنا أيضاً، أنا على يقين أن قتل «راسم» يسر «موسى»! هيهات.. لا مفر لي من ذلك الوحش. حتى

إن لم أقتله.. سأفتح في قلبه جرحاً لا يندمل على مر السنوات، لا أملك قوة مادية... لكني أملك كرامة كالحديد.

في مجتمع مريض.. يجب أن أفعل ما يفعله الناس لكي أحمي نفسي، ينبغي أن آخذ بالحيطة والحذر، فلن أنجو حياً في المرة التالية، ولن يتركني هذا الغادر «راسم» وشأني لأني لن أترك «نالان»! من الضروري أن أحذر حتى لا أؤخذ على غرة.«آه يا «راسم» أعلم أن روحك الحقيرة قد اطمأنت لأنك ضربتني.. لقد هبطت إلى الدّرك الأسفل من الحقارة!»

في خضم الاضطراب النفسي وصل إلى باب المبنى ذي الطوابق الأربعة، وحينما ولج من الباب قال:

- كلا.. عبثاً أخدع نفسي. لن أجد في نفسي الشجاعة لقتل إنسان أبداً، لقد ولدت جباناً وسأموت جباناً!

صعد إلى الطابق الثاني؛ وضغط على زر الجرس، فتح «موسى» الباب:

- واااه.. صديقي العزيز.. ما هذا الحال؟

فريدة وديمت هرعتا إليهما حينما علما بقدوم (ذو الكفل)، اصفر وجهاهما، أخذوه إلى الداخل، سأله «موسى»:

- ما الذي حدث؟

أجاب (ذو الكفل).

- ضُربت!

- من ضربك؟ هل عرفته؟

- وهل يخفى علي؟ راسم...

فاح صوت «موسى» بالحقد:

- ذلك الكلب؟

-نعم.. ذلك الكلب، خائن، ادعى أنه صديقي زمناً!

- صديق؟ هؤلاء لايتخذ منه أخ أو صديق، يطعنون المرء من الخلف!

أحضـرت «فريدة وديمت» طسَت ماء حـار، فغسـلَ (ذو الكفل) أطرافه ووجـهـه.. فـمـه لا زال ينزف.. نظف جذور سنيـه المقلوعـتين وأنفـه، ثم نشف أطرافه. سأله «موسى»:

- كم عددهم؟

- ثلاثة..

- ماذا كنت تفعل في هذه الساعة من الليل إذ تجوب الذئاب الجائعة؟

- كنت عائداً من السينما.

وضع القطن الطبي في جذور السنَّيّن. حول «موسى» وجهه نحو فريدة:

- جهزي الحمام ليغتسل (ذو الكفل).. وجهزي فراشاً لنومه. ليرتاح، ويلم شتات عقله.

أجابت «فريدة»:

- حاضر...



لما استيقظ (ذو الكفل) صباحاً... كان وقت الدرس قد فات.. بعد الفطور ذهب إلى الكلية ولم يوضح ما حدث لأحد. حضر درس الأدب التركي في العصور الأولى».. في ذلك الوقت أحس بانتفاخ فكه.. وكانت الآلام تعصر ساقيه وأسنانه..



مرّ أسبوع، الجمعة الأولى من عام ١٩٨٠م. الثلوج الهاطلة منذ يومين متتاليين صبغت الأرجاء بالبياض.. السقوف بيضاء، الأرض بيضاء، الأشجار والجبال بيضاء.. الأغصان تحمل عناقيد من الثلج. الشوارع مزحلقة لحصول التجمد، المعاطف واللفافات والكفوف تلبس الآن بكثافة أشد، والجمد يتكاثف على أطراف الشعر والحواجب والشوارب بعد فترة وجيزة من الخروج من مكان دافئ إلى البرد.

في ذلك اليوم. استحال أنف (ذو الكفل) وأذناه إلى قطعة حمراء، ووصل جلد خديه إلى درجة التقطع، أثناء فترة التوجه من مسكن الطلبة إلى الكلية. ولحظة دخوله إلى الدرس صادف «راسم» وجهاً لوجه، أفرغ غضبه وحقده كله في نظراته... وعبر للجلوس في مكانه.

حين التقائهما نظر «راسم» في خبث وابتسم أثناء العبور.. «من المؤكد أن «نالان» عرفت بما حدث، ستضحك مستهزئة به حين تراه.. هذا كله غير مهم..

- المهم أني سأنتقم يوماً ما...»

بعد خمسين دقيقة انتهى الدرس فغادر إلى صالة الشاي، توقف عند «محمد فؤاد» في المنضدة الأولى من يسار المدخل وسأل»:

- هل وصل البريد؟

- أجاب «محمد فؤاد»

- نعم.. اجلس لتشرب الشاي.

- شكراً.. لن أشرب لأنظر إن وردت لي رسالة.

- طيب، كما تريد.

وصل إلى أدراج البريد الخشبية. نظر أولاً إلى درج حرف الذال، ثم حرف النون، تذكر رسالة الغرام التي كتبها «راسم» باسم «عائشة دوران» يكاد قلبه يطفر من مكانه، اطمأن قليلاً عندما قرأ اسم المرسل» «خالص يلكن» من هو؟

لا بد أنه قريب لها لتوافق اسم العائلة، ثم خرج من الكلية، وصعد إلى سيارة متوجهة إلى المدينة، ونزل في شارع «جاي قره»، اقتنع بضرورة قراءة الرسالة في مكان لا يعرفه أحد فيه. دخل إلى حلويات «لالَه» وجلس في أبعد منضدة.. يحس بانتعاش لطيف في كل خطوة يخطوها لأنه يستطيع الآن الجلوس في محلات الحلويات والمرطبات «أين (ذو الكفل) من محلات الحلويات؟ «ذو الكفل» الآن، غير ذاك القديم! مرموق وعزيز النفس، وشبعان! الشكر «لموسى» من كل قلبي.» طلب كيكا مع عصير فواكه، وفتح الرسالة

خط رديء لكن سهل القراءة.. قرأ:

«ابنتي العزيزة:

أحييك وأقبلك من عينيك، وأنقل تحيات أمك، تسأل: ابنتي.. روحي.. كيف صحتك؟

كيف حالك يا ابنتي؟ لا تقطعي رسائلك! فراقك يصعب على والدتك لأنها المرة الأولى التي تفارقيننا، نحن نشعر بفراقك.

أخوك «محمد» وأختاك «دنيز» و«آفاق» يسلمون عليك ويتمنون لك السلامة. أمك تقول: هل عرفت شيئاً عن خالتك في خوراسان؟ أعلمينا إن حصلت على أخبار عنها. لقد نبهتك والدتك عند مغادرتك إستانبول إلى ضرورة الاتصال بخالتك ومتابعة أخبار (ذو الكفل) وأفرحيها ياابنتي بالاستفسار من أصدقائك من أهل خوراسان.. هل لا زالوا في القرية؟ وهل (ذو الكفل) يدرس؟ ستفرح والدتك بذلك. رغم كل شيء، إنها أختها. إن أمك تنتظر الأخبار منذ رحيلك من إستانبول.

ادرسي جيداً ولا تشغلي بالك بنا.. أرسل إليك مبلغاً من النقود.

نحن نحبك.. مع التحيات

أبوك خالص»

فغر فاه دهشة.. وأعاد قراءة الرسالة مرات، يكاد قلبه يتوقف فرحاً.

يا للحيرة... الشيطان الأنثى «نالان» بنت خالتي! كم تغيرت! رغماً عن تغيرها كنت أحس أني أعرفها!.

عجيب! لقد غيروا اسم العائلة من «قايق» إلى «يلكن»، لم يسألوا عنا طيلة هذه السنوات.. قطع لصلة الرحم!

لقد مسكتك من نقطة الضعف «يا نالان».. لن تنجي من قبضتي! مدهش.. أن نكون أقرباء رغم هذا الصراع العنيف. لنر كيف تتلقى هذا الوضع!

نالان.. آه «نالان» أحبك كثيراً.. أحبك كثيراً..

حيرته هذه الطريقة من التفكير.. رغماً عنه لأول مرة يهتف في داخله أنه يحب «نالان»، لأول مرة فرح لالتقائه بها، وأحس أنه قريب منها، لأول مرة يحس بشيء يجري في قلبه، تراءت «نالان» بطيفها المبتسم أمام عينيه، لأول مرة خجل بسبب تفكيره في الزواج منها من أجل ثروتها، تولدت فيه مشاعر مغايرة، ذكر لوهلة إهانات «نالان» الموجهة إليه، ورسالتها التي أخذها بلا مبرر، وسيرهما جنباً إلى جنب متحادثين. هذه المرأة العدوة، بنت خالته! كيف سيكون أحاسيسها عندما تعرف الموضوع؟ وماذا سيكون رأيها؟

وهل يكون رأيها غير الاشمئزاز من ابن خالة مثلي؟ فلن تأخذني بالأحضان بعد هذا الصراع المرير! مع ذلك من الضروري أن تتسلم هذه الرسالة.. لتعرف من أنا..» يجب عليه أن يلصق ظرف الرسالة من جديد.. دفع الثمن وخرج، اشترى صمغاً وألصق الظرف. أكل (لحماً بعجين) في مطعم «كونش» ليسكت جوعه.. دخن سيجارة بعد الأكل، ثم خرج من المطعم متوجهاً إلى موقف السيارات.

«ألم أعتقد أن الحب خدعة؟ ألم أكن غير مؤمن بالحب؟ إذن ما هذه العواطف الجياشة بالحب منذ معرفتي أنها ابنة خالتي؟ أم أنها حب

القرابة وصلة الرحم؟ هل حصل لي شيء لا أؤمن به؟ هل الحب موجود فعلاً؟ هل أحببت «نالان» فعلاً؟

لا أشك قط أنني أحب فعلاً! لقد أحببتها منذ أيام «قارس» وغرت عليها..

أيها الحب .. لقد تأخرت في الإيمان بك.. إني أعتذر إليك.

آه «يانالان»... أحبك كثيراً كثيراً.. ولن أتركك «لراسم»... محال!»

خاض صراعاً عنيفاً مع مثل هذه الأفكار إلى أن نزل من السيارة أمام الكلية.. يكاد يطير فرحاً.. «نالان» صارت ابنة خالته!

لم يكن (ذو الكفل) مدركاً أنه يخدع نفسه. فمن المحال أن يدرك العشق امرؤ مغلق القلب إزاء أنواع الحب الحقيقي، بتأثير رسالة. إنه يخدع نفسه بهذه الأفكار لحاجته إلى الانخداع. لقد برزت الآن وسيلة أهم لحماية «نالان» من المخاطر: إنها ابنة خالته، ويحبها، وضع الرسالة في الدرج الخشبي وتوجه إلى صالة الشاي، «نالان»، مع شلة الأصدقاء يتحدثون حول مائدة قريبة من الحائط. دقات قلبه بشدة اضطرته أن يضغط بيده على صدره، جلس على منضدة خالية.. ما أكثر الأسئلة التي يوجهها إلى «نالان» في أول فرصة، شفتاه ترتعشان وأهدابه ترن من الانفعال.

«لماذا غيرتم اسم العائلة من «قايق» إلى «يلكن»؟ لِمَ لم تتصلوا بنا طيلة هذه السنوات؟ أهكذا تكون صلة الرحم؟ لا أعرف كيف امتلكتم مصنعاً بمكاسب هولندا، ولكن من الواضح كالشمس ضياع القيم والمثل التي كانت عندكم أيام «قارس»...

إذن.. ليـست لـنا أهـمـيـة عنـدكم.. لكن خـالتـي ليـست مـثلكم.. فـهي تسأل عنا ولو مرة في السنة!».

أشعل سيجارة ونستون وبدأ بالتحديق في «نالان».

«لننظر كيف تتلقين الحقيقة؟ حبيبتي.. أنت (ملك) خلقت لي.. حورية! لعلك جئت من الجنة! أخبريني.. لمن ولدتك أمك؟ لي أنا.. أليس كذلك؟ لـ (ذو الكفل)؟ أخبريني يا وحيدة قلبي.. نور عيني!، لماذا تعلقت بك في لحظة كالمجنون؟ أية قوة غامضة أثرت في روحي؟ هل تحيل هذه القوة قصري الوردي إلى حقيقة واقعة؟

آه... يا قصري الوردي.. ما أحلى تجلياتك! جعلتني ألقى «موسى» أولاً.. ثم فريدة، جعلت من «نالان» ابنة خالتي!

آه يا قصري الوردي...»

جلس «مصطفى» و«محمد فؤاد» جنبه بعد إلقاء السلام:

- وعليكم السلام.. مرحباً

- ردا سوية: ومرحباً بك..

سأل «مصطفى»

- كيف حالك (ذو الكفل)؟

- جيد... وكيف حالك؟

- أشكرك.. أنا جيد.

- سأل «محمد فؤاد»:

- هل من نبأ عن السارق؟

- لا .. الرجل محترف! يسرق الساعات، ويسلب الخزانات، ويستل الدفاتر ولا أحد يحس به! لو قبضت عليه! ضحك (ذو الكفل) في سرهِ «قبض الريح أيسر من القبض عليه يا شاطر!»

يا لك من شاطر!» ثم أكمل «مصطفى» الحديث:

- من المؤسف وجود إنسان مثل هذا بيننا، وفي مستوى طالب جامعة! لا أظنه إلا فقيراً أو أبله معقداً.

قال محمد فؤاد:

- بل فقير.. الأبله لا يحصل على القبول في الجامعة!

أجال «مصطفى» الطرف في صالة الشاي ثم صرح بفكره:

- بل من المؤكد أنه أبله! لا يخاطر عاقل مخاطرة كهذه لمجرد الفقر!

سأل «محمد فؤاد»:

- وهل يحصل أحمق على قبول في الجامعة؟

- يحصل! لأنه ليس أحمق في الأمور كلها.. بل في نقطة معينة، اعتيادي في جميع أحواله، وغير اعتيادي في نقطة محدودة، يلتذ بالسرقة والاستيلاء على ممتلكات غيره، ويظن أن هذه الحال طبيعية!

لم يكن (ذو الكفل) ليستطيع التحمل.. كاد في لحظة أن يصرخ، لست غبياً.. لكنه أمسك بزمام رغبته.. وتقنع بقناع ماكر:

- لا .. ليس غبياً، لو كان أحمق لسرق أشياء أخرى أكثر جاذبية من المواد الغذائية.

أيده محمد فؤاد:

- نعم.. صحيح، لقد ترك (الراديو) وسرق السجق من خزانتي، لو كان مريضاً يلتذ بالسرقة لأخذ (الراديو).

هز «مصطفى» رأسه:

- ربما.. بل منطقي جداً! لعل الرجل لم يذق السجق في عمره!

- لو أعلم أنه لم يأكل السجق في حياته أسامحه!

قال (ذو الكفل):

- سامحه.. سامحه.. أؤمن أن هذا المسكين لم يأكل السجق طول حياته.

- جلب النادل الشاي وقبض الثمن من (ذو الكفل).. وأخرج علبة ونستون من جيبه، مد العلبة أولاً إلى النادل ثم إلى «مصطفى»، و«محمد فؤاد» -الذي أشار بيده رافضاً- أشعل السجائر بعود كبريت... دخنوا السجائر مع الشاي.. نفساً برشفة.. رفع عينيه إلى «نالان»، مكانها خال.. نهض من فوره.

- أرجو المعذرة أصدقائي.. تذكرت شيئاً يتحتم عليَّ إنجازه.

- تفضل.

- في أمان الله..

- مع السلامة.. (أجابا معاً).

على مسافة من الباب الخارجي لحق «بنالان» كان يرتعش بتأثير الارتباك:

- لحظة من فضلك!

توقفت.. ونظرت نظرات مليئة بالحيرة:

- ماذا تريد؟

- أريد التحدث!

- التحدث عن ماذا؟

- مسألة مهمة!

- ستندم إذا أزعجتني!

- لا.. لا أقصد ذلك قطعاً.

- ما هي المسألة؟

أجاب (ذو الكفل) على السؤال بسؤال آخر:

- اسم أبيك «خالص».. أليس كذلك؟

ازدادت دهشة (نالان):

نعم.. وماذا في الأمر؟ ثم كيف تعرفت على أبي؟

- أعرف اسم أمك أيضاً! «تولاي»، واسمي أنا (ذو الكفل).. هل تذكرت؟ ابن خالتك، أتذكرين خالتك «جولاي» في «قارس»؟ يبدو أنك نسيت لقب عائلتي أيضاً!! وهل تعجز «نالان» عن التذكر؟ في تلك اللحظة تمثلت صورة (ذو الكفل) الصغير الضئيل وامتلأت حيرة، أخرجت الرسالة من جيبها ومدتها نحو (ذو الكفل):

لقد قرأتَ هذه الرسالة! استلمتُها قبل قليل، وأدركت أنها مفتوحة سابقاً!

أنت مخلوق قذر! أنت غبي، حتى لو كنت أقرب من ابن خالتي إلي. اختلاس الرسائل والاطلاع عليها ليس من التفاهة.. بل هي التفاهة نفسها. هيا... أرني ظهرك.. ولا ترني وجهك بعد الآن وإلى الأبد.

- لكنك بنت خالتي؟

- الموت أهون علي من أن أكون ابنة خالتك.. يا وجه البوم!

أصابته هذه الكلمة كالرصاص - وجه البوم! تذكر قبحه الذي نسيه منذ فترة.. اسودت الدنيا في نظره، وأصابه دوار. دفع نظارته المنحدة على الأنف في حدة، أسرعت «نالان» بالسير حتى اختفت، وقفل (ذو الكفل) راجعاً إلى «محمد فؤاد» و «مصطفى»، مسح زجاج نظارته.

لقد رفضت صلة القربى. ولت رغماً عن علمها أني ابن خالتها، تنفث الحقد بعد أن وجهت إليَّ الإهانات.

ويحك «نالان» ستدفعين ثمن هذه الغلطة غالياً..»

انتبه «محمد فؤاد» و «مصطفى» إلى حالة الشرود المسيطر عليه، سأله «مصطفى» في شك: هل حصل مكروه؟

مكروه كبير!

- ماذا حصل؟

- لا يستحق الذكر!

تدخل «محمد فؤاد»:

- اسرد همك لنشاركك!

- أنا لا همّ لي.. الهموم تشكوني!

-لم أفهم..

- لن تفهم.. المسألة بحاجة إلى قابلية استيعاب!

أدرك «مصطفى» أن حال (ذو الكفل) قد تبدل إلى الحالة المعروفة، فتدخل:

- لقد تبدلت إلى الحال الغامضة! كأنك تتحدث إلى غرباء... عد إلى رشدك!

- أنا في رشدي.. فقط أعصابي مرهقة! أحس بوقوع أحداث مزعجة مساءً كأن هاتفاً مجهولاً يهتف فيّ من الأعماق، الزلزال سيدمر كل مكان!

- هل جننت؟ أم تتكهن؟ أنت تهذي!

ضحك (ذو الكفل) مقهقهاً:

- لقد صرت عارفاً... وسألتحق بالأقطاب الأربعين قريباً.

ضحك كلاهما، وقال «محمد فؤاد»:

- بل نلتحق إلى عالم الجان قريباً!

أجاب (ذو الكفل):

- نعم، قريباً سيملأ الجان الأرض كلها، وسأكون على رأسهم.

احتد «مصطفى»

- أنت تائه جداً! يبدو أنك لم تنه العمل المهم الذي ذهبت لإنهائه.

- أنهيته من الجذور.

- ألذلك تحوم في عالم الخيال؟

- نعم لذلك!

نهض (ذو الكفل)، واستـأذن مغـادراً «الكليـة»، نظرات «مـحـمـد فـؤاد» و«مصطفى» حائرة قلقة. قال «مصطفى»:

- غريب.. في هذا الرجل خلل ما.. لكن لا أعرف أين؟ في الوقت الذي تظنه سعيداً ينقلب إلى بوتقة حزن. شخصية غامضة، لكنه ذكي جداً.

- نعم .. أنا أيضـاً لم أفـهم (ذو الكفـل). ذكي جـداً، لـكنـه لا يعـيش في سـلام مـع نفسـه، كئـيـب، متكدر، هـادئ حيناً، وثائـر حيناً آخـر، ولا أظنه يهتم بالدراسة كثيراً، يقول الشعر، يقوم بأعمال غريبة، لقد اشتغل عاملاً في التشييد فترة معينة، وسمعت أنه ضُرب في شارع الجمهورية.

- من ضربه؟

- لا أعـرف، لأنه لم يتـحـدث عن الموضـوع أبداً، سـألـت عن انتـفـاخ فكه، فـذكـر أنـه وقع، ثم ذكـر «راسـم» أن مـجـهـولين قـد ضـربوه، لقـد دهشت، فليس عضواً في أي فئة..لماذا ضربوه إذن؟

- إنه لا يهتم بالسياسة.. دعوته إلى جمعيتنا مراراً، فرفض قائلاً: لا رغبة لي بالانضمام إلى الجمعيات،

- أنا أيضـاً دعـوته إلى درسنـا مـرتين أو ثـلاثاً، قـبـل الدعـوة مـرة.. ذهبنا مسـاءً، فـرح عندمـا تنـاول أكلـة مجـانيـة، لـكنه انزعج حين الابتداء

بقراءة «رسائل النور»، فانسل من الدرس.. ولم يأت مرة أخرى. كان سيستفيد كثيراً لو صبر على الاستماع.

قال «مصطفى»:

- كان سيتفيد لو حضر إلى جمعيتنا أيضاً، على الأقل كان سينجو من الفراغ.

- أما تراه يسعى في الأعمال السرية؟

- ربما...

تبادلا الأحاديث في الهموم المشتركة، وبعدها غادرا الكلية.



غدوت لا يجتوي بلوعتي أحد
سوى هوى مهجتي شبت حرائقها
ولاأرى طارقاً يأتي فآنسه
سوى رياح الصبا، كلت طوارقها

ردد بيتي الشاعر «فضولي».. وبيتي المعارضة من شعره أثناء توجهه إلى مسكن الطلبة

لا أملك المال أو حسناً يزينني
في أمة قد تزلزلت حقائقها
ولا حبيب يحبني سوى أبوي
ثم تكرهني طُرّاً خلائقها

مخه لا يستوعب تصرف «نالان» الوحشي بعد علمها أنه ابن خالتها. نعم... لقد أخطأ ولكن هذا الخطأ ليس في الحجم الذي لا يسامح. إنه خطأ يجوز أن يرتكبه أي إنسان حسب رأيه.، قبل ذلك كان يلوم نفسه على تصرفاته المتطرفة في الخطأ التي لولاها ربما لم يحصل ما حصل من «نالان»، ثم ارتد عن هذه الفكرة مرة أخرى.

«لولا تصرفي الخاطئ في قراءة الرسالة.. لما علمت أنها بنت خالتي أبداً.. ذهل برهة.. اغرورقت عيناه بالدموع، مسح بطرف أصابعه الدموع.. لقد بكى متأثراً بذكرى أيام «قارس».

«تلك الصغيرة الجميلة التي تمشي كالقطا، وتنادي (ذو الكفل) بشفتيها الرقيقتين، أجدها الآن جنبي، كعدوة لا تختلف عن الأفعى في شيء.. لكني أحبها.. أحبها..

آه «يا نالان»... يا بنت خالتي.. «نالان» حبيبتي الصغيرة.. أتوسل إليك أن تسامحيني.. اعذريني لغلطتي، لكنك أشد مني غلظة.. استصغرتني ووصفتني بوجه البوم، احتقرتني! هل نسيت أيام (قارس) السعيدة؟ أيام كنا نأكل المثلجات معاً، ونلعب، أيام كنا نطير كالحمام؟ حينئذ لم أكن كما أنا اليوم.. لم أكن قد كابدت مشقات الحياة.. كنت حزيناً، لكن فرحي كان أكبر من حزني في الغالب. لم أكن أعاني الخوف، والقلق، والتناقض، والضيق في داخل نفسي، كنت أرعى مشاعر جياشة نحوك في مكان ما من قلبي، وأنظر إلى حدقة عينك برهبة خالصة.. وأكثر شيء أعجبت به خطواتك الهادئة الطفولية.

آه.. «يانالان»، لا أثر لتلك الأيام فيك.. أنت الآن إنسان عالم آخر.. ولئن احتفظت ببعض التفاصيل من تلك الأيام فإنها غائبة عني، باختصار أنت إنسان غير ذلك الإنسان..

أذكرك تقرئين سورة (يس) لجدتك مساءً كل خميس.. تتلين بسملة طويلة بصوتك الرفيع الحزين، وتغوصين في السطور، وتقرئين الفاتحة بعد انتهاء السورة، وتمسحين وجهك بكفيك البيضاوين، وتقبِّلين القرآن ثلاث مرات، ثم تعلقينه في المكان المخصص.. وأنا أنظر إليك في غبطة قائلاً في نفسي: «ليتني أستطيع القراءة مثلها» كنت أشعر بلغة غريبة في استماع القرآن في تلك الأيام.

آه «يا نالان».. لقد ألفت قصة بلا عنوان عن تلك الأيام، لقد صرنا أعداءً! آه.. يا عدوتي الحبيبة.

تصادقين «راسم» الرجل الذي ضربني حتى كاد أن يقتلني.. سأشعر بمسامير تغرس في قلبي كلما رأيتك معه بعد الآن..

سيرى «راسم».أي منقلب ينقلب، «راسم» الثعلب، سيهب في خزانته ريح (ذو الكفل) هذه الليلة. سيقول لك وفؤاده يتمزق ألماً: سرقوا خزانتي.. أحرقوا قلبي!» وأفرح أنا كلما تخيلت ذلك.. ثم..

ستحل ليلة أخرى، ليلة ثأر في ركن منزو خال سأُنزِل على رأسه حقدي كله.. سيلتوي على نفسه كالكلب السائب المقتول بالرصاص.. ويئن قائلاً: «من فعل هذا بي»؟! فيرتد إليه صوته المرتطم بالجدران.. «من فعل هذا بي»؟!.

يا حبيبتي «نالان»!، أعلم أنك لا تصادقينه بمحض رغبتك، حتماً يهددك، ستعودين إليَّ حبيبة وإن كنت عدوة لي في الحاضر.. نتصالح، وأنسى كل ما فات.. ويبدأ كلانا بحياة جديدة.. بعالم جديد..

آه.. يا حبيبتي.. كم تفرح أمك لدراستنا في صف واحد. ولدا أختين يجتمعان بعد فراق طويل في صف واحد، رسالة تكشف ولدَيْ خالتين كانا قد اغتربا.. ما أحلى ذلك!! أعلم أن الأمر لم يفرحك أنت قط. أعلم أن هذه الأمور لا تستأثر اهتمامك.. بل ربما أحزنك أبوك بكتابة الرسالة، لكنها حالة مؤقتة ثم ترضخين للواقع وتعودين إليّ.. هل بمقدورك إنكار القرابة بيننا؟

آه حبيبتي.. ليتنا نعود إلى «قارس» من جديد.. ليتني أسمع صوتك يناديني: (ذو الكفل)! كما في الماضي.. ليتني أرى خطواتك الوئيدة من جديد، ونأكل المثلجات ونحن نسير جنباً إلى جنب.

«آه.. آه.. آه.. يا قصر آمالي الوردي..»

وصل إلى مدخل مسكن الطلبة.. عندما اجتاز الباب همس..

«لو امتدت «نالان» إلى قلبي»

صعد إلى الغرفة وجلس على السرير في صمت، وأخذ قلماً وورقاً:

«لو امتدت «نالان» إلى قلبي

«نالان» بخطوها الوئيد

وخدها الوردي

لو رأيت النجوم في عينها

والسرو في قدِّها

لو امتدت «نالان» إلى قلبي..

في غرفة من قصري

أبوابها ذهبية

جدرانها مرمرية

وشبابيكها ياقوت».

لم يتحدث مع أحد. لم ينزل إلى الصالة لتناول الطعام. استمع إلى نشرة الأخبار ونام مبكراً... لأنه سيعمل بعد منتصف الليل..!



الفصل العاشر

ها هي ذي الليلة الصعبة..

تختلط أصـوات الشـخير بعضـهـا ببعض، نظر إلى سـاعـتـه: الثانيـة وخمس دقـائق. تمطـط، مسح وجهه بكفيه. مسح الإفراز المتجمع في عينيه. انتصب في السرير بهدوء، قلبه يدق في هياج.

«يجب المحافظة على الهدوء - سأعمل كل شيء بدقة حتى لا يمسك بي، العمليات التي قمت بها حتى الآن كانت سهلة، لأن أصدقائي لا يمكن أن يشكُّوا فيّ، فكنت أعمل في اطمئنان. أما «راسم» فلا أدري رد فعله...»

نزل من السرير ولم يحتذ النعل، لأنه سيسير حافي القدمين.. فلا ينبغي أن يصدر منه أي صوت، شرب جرعة ماء من الإناء الموضوع فوق أنابيب التدفئة، كان الماء حاراً، ردد في نفسه «حار كالدم..». دقق في الغرفة.. أصدقاؤه نائمون، خرج من الغرفة بهدوء. حين أحس أنه نسي نظارته نتيجة الانفعال، عاد إلى الغرفة ليأخذها، ثم خرج تارة أخرى، وأغلق الباب خلفه بهدوء كامل، وتوجه إلى المغاسل فغسل وجهه ويديه، وشرب من الأنابيب ماء بارداً. لقد طرد النوم من عينيه تماماً. الهدوء المطبق في الممرات أعطته شحنة من الأمان. يستطيع أن يبدأ بالعملية.

نزل إلى الطابق الأول ووقف أمام غرفة رقم (١٤). يسمع الآن دقات قلبه بشكل واضح «ها هي ذي غرفة «راسم»، أتذكر من أيام صداقتنا أنه لا يغلق باب خزانته عادة، ولن يخطر على باله إغلاق خزانته بعد أن

تضاعفت سلطته ألف ضعف. سأسلبه كل ما يملك، فأبيع ما يباع منه، وآكل ما يؤكل، وأحرق ما يتخلف في الغابات، سأعلّمه ما معنى ضرب الناس!»

فتح باب الغرفة، ما أحسن حظه! لم يصدر من الباب صرير. اندس إلى الغرفة كالشبح. الغرفة مظلمة، لكنه استطاع أن يلحظ خزانة «راسم» مفتوحةً. خطا خطوتين وتوقف.. ثم خطا خطوتين.. وتوقف، استمع إلى دقات قلبه الصاخبة. في كل غرفة يوجد من يشخر.. و«راسم» يشخر هنا.

قال في نفسه «كأنه خوار البقر..!» اقترب من الخزانة.. دقق في الأدراج يا له من رفاه... عسل، زيتون، جبن أبيض. مضرب كرة التنس، راديو، ملابس، قمصان، أحذية.. مثنى وثلاث.. يا للفرحة.. وجيوبه.. هل هي مليئة..» وبحث في جيوبه، في كل جيب شيء ما.. محفظة، هوية، مرآة، مشط.. فتح المحفظة.. أوراق نقدية كثيرة.. أغلقها.. يكاد ألا يستقر في مكانه من الفرح. وضع ما وصلت إليه يده في شنطة.. الراديو، الزيتون، العسل، الجبن، علب المخللات. ثم الملابس والقمصان وما أعجبه من الأحذية. ما عدا المأكولات سيبيع المسروقات في سوق الأشياء القديمة، أراد أن يترك الغرفة.. لكن الشيطان الأعمى تعلق بتلابيبه بقوة ودفعه إلى إلقاء نظرة أخرى في الخزانة.. لم يمتنع وألقى نظرة أخرى في الخزانة، شيء أسود بين الكتب في الدرج الأعلى.. تفحصة من قريب.. إنه آلة التصوير (كاميرا) «ينبغي أن آخذها.. هذه

أكبر خسارة يصاب بها «راسم».. آلة تصوير فاخرة! سأخرج الحقيبة من مسكن الطلبة منذ الصباح الباكر.. وأقبلي يا سعادتي..!»

مال إلى الأرض ليضع في هدوء ملابس يمسكها بيده.. لا زال في الحقيبة مكان لآلة تصوير ، حتى تلك اللحظة مضى كل شيء في هدوء تام... ولكن واه.. من تلك اللحظة! تدحرجت الكتب في ضوضاء... امتلأت الغرفة صخباً... وسقطت آلة التصوير مرتطمة بالأرض.. تكسرت زجاجته وانتثرت شظاياه في الأرجاء. انعقد لسان (ذو الكفل) هلعاً، وجمد في مكانه، قفز النائمون من أسرتهم، صرخ «راسم»:

- اهربوا.. هذا زلزال!!

بعد مفاجأة الوهلة الأولى استرد (ذو الكفل) وعيه، قذف ما في يده وقفز هارباً من الغرفة: مد أحدهم يده إلى زر المصباح، وهتف:

- ليس ثمة زلزال.. أمسك باللص!

لمح «راسم» أيضاً الشبح الهارب.. فركض خلفه للإمساك به... صعد الدرج.. لا أحد! قفل راجعاً، ودخل المغاسل، سار على رؤوس أصابعه نحو المراحيض.. وألصق أذنه على الأبواب ليسمع ما في الداخل، فطرق سمعه أصوات أنفاس لاهثة، وبالهدوء نفسه انسحب إلى غرفة غسل الملابس مقابل المراحيض تماماً.

كان (ذو الكفل) قد دخل إلى أحد المراحيض وأقفل الباب خلفه.. صدره يعلو وينخفض.. لهاثه يسمع بوضوح، يظن أنه قد نجا.. لكن الموقف على عكس ما يظن تماماً.

«اللعنة.. لقد ضاع كل شيء، أنا إنسان فاشل.. لا أنجز بنجاح أي عمل! وضعت الرسالة في جيب غير الجيب، ضربت عندما ذهبت إلى السينما مساء... وأوشكت أن يقبض علي الآن! كدت أفسد كل شيء. على أي حال سآوي إلى فراشي بعد أن يهدأ الجو وأنام إلى الظهر... كادت آلة التصوير أن تلقي بي في مأزق.»

ولما اطمأن إلى خلو المكان، خرج، أطفأ مصباح المغاسل، عندما وضع إحدى قدميه خارج المغاسل مسك به ذراع قوي - أمسكت بك يا لص!

قفز قلبه من مكانه... واحتار فيما يفعل! وقعت عيناه في عيني «راسم» قال في نفسه «أواه.. لقد ضاع كل شيء... اصفر وجهه خوفاً، تقيأ «راسم» حقده في غضب:

- هذا أنت إذن! أنت الذي تسرق الخزانات والدفاتر إذن!

رد (ذو الكفل) مرتعشاً:

- لن تستطيع أن تثبت ذلك!

- سترى إن كنت سأثبت ذلك أم لا..

جره «راسم» إلى الغرفة رقم (١٤).. وبسرعة أحاط بهما أصدقاؤه في الغرفة، سأله أحدهم

- أهذا هو اللص؟

قال «راسم»

- نعم

قال غيره:

- يا عديم الأخلاق.. لولا تدحرج الكتب ما تخلص «راسم».

مسك شخص طويل القامة. بعد أن نظر إلى (ذو الكفل) من قريب، مسكه من تلابيبه وهزه هزاً عنيفاً:

- خائن.. ألا تخجل؟ والأدهى أنك صديق «راسم»، كم مرة أفطرت عندنا، وأكلت زادنا!! تدخل «راسم»:

- اتركه.. إنه لم يعد صديقي منذ فترة طويلة.. نحن الآن أعداء.

استيقظ الطلبة في الغرف الأخرى نتيجة الصخب، فامتلأت الممرات بمرتدي ملابس النوم.. وأغلبهم رفاق «راسم» في السياسة، رغم كل جهده لم يستطع (ذو الكفل) التخلص كان يلتوي في اليأس، ويكاد أن يجنَّ عندما يفكر بأن عاقبة أمره سيسوء جداً. قال «راسم»:

- لن نتركه يعود إلى غرفته.. لنشهر به.. وليبصق الجميع في وجهه!

ثم رفع صوته وخاطب المتجمعين:

- أصدقائي.. لقد أمسكت اللص الذي يسرق الخزانات ويشغل بالكم ويقلقكم.. قبضت على الحشرة الوحشية. ها هو ذا أمامكم (ذو الكفل يشيل يورد) كلية الآداب، قسم الأدب التركي، الصف الأول من خوراسان، أمسكت به وهو يسرق خزانتي.. ويشهد على ذلك أصدقائي في الغرفة.

الوجوه التي ترتسم عليها علامات الاستفهام، تبدو غير معروفة خاصة، بعد إضافة النظرات الناعسة، إلى ملامحها، استمر «راسم»:

- هذا الرجل الذي يدعي أنه صاحب أخلاق رفيعة.. يحسب نفسه شاعراً. اللص الشاعر، سأرفعه إلى إدارة المسكن غداً، وأشهدكم عليه ليطرد من هنا.

لا نريد قذارة مثله بيننا، همهمة عالية بين المجتمعين «نعم... أنت على حق». كان المجتمعون قد كثروا. ضغطت قبضة اليأس على عنق (ذو الكفل) بقوة «ليتني مت أمس.. ولم أحقر بيد «راسم» الغادر على الملأ».

❖❖❖

شهد عليه ما يقرب من عشرين شاهداً، فصدر قرار بطرده من مسكن الطلبة بعد ثلاثة أيام، أي يوم الثلاثاء.

لا يدري ما يفعل، لا زال متخبطاً في حال الارتباك، لقد بقي وحيداً فجأة، وتركه أصدقاؤه، ومن يود أن يصادق لصاً؟! أشغل بال الطلبة والإدارة مدة طويلة، سرق الدفاتر والأقلام، وحافظات الأوراق، وسلب الدواليب، وفقد الناس ثقتهم فيه تماماً؟

أرسل المدير مستخدماً يبلغه للمثول أمامه، فأنذره بلزوم مغادرة مسكن الطلبة في أقصر مدة. صعد إلى غرفته بنظرات جامدة وخطوات حائرة، ولما رآه «مصطفى» و«أحمد القارسي»، و«نوري اليوزقاطي» في الغرفة، غادروها هم بعد أن أقفلوا الحقائب والخزانات

بالمفتاح. ألم رهيب تجمع فصار عقداً استقرت في حلقومه، أَلَمٌ يذوقه لأول مرة... هذا هو ما يسمى العزل خارج المجتمع البشري إذن!

تمثل أمامه «موسى»، قال لنفسه: سيتقبلني.. لألجأ إليه.

وضع دفاتره وكتبه، وملابس العمل، والخرقة الممزقة الأطراف التي يمسح بها أطرافه، وحاجاته الأخرى في الحقيبة العتيقة العاطلة أقفالها، ثم شدها بحبل. وألقى نظرة على الغرفة وهز رأسه، هتف هاتف في نفسه، اكسر هذه الأقفال وخذ كل ما في الخزانات!!، لكنه لم يخضع لهاتف نفسه، إذ أدرك فوراً سخافة هذا العمل.

في اللحظة التي أوشك أن يغادر الغرفة، حضر «محمد فؤاد»، فأمسك (ذو الكفل) من ساعده بشدة والحزن والانفعال باد عليه، قال:

لقد حزنت كثيراً... ليت الأمر لم يكن كما كان..

نظر إليه (ذو الكفل) نظرات حادة، وسحب ذراعه منه في عصبية:

- دعني وشأني.. أم تريد أن تلقي عليّ خطبة؟

أجاب «محمد فؤاد» بصوته الدافئ الذي يفوح حباً وحناناً:

- (ذو الكفل).. لا يجب أن تُقيّمني هكذا.. أنا صديق أحبك حقيقة.

- ليس لي أصدقاء؟

- جئت لأعينك.

غضبَ (ذو الكفل) أكثر من ذي قبل:

- من قال إني بحاجة إلى مساعدتك؟

- فكرت في..

قطع (ذو الكفل) كلام «محمد فؤاد»:

- أنا لاأهتم بما تفكر فيه! فلن تؤيد ما قمت به على كل حال!

لم يغير «محمد فؤاد» جو الصداقة:

- أخي... عدم تأييدي لما قمت به، لايعني أني لا أحبك، ولايحتم قطع يد المساعدة عنك!

- وما الذي يعني إذن؟

- إذا قبلت عرضي.. سأقطع صلتي أنا أيضاً بمسكن الطلبة، ونستأجر بيتاً معاً، فنعمل سوية في يوميْ عطلة الأسبوع، أنا دهان، نستطيع أن نعمل سوية في التشييد، نكسب قوتنا على ألا نعرقل دراستنا.

عندما سمع (ذو الكفل) بكلمة «العمل» صرخ وكأنه يتقيأ حقده:

- لا.. لن أعمل بعد الآن.. لقد وقعت في هذا الحال لأني عملت!

- أنا أيضاً عملت... العمل لا يعيب الإنسان.. بل هو ميزة سامية حسب رأيي،

- وحسب رأيي العمل حمق كبير... شخص يحتار في اختيار نوع الطعام الذي يأكله، وأخدمه كالعبيد لأكل لقمة طعام! اذهب أنت إلى

العمل أيها الصديق!

اصنع ما بدا لك.. واتركني وشأني. وإن كنت تفكر بشأن سكني فلا تقلق علي! لي مأوى أسكن فيه يجعلني أرتاح أكثر من راحتكم جميعاً..

ثم هدأ قليلاً:

- والآن - أرجوك أن تدعني وحدي وتعود إلى العالم السعيد! هذه هي الطريقة الوحيدة لمعاونتي.. وأشكرك عليها كثيراً.

لما رأى «محمد فؤاد» ذلك منه زاد حزناً عليه، وقال:

- كما تشاء.. مع ذلك إذا احتجتني في شيء فباعث إلي!

ألقى نظرة وداع حزينة في عيني (ذو الكفل) تعبر عن الصداقة والأخوة.. وخرج مغادراً..

غسل (ذو الكفل) يديه ووجهه في المغاسل، وعاد إلى الغرفة، فأخذ الحقيبة، وغادر مسكن الطلبة وسط نظرات كأنها تنغرز في قلبه. كان لونه باهتا، ما ذنب محمد فؤاد؟ لمَ آذيته وكسرت قلبه وخاطره؟ هل أنا إنسان بحق؟ أم وحش؟» ركب سيارة في الموقف ابتعدت به... لا يرى الآن إلا طيف فريدة مُتمثلاً أمام عينيه.



صار يخجل من النظر في وجوه الطلبة.. فهو يلتقط بسمعه المرهف همسهم الذي يظنون أنه لا يسمعه إذ يمرون بجانبه في الممرات المزدحمة: هذا هو اللص.. سارق الخزانات!»

حزنه كان عظيماً.. صار يدرك معنى العزل عن المجتمع، قبضة حديدية سامة لا تفتأ تضغط على قلبه.. تعذبه.

لقد التجأ إلى «موسى».. وهو الآن يعيش عنده، ولا يغادر إلا إلى «الكلية».. ومن الكلية إلى البيت...

منحه «موسى» مبلغاً جيداً من النقود ليهون عليه المصيبة، وعاب «راسم» ما استطاع العيب، «فموسى» يقول في نفسه عن (ذو الكفل):

- لقد سقط في شباكي.. ولن ينجو بسهولة!.

وظنه هذا يتوثق ويتأكد كلما توثقت عرى (ذو الكفل) بالبيت أكثر من ذي قبل.

اشترى (ذو الكفل) بالنقود التي خففت عنه المصيبة إلى حد ما، (طقم) ملابس بني اللون مخططاً وزوج حذاء. كان (الطقم) والحذاء أغلى ما اشتراه طوال عمره.

رغم كل ما حدث.. لست نادماً على ما قمت به..» هذا ما يفكر فيه (ذو الكفل)، يخفي نفسه في الزوايا والأركان كلما شاهد «نالان». يغادر القاعة فور انتهاء الدرس حتى لا يلقى أصدقاءه فيقع في موقف مخجل، ولا يمر بصالة الشاي أبداً.

يدعي أنه غير نادم، لكنه في الحقيقة ليس مرتاح الضمير، ولذلك يشعر بحزن شديد بين فترة وأخرى، وبفقدان الشهية والأرق.

مضى أسبوعان على طرده من مسكن الطلبة. كل شيء هادئ.

يقضي الليالي مع «فريدة» دائماً، ولم يواجه الدكتور الذي يعود متأخراً، ويغادر مبكراً، إلا مرة واحدة، يفرح أحياناً في سره لطرده من مسكن الطلبة، لأنه بدأ بحياة يغطي فيها احتياجاته بلا ثمن، ولم يعد يخشى الخوض في السياسة، من الأفضل أن أعيش سنة واحدة في رفاه، على أن أعيش ألف سنة في جوع وسغب ومخمصة. الحقد على «راسم» ينمو في داخله كثعبان كوبرا يصك أنيابه المسمومة. ينتظر إيقاعه في الفخ بصبر عنيد. يدخن علبتي سجائر يومياً، ولا يصغي إلى سلوان «موسى» و«فريدة» و«ديمت»، بل يعيش في صراع قاتل مع (الكوبرا)، لا يعي شيئاً من الدروس، ولا يشعر بطعم الأكل أو الشراب، أو بلذة في قضاء الوقت. لم تعد النقود تشغل باله كما في السابق، فجيوبه منتفخة بمبالغ لم يكن يحلم بها، وترك نظم الشعر أيضاً، معتقداً أن أية قصيدة عاجزة عن السمو إلى مستوى أحزانه. ثم يعود كما بدأ يغمره شعور بعدم المبالاة وبسلامة ما قام به من وجهة نظره هو، فيرتاح إزاء ضميره.

أحب «موسى» كصديق صدوق لأول مرة، فلا يصنع إنسان لإنسان معروفاً كهذا إلا الصديق الصدوق، وقد مدّ يد المساعدة في لحظة اليأس وانسداد الأبواب في وجهه، ملبياً حاجته ومانحاً إياه النقود... ومن يفعل ذلك إلا الأخلاء.. إنه يحس إزاءه بالشكر أضعافاً مضاعفة.

كلما تذكر حديثه مع «محمد فؤاد» و «مصطفى» عن اللص اشمأز من نفسه وتصارع مع ضميره، ثم أخيراً يجد نفسه محقاً، ويتشاغل بمواضيع أخرى.. لقد حدث ما حدث والأسف لا يفيد.

«آه.. نالان.. كل هذا بسببك، هلا أحببتني فتزوجنا وعشنا كالأكابر.. آه.. نالان، ترفضين أن تعامليني كابن خالتك، لكن ستندمين

يوماً ما، في هذا العالم المصاب بقحط الحب، فتقولين: «ليتني لذت إلى جرعة من حبٍّ (ذو الكفل)». وعندما تعين ما أنت فيه، لن تلوميني على الخزانات.. لن تلوميني.. لن تلوميني!..»

طاش فكره.. أينما سرح به الخيال.. يهتف «بنالان»: في النهاية «لن تلوميني..»



في ذلك المساء.. الثلاثاء الثاني والعشرين من كانون الثاني (يناير):

تمدد بعد تناول العشاء على الفراش، دخل «موسى» في ارتباك والتصق بزاوية السرير:

- هل سمعت بما حدث؟

- لم أسمع.. ماذا حدث؟

- أخبار سيئة من جانبك!

- ما هي الأخبار السيئة؟

- ستخطب «نالان» «لراسم»!

نهض (ذو الكفل) متصلباً في السرير، وانفرجت محاجر عينيه إلى غايتها.

- ما ااا ذا..؟ قلت ستخطب؟ ومع «راسم»؟ «نالان» وراسم؟ يا كلاب!

- نعم.. كلاب.. والأدهى أنهما سيتزوجان في مدة شهر واحد.

- لن يفعلا ذلك!

- سيفعلان.. وستلحس أنت كفك!

- كلا.. بعد كل استكلابه. لن أدع «نالان» لذلك الإبليس: إن رفضت أن تكون حبيبتي، فهي بنت خالتي.

اندهش «موسى»:

- أهي ابنة خالتك؟

هز (ذو الكفل) رأسه بالموافقة:

- نعم.. ابنة خالتي.. ومن واجبي أن أحميها.

فكر «موسى»، برهة ثم التمعت عيناه بالفرح: واجبك بالطبع، يجب ألا تدعها لراسم.

- لن أدعها!

- وماذا تفعل؟

- لا أدري. لكني سأمنعه حتماً. لن تكون «نالان» زوجة عدوي اللدود على مرأى مني.

- لا ينبغي أن تغمض طرفك عن استيلاء شخص آخر غيرك على من تود أن تكون لك.

- لن أدعها قط.. سأقتل «راسم» بلا تردد.

- أتقتله حقاً؟

- وكأني أقتل ثعلباً! سأذهب ظهر غد إلى الكلية وأجده حتماً.. أقطع الطويق عليه، وأطلب منه أن يترك (نالان) وشأنها لأنها ابنة خالتي.. فإن رفض سأمزق بطنه بالسكين.

- هذا هو الحل الأمثل.. وإلا سيخطف «نالان» منك!

- صحيح.. هذا هو الحل الأمثل.. ويتخلص العالم من قذارة!

- ولكن ينبغي أن لا يقبض عليك

- لن يقبض علي سأنجز المهمة كجنيّ ولن أترك أثراً خلفي.

نهض «موسى» ونظر إلى (ذو الكفل) كصديق:

- سأكون دوماً بجانبك! معك في كل مشاكلك. لأذهب إلى غرفتي فأنت بحاجة إلى النوم. بعد قليل ستحضر «فريدة».. فخذ راحتك، ولننتظر ماذا يكون غداً.

- غداً يوم الثأر.

غادر «موسى» الغرفة والفرح لا يسعه.

أشعل (ذو الكفل) سيجارة ونستون. عقله مختل، أهدابه ترف بحركة لا إرادية، إنه يفكر بشيء، لم يسبق أن فكر فيه: القتل!

«من أين إلى أين؟ سيتبرأ أبي مني إن علم بما أقوم به. وأمي؟ أمي المسكينة! ستموت هماً إن علمت أنها ربت لصاً وقاتلاً، صار يحسب نفسه قاتل «راسم» فعلا «لن يفهما أني قمت بكل هذه الأعمال مضطراً... لن يعرفا يأسي..»

دخلت «فريدة» وفي يدها كوب من الحليب... التصقت بـ (ذو الكفل) ومدت الكوب:

- هلا شربت؟

استلم (ذو الكفل) الكوب بعد أن وضع السيجارة في المنفضة:

- نعم أشرب.. خاصة من يدك، أشرب حتى السم!

- أشكرك... وجلست على مقعد، شيء محير! (ذو الكفل) الذي كان يرتبك عندما يرى فتاة، اختفى وحل محله (ذو الكفل) القوي الواثق من نفسه، المعتز بكرامته، بعد أن شرب رشفات من الحليب، سأل «فريدة» نفس السؤال الذي وجهه إلى «نالان»، سكرتيرته في «حوضباشي»!:

- أخبريني.. هل أنا رجل يمكن أن تحبه النساء؟

«فريدة» تعرف نقطة الضعف في (ذو الكفل)، لذلك دغدغت كرامته، فأجابت بصوت عذب:

- أنت إنسان كامل الأوصاف.. رجل قوي، وشاب جريء، يا عزيزي!

- لتسلمي لي يا وحيدتي!

-شرب كوب الحليب... وقد غمره بحر الانتعاش.. فإحساسه بالعظمة مصان، وجوفه دافئ! أكمل تدخين السيجارة حتى نهايتها، وملأ الساعة، ونهض إلى المغسلة. عندما عاد كان الفراش مفتوح الغطاء في انتظاره.. تمدد في الفراش قائلاً لنفسه: «غدا أعيش لنالان»، ثم استغرق في النوم. قامت «فريدة»، ونظرت إليه باستهزاء وغادرت الغرفة.



استيقظ (ذو الكفل) في الساعة الحادية عشرة من اليوم التالي..

كان «موسى» قد غادر البيت، اغتسل بالماء الدافئ، وبعد تناول الفطور، تناول سكيناً وأخفاه في وسطه تحت القميص، ثم غادر البيت.

«ويلك يا راسم»! حفرت قبرك بيديك! حذار أن ترفض تركها، وإلا ستنام في ذلك الصندوق الخشبي! ولن يعرف أحد من قتلك!».

توجه إلى الكلية، ولما دخل إلى صالة الشاي شاهد شكري - ابن بلدته - فاقترب منه:

- كيف حالك يا أخ شكري؟

- جيد ... وكيف حالك؟

- أشكرك.. هل رأيت راسم؟

- من هو راسم؟

- راسم الذي في صفنا ذو الشعر المجعد.

فكر شكري برهة وتوترت أسارير وجهه:

- ها .. أتعني ذاك؟ ألم تسمع؟

- أسمع ماذا؟

- راسم أطلق الرصاص على شخصين في منطقة الغابات، وولى هارباً!

توسعت عينا (ذو الكفل) إلى المدى...

- ماذا؟؟؟ راسم؟؟ ضرب من؟

- أحدهما يدرس في الطب.. اسمه «موسى» على ما أتذكر،

والأخرى فتاة اسمها «نالان» -تلك الفتاة الجميلة في صفكم- حسبما سمعت، راسم يحب الفتاة.. وكان يقتفي أثرها إذ علم أنها على علاقة بموسى... وقد أطلق عليهما الرصاص لما رآهما يتبادلان الحب في منطقة الغابات، «موسى» قتل، والفتاة فاقدة الوعي في مستشفى الأبحاث. أما راسم فقد هرب.

أحس (ذو الكفل) وكأنه قد أصيب في رأسه.. كل الأشياء تدور أمام عينيه. ولم يستطع إلا أن يسأل:

- هل يمكن؟؟

قال شكري:

- بلى.. قد حصل!

غادر (ذو الكفل) صالة الشاي وهو لايدري ما الذي أصابه.. يتطاير كورقة الخريف الأصفر في ريح عاصف. لا يريد أن يصدق ما سمع. وفجأة قدحت في ذهنه فكرة.. فتناسى عمداً كل ما سمعه. صعد الحافلة عائداً إلى البيت.. هذا مبلغ حبه السطحي! عندما ولج الباب لاقته «فريدة».. لم تكن «ديمت» موجودة، سألت «فريدة»:

- لماذا عدت يا حبيبي؟

أدرك (ذو الكفل) أنها لم تعرف أي شيء بعد، فقال:

- التقيت «بموسى».. وقد أرسلني لآخذ إليه نقوداً. لأن مانعاً منعه عن القدوم!!

- كم؟

- الموجود كله.. لأمر مهم.

جلبت «فريدة» النقد الموجود كله.. وضعه (ذو الكفل) رزمة فرزمة في جيوبه.. «في أمان الله».. وغادر المنزل. همس: ياللذة.. تكفيني هذه النقود سنة كاملة بلا عمل! ألقى نظرة أخيرة على البيت» لن تزورني ثانية..» وفكر «لأسأل عن «نالان» في المستشفى.. إنها ابنة خالتي مهما حصل».

صعد الباص الذاهب إلى مستشفى الأبحاث».

«موسى.. يا عديم الأخلاق يستغلني لأغراضه، يزيح كلانا فيتفرغ «لنالان» محال أن يخطر على بالي، لأني وثقت به، الكلب! سررت لمقتله. يسبغ كرمه عليَّ ليحقق آماله القذرة، يمنحني نقوداً، يرسل فريدة إلى فراشي، يسكنني في بيته.. هذا كله لغاية في نفسه.. لأقتل راسم.. فأذهب إلى السجن، وراسم إلى القبر! ويخلو الجو لهما فيعيشان حياة سعيدة!

كم أنا أحمق! كيف اقتنعت؟ من يمنح غبياً مثلي نقوداً بلا مقابل؟!

«نالان» أيتها اللعوب! ترتبطين برجلين إذن؟ لم أكن أحبك، بل أردت حمايتك لأنك ابنة خالتي..»

علم أن عملية جراحية تجري على «نالان»، فتقاسمه شعور الحزن على «نالان»، والفرح بكشف الحقيقة. كدت أن أسقط في اللعبة..» الجوع يلذعه.. ركبتاه ترتجفان بتأثير الجوع. وضع يديه في جيبه وتحسس النقود، فغمره فرح مدهش.. فجأة يمتلك نقوداً كثيرة! تمثلت أمامه صورة فريدة «مقابل هذه النقود ستجدين أمامك جثة موسى!».

«سأرسل أربعين منها إلى أبي، وأحتفظ بالباقي لنفسي لأملأ بطني الآن بما لذ وطاب! وأبدد بالسكر ما في مخي! سأسكر لأول مرة في حياتي.. ولماذا التردد؟ السكارى كلهم يبدؤون من مرة أولى!..»

دخل إلى مطعم «شن يورد» الذي يقدم الخمور أيضاً.. احتل منضدة في أقصى المطعم، أكل شاورما وسلطة وحلويات، ثم طلب خمراً.. أحضر النادل قنينة خمر، وملأ الإناء ماء، ووضع قدحاً بجانب الإناء، وسأله هل يطلب شيئاً من النقول فأجابه:

- «هات..» بأداء خشن.

نظر النادل بدهشة في وجه (ذو الكفل)، ابتعد ثم قدم جالباً النقول. (ذو الكفل) تتقاسمه عواطف الحزن والفرح والانفعال، لأنه سيسكر لأول مرة! ملأ قدحاً من غير أن يمزجه بالماء، وارتشف رشفة.. فتقلّص جلد وجهه، رشفة أخرى، لم يطرأ أي تغير عليه بالرشفات الصغيرة أغمض عينيه وأدار الكأس كلها في جوفه.. لقد مرت فترة طويلة إلى أن أنهى النقول وشرب نصف الزجاجة. بدأت حرارة غريبة تسري في جسده. العالم يبدو مظلماً، الأشياء تصغر في نظره مرة، وتكبر مرة، عيناه تقدحان شرراً، الرؤى تبدو مزدوجة.. المطعم ينقلب عاليه سافله، ترددت في رأسه أصداء صوت زجاجة سقطت من يد النادل أرضاً. فألقى عليه نظرة، الموائد والأقداح والأطباق تتراقص، خداه يلتهبان، وفجأة صرخ:

- «نالان».. حبيبتي.. أنا هنا منذ عشر ساعات... في انتظارك!

كان هدوء تام يسود المطعم.. فلما صرخ استقطب الأنظار إليه.. وسمعت همهمة من الرواد.. وتمتمات من هنا وهناك، وهزات من الرؤوس.

هرع النادل إليه، وقال هامساً في أذنه:

- سيدي.. أرجو التزام الهدوء... الرواد ينزعجون!

صرخ في وجه النادل:

- هيا ابتعد.. لن يتدخل أحد في شؤوني!

غضب النادل.. لكنه لم يبد غضبه، ورجع مخاطباً نفسه «لا يعرف كيف يشرب الـ... ثم يشرب!» شاهد (ذو الكفل) شفتي النادل تتحركان كأنه شبح، قام من المنضدة، ومشى نحوه مترنحاً، قال مهيناً:

- أي نادل أنت؟ أنت كلب!

- بل أنت كلب! لماذا تشرب السم إن كنت لا تتحمله؟

- يا ولد.. يا ابني، أنا ولدت سكراناً!!

-يبدو كذلك.. وضحك النادل في استهزاء!

- ترنح (ذو الكفل):

- ولد.. أتضحك عليَّ؟

هز النادل رأسه:

- ابتلينا والله..

- أنت البلاء ولد..

نهض الرجل الذي يبدو أنه صاحب المطعم متدخلاً:

- طيب أخي كما تشاء.. لا تزعج الرواد... ادفع الحساب وامض إلى شغلك!

- ولد... لن يطردني أحد!

فقد (ذو الكفل) السيطرة على نفسه.. كان يترنح. قال النادل الذي توجه إلى المنضدة ثم عاد:

- لقد احتسى نصف زجاجة بلا ماء.

ترك الرواد الأكل متابعين للموقف... بعضهم يضحك، وبعضهم يهز رأسه غضباً. وفجأة بدأ (ذو الكفل) يصب سيلاً من الشتائم على النادل.. لا يرد شتيمة تصل إلى لسانه! لم يطق النادل صبراً، فلطم فك (ذو الكفل) بقبضته، فطرحه أرضاً... هرع الطهاة إلى النادل فأمسكوه. صرخ (ذو الكفل):

- ولد... كيف تجرؤ على ضربي؟

خطر على باله كالخيال سكين أخفاها في وسطه.. نهض ببطء، اقترب من النادل الذي يمسك به الطهاة، حدقتا عينيه تتراقصان، فجأة أخرج السكين وغرزه في بطن النادل بلا أن يسنح لأحد فرصة التدخل.. صرخة رهيبة دوت في الآذان. هذه الحركة المفاجئة أرعبت الجميع وأدهشتهم.. توسعت عينا النادل كقعرفنجان، احتقن لونه، وتكوم في أيدي الطهاة.

اختلط الحابل بالنابل في المطعم.. أمسكوا بـ «(ذو الكفل)» من جميع الجهات أوقف صاحب المطعم سياة تاكسي، وقال:

- لا تتركوا هذا الخنزير... أخبروا مركز الشرطة.

وابتعد التاكسي بالنادل بسرعة... صرخ (ذو الكفل):

- ولد.. أنا قاتل!

انفجرت قبضة أحد الرواد في وجهه.. وأصابته ركلات وصفقات الطهاة، لكن (ذو الكفل) لم يكن يحس بشيء..

مركز الشرطة قريب. بعد قليل حضر وكيلان من الشرطة. دققوا في أرجاء المطعم، والوجوه الواجفة، والدم على الأرض. أحدهم أخذ (ذو الكفل) إلى مركز الشرطة، وظل الثاني في المطعم. قال:

- استقروا في أماكنكم.. واستمروا في تناول الطعام..

لكنْ أيٌّ من الرواد لم يشته الطعام.



الفصل الحادي عشر

«آه يادنيا.. آه.. ياعمري. لماذا صرت في هذه الحال؟ وآه ياحظي المتوحش، سنوات وأنت تمضغ روحي.. يا لروحي المسكين!»

كان قد أفاق لتوِّه من تأثير نصف زجاجة من الخمر حينما دخل الحبس، قلبه يمتلئ بحزن رهيب.. يدور في نفسه إحساس غريب بأنه سيسجن. لونه أصفر باهت. شعره مهمل، نظراته جامدة كالجليد.. يلاحظ على فكه بقعة داكنة. تبدو حدقتا عينيه غريبتين تحت نظارته، يرتدي طقماً بني اللون مخططاً، حذاؤه البني، وطقم الملابس ذو الخطوط البيضاء تظهران انسجاماً لطيفاً، لكن قدماه يشردان إلى الجانب المعوج فيهما.

القاعة المربعة، ذات الأسرة المعلقة التي يبلغ عددها عشرة، أسرَّة في الأعلى والأسفل، تسودها دكنة حتى في النهار، وتعمها القذارة، وتفوح فيها رائحة كريهة، فيها أربعة شبابيك بقضبان حديدية. على الجدران بقع سوداء. آلة «جنبش» معلقة على الجدار على يمين المدخل، وبجانبها تقويم سنوي. بين السرير الثالث والرابع فسحة فيها منضدة وعليها لعبة «الدامة»، وإناء لماء الشرب، وكوب، وراديو صغير ولعبة شطرنج: مدفأة ضخمة يلتهب فيها الحطب تستقر في وسط القاعة تماماً.. وتنعكس أضواء اللهب على الجدران.

لا يسمع في القاعة غير صوت احتراق الحطب وابتلاع الريق.. كأن المسجونين اتفقوا على الجلوس في صمت.

نهض سجين، ولمس (الراديو) ثم أعاده إلى مكانه.

لم يهتم (ذو الكفل) لأي شيء في القاعة. بعد أن أجال طرفه في المسجونين في شك، استقر في سرير فارغ. دفع نظارته إلى الخلف ولعب بغضاريف أنفه. «أهكذا يكون مصيري؟ «ذو الكفل» القاتل! لماذا احتسيت الخمر؟ أكان وقتاً مناسباً للخطأ والقتل؟..»

في الداخل (١٠ - ١٥) شخصاً، يجلسون على الأسرَّة.. ثلاث ورباع يحتسون الشاي، ويحدقون في وجه صديقهم الجديد بنظرات لا تعني شيئاً!

صرخ الرجل الضخم فيهم بصوت غليظ:

- أنت أيها الشاب.. ذاك سريري، ابحث لنفسك عن سرير آخر.

تطاير الشرر في عيني (ذو الكفل)، والتهب مخه. استحضر في ذهنه أنه يؤمر وينهى منذ طفولته كالمتسول، ويحتاج إلى ما يعطى من غيره... استحضر يأسه ووحدته وآلامه. فصدر صوته مضغوطاً تحت تأثير وضعه أيضاً:

- تكلم في أدب، لست غبياً. كنت سأغير مكاني فور ما أشعر بأنه مشغول.

- وهل أتعلم الأدب منك يا من تفوح رائحة الحليب من فمه؟ غادر مكاني في سكون وطاعة قبل أن أجعلك تغادره إرباً إربا!

عندما تأزم الموقف اقترب رجل عجوز من (ذو الكفل) بهدوء.. همس في أذنه:

- يا ولدي، من الأفضل ألا تحتك به. في عقله خلل، ولذلك صار قاتلاً، ادفع البلاء عن نفسك!

قال (ذو الكفل):

- أنا أيضاً قاتل.. لقد قتلت رجلاً.. مزقت أمعاءه بالسكين!

بح صوته، وبدا واضحاً من حاله أنه يتذكر أشياء ويعيشها من جديد، لم يستطع أن يصدر صوتاً أو يصرخ. كان يجب ألا يعاندني وأنا مشحون كقنبلة مهيأة للانفجار. ثم بدا وكأنه يريد البكاء:

- لكني لم أرد أن أقتل.. لقد اضطرني إلى القتل.

وانفجر باكياً بكاءً مراً.. قال العجوز في نفسه: «تأمل! الراجح أن عقلك أيضاً فيه خلل...» ولم يستوعب هذا التغيير المفاجئ فيه.. بذل جهداً جهيداً لتهدئة (ذو الكفل).

وجه الكلام إلى المسجونين:

- ليقم أحدكم فنأخذه إلى المغاسل ليغسل وجهه.

عندما عادوا بعد دقائق، كان (ذو الكل) مبتلاً. ناولوه منشفة لينشف بلله، وجلس في سرير آخر.. بعدما تأكد أن السرير خال أخرج ملابسه وحذاءه، ثم تمدد ولف نفسه بالغطاء، وغرق في النوم وهو يتأمل في سقف السجن الملطخ بالبقع السوداء بنظرات بلهاء.

استيقظ بعد ساعة على صوت قهقهات السجناء.. كان الرجل الضخم يلقي النكات والآخرون يضحكون في سعادة. رجلان يلعبان

الشطرنج في زاوية.. فتمثل أمامه «موسى»، زميله الدائم في الشطرنج. بحث عن الرجل العجوز بطرف عينه. فرآه يدخن جالساً فوق السرير. تقدم نحوه:

– هل حل المساء؟

– أي مساء؟ لازلنا في النهار! يبدو أنك نسيت الزمن. كنت تحدث نفسك في النوم، لكني لم أفهم ما قلت. اجلس واسرد لي. لماذا قتلت؟

قال (ذو الكفل):

– سأخبرك غداً

– لقد احتفظت بوجبتك.. هل تريد أن تأكل؟

أشبع بطنه بالطعام البارد. قال في نفسه «طعام السجن لا بأس بهِ..»

غسل يديه وعاد للتمدد على سريره، تركزت نظراته في نقطة محددة. بدأ يتجول في المناظر المرعبة لعالمه الذاتي. لا يسمع في القاعة إلا صوت الحطب المحترق في المدفأة.

فاقدة وعيها.. حبيبتي فاقدة وعيها.

أيتها الدنيا القذرة.. سحقتني في النهاية، فقدت «نالان» وصرت قاتلاً!

آه.. يا قصر أحلامي الوردي.. لقد تحولت إلى سجن قذر.»

سعل مرات لانسداد حلقومه.. يتقلب على جنبه اليمين ثم اليسار واستقر في النوم على ظهره أخيراً.

«لماذا ولدنا؟ لماذا نعيش في مثل هذه الدنيا التي تعذبنا وتسحقنا

وتخدعنا؟ الحزن قدرنا المكتوب، نتزحزح إلى حافة الجنون ونحن نطارد السعادة.. السعادة خرَافة! لم أعد أثق بأحد.. حتى بنفسي! لا مخلوق يمكن أن أسميه صديقاً، فأبتسمَ له وأفتحَ له قلبي وأثق به.

الحل الأمثل هو الموت. هل أنتحر؟ سأنجو من العذاب نهائياً، ولن يزعجني أحد. لأفلت من يأسي في لحظة بدلاً من الذبول سنوات بين الجدران الأربعة هذه. ستبدد غيوم عمري المرعبة.. وأدفن في الصمت.. الصمت لا يعذب، ولا يشقي المرء، وبهذه الوسيلة أتخلص من القبح وعدم الوسامة أيضاً.

آه.. أيتها السعادة! لماذا استأثرت باهتمامي إلى هذا الحد؟ لماذا بحثت عنك سنوات؟ أنت غير موجودة في الدنيا.. ولن توجدي. لا يمكن شراؤك بالجمال أو المال. لست موجودة أصلاً كي تشتَرَيْ بالمال! «نالان» جميلة وثرية. وكذلك «موسى».. لماذا لم يسعدا؟ لأنهما بحثا عن شيء غير موجود..

هل هناك في الكون عالم آخر لا يتعرض الإنسان فيه إلى الظلم، ويسعد حقيقة؟ أين؟؟..

نفسه تغلي وتفور من الداخل.. يشب فيها لهيب يعجز عن إطفائه.. مهيأ للثورة كالبركان..

«ما دمنا نملك حق الحياة.. لماذا لا تبتسم وجوهنا؟ أم أننا لا نصنع شيئاً لتبتسم وجوهنا؟ وما معنى الصبر؟ أهو تحمل كل مصيبة تحل بنا؟ بماذا نختلف عن قطعة حجر في هذا الحال؟ الحجر يتحمل كل شيء

من غير أن ينبس ببنت شفة! لو ولدت في الدنيا من جديد سأقاوم كل الأخطاء. الإنسانية في بحر هائج، في سفينة بلا دفة، تبحث عن ميناء! وما يجري كله خطأ. وأنا عدو الأخطاء». فكر في نفسه، والأحداث التي مرت به أثناء السنة السابقة.

تجعدت أسارير وجهه وتقلصت فتحة عينيه وتجمعت قطرات من العرق البارد فوق جبينه.

«وأنا؟ أنا الذي أقنع نفسي بقوة أني على حق بحجج واهية، ورغم كل أخطائي! هل أنا عدو نفسي مع هذه الشرور القبيحة؟...»

كان محتقناً بأفكاره إلى درجة أن صوته رن في آذان المساجين:

- أنا عدو نفسي! أشئمز من نفسي

أجاب الرجل الضخم من مكانه:

- حافظ على وقارك.. أتظن أننا في ساحة بيع الدواب؟

اختلطت القهقهات ببعضها.. صدر كلام من هنا وهناك، لكن (ذو الكفل) لم يسمع شيئاً. كان منشغلاً بمصارعة الأمواج الوحشية لطوفان التأثر في نفسه، يشد شعره، يضغط على أنفه كعادته إلى اليمين وإلى اليسار، فتسمع الأصوات الصادرة من غضاريفه، يقرص خديه حتى الألم، يمد رجليه تارة ويسحبها أخرى. القلق والضيق واليأس والضجر من الحياة، والانهيار والحزن واضح في كل حركاته.

ليس طبيعياً.. سعل سعالاً متقطعاً. السجناء أدركوا وضعه غير الطبيعي. فصاروا لا يتقربون منه، ما عدا الرجل العجوز.

سعل (ذو الكفل) سعالاً متقطعاً مرة أخرى، ثم تلفظ بكلمات لا تعني شيئاً وحدها:

- المدرسة، أبي، الشعر، مسكن الطلبة، فريدة، الكلية، نالان... لعل التغير الذي طرأ عليه أقلق الرجل العجوز حتى جعله يدنو منه. (ذو الكفل) مغمض العينين:

- هل أنت مريض يا ولدي؟

نظر إلى وجه (ذو الكفل) برهة قصيرة.. لم يتلق جواباً.. عدل غطاءه وعاد إلى مكانه.

واستمر (ذو الكفل) في همهمة الكلمات:

- الموت، الخمر، النادل، «نالان»..

اختلطت الهمسات بالقهقهات.. لم يبدِ أيَّ اهتمام، واستمر:

- العمر .. الرصاص، راسم، السكين، اللعوب، «موسى»، «فريدة» القصر الوردي، «نالان»..

انفتح باب القاعة، الحراس جلبوا سجيناً جديداً طفرت عيناه من محجريهما. هذا الرجل ذو العينين الحالمتين، المجعد الشعر، ليس سوى «راسم»! تقدم هذا الرجل إلى وسط القاعة.

ولما ألقى نظرة على ما حوله، تعلقت عيناه بـ (ذو الكفل).. حدق فيه بدقة، ومطّ شفتيه، ودنا منه بهدوء. انفرجت شفتاه بابتسامة خفيفة مستهزئة:

-ذو الكفل!؟

- تردد أصداء هذا الصوت الذي يعرفه (ذو الكفل) في مخه «ذو الكفل.. ذو الكفل.. ذو الكفل..» نزلت المطارق على جمجمته.. توسعت عيناه بشدة وتسمرت في عيني الرجل الذي يواجهه، قال راسم:

- أووه.. أنت أيضاً هنا؟ لا أظنك ارتكبت جريمة تليق بالرجال! هل قبض عليك وأنت تسرق؟

أحس (ذو الكفل) بجسمه يرتعش، أجاب في حقد:

- قتلت رجلاً!

أطلق راسم قهقهة.

- قتلت رجلاً.. لن أصدق أبداً! أنت تخاف من الدجاج! وليست لك قضية تدافع عنها لتمنحك الجرأة! القتل يتطلب رجلاً شجاعاً. ربما علمت: لقد أرسلت خنزيرين إلى الجحيم من أجل قضيتي. لست نادماً، ولن أندم.. لقد فعلت كل شيء من أجل فكرتي السامية. دققت الرصاص في جسميهما كما يدق المسمار، وآمل أن يموت كلاهما.. ومن ينجو من رصاصي؟! عندما أقول أنا قتلت: فهذا صحيح.. أما أنت! فلا أصدق!

كل كلمة أثرت في أعماقه بشدة.. صرخ في غضب:

- قلت لك: قتلت رجلاً!

بدا «راسم» ساخراً أكثر من ذي قبل:

- قتلته بغير عمد! لأنك جبان.

لم يطق (ذو الكفل) صبراً. توتر كالنمر المتهيئ للقفز على فريسته. قفز بحركة سريعة من السرير وأمسك بعنق «راسم» سقط «راسم» أرضاً وقد شده بما حدث، ضغط (ذو الكفل) على عنقه بكل قوته:

- لست جباناً.. لست جباناً.. يا غادر..ياكلب.. سأقتلك الآن.. كل ما جرى كان بسببك.. أنت السبب.. أنت..

لولا تدخل السجناء لخنقه حقاً. كأنه جن، اللعاب يسيل من فمه ، ما إن تخلص «راسم» من يده حتى ألقى بنفسه على سرير خال متحيراً من قوته غير المتوقعة :

- عجيب... هذا ليس (ذو الكفل) الذي أعرفه!

مدَّد الرجل العجوز (ذو الكفل) في فراشه، ومسح اللعاب من فمه وفكه بالمنديل:

- أنت مريض يا ولدي.. نم الآن، واعرض نفسك على طبيب السجن غداً.

صرخ (ذو الكفل):

- لست مريضاً.. لست جباناً.. لقد قتلت رجلاً.

- طبعاً لست جباناً.. وكلنا نعلم أنك قتلت رجلاً.

- لكن لم أكن أريد قتله.. لم أكن أريد..

هز العجوز رأسه وعاد إلى مكانه، تصلب (ذو الكفل) كالتمثال مدة من الزمن مركزاً عينيه في السقف ناسياً أين هو؟ ثم أطلق حسرة أوووف..» وتموجت شفتاه بالحزن: ردد مع نفسه:

غدوت لا يجتوي بلوعتي أحد
سوى جوى مهجتي شبت حرائقها
ولا أرى طارقاً بابي فآنسه
سوى رياح الصبا كلت طوارقها

دفع غضروف أنفه إلى اليمن واليسار وسعل سعالاً متقطعاً، قال:

- آه.. يادنيا.. آه يا أيامي.!

أغمض جفنيه وبدأ بمصارعة التصورات الرهيبة. التوى فيه الألم.. لأحداث تمر به واحداً فواحداً. والزمن يقترب رويداً إلى المساء ..

هدأت أصوات احتراق الحطب في المدفأة، الراديو يبث الأغاني التركية الكلاسيكية. إثر فترة وجيزة استعاد السجن جو المرح الاعتيادي. كانوا يظنون أن (ذو الكفل) نائم لكنه في الحقيقة مغمض العينين فقط.

البرد القارص يجمد الأشياء في الخارج، والريح لا يفتأ يصفر.. ولا يمل من الاصطدام بقضبان الشبابيك الحديدية.

ينبعث حزن في قلب «راسم» كلما تأمل القاعة التي تبدو كعلبة مغلقة

قذرة في التراب، ويتألم من الأعماق لوقوعه في هذا المكان.. ويخشى ألا يدعمه أصدقاء قضيته. فيصعد خشبة الإعدام. يخاطب نفسه «لقد حفرت قبري بيدي..» فيمتلئ حزناً كلما تأمل القاعة.

السجناء القدامى تعودوا على هذا الجو المحزن. القاعة صارت حلبة أفراح بالنسبة إليهم.

❖❖❖

«آه يا دنيا.. آه يا أيامي!..» قالها عندما أغمض جفنيه.. لكنه لم ينعس حتى منتصف الليل. نفسه تدفعه إلى مهاجمة «راسم» كرَّة أخرى» بسببه.. ذبلت الأزهار، بسببه.. لم تمتد حتى شفاهي»

لم يذق طعم النوم ثانية واحدة إلى الصباح.. زلزلته الرهبة والرعشات والتقلبات الداخلية. أنصت إلى الشخير. فكر في «نالان» قال في نفسه: قد تموت.. وأنا؟ ميت في الحياة!..

أيها الجسم الذي يشبه زجاجة السائل المغذي في المستشفيات.. ها أنت على وشك النفاد.. تمنح القطرات الأخيرة من السيروم. الضربة الكبرى أصابت؛ من «موسى» خدع الغادر. استغلك لأغراضه الخبيثة. لولا أنه قتل لصار من واجبي أن أنظف الأرض منه..»

عندما حل الصباح.. غسل وجهه ويديه، ونظر إلى التقويم في الجدار:

الخميس - الرابع والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠م:

خيم الصمت على القاعة المرحة بعد نهوضه. السجناء يتابعونه بنظرات مشدوهة. تناول ربع رغيف كبير مع حبات زيتون، ثم تمدد في

الفراش وظل هادئاً حتى الظهر، متأملاً السقف. لم يسمع ما يقال وما يبث من الراديو الصغير.. وحيداً اختلى بذاته، يصارع دوّامة رهيبة وقع فيها.

«ينبغي قتل البشر جميعاً. ينبغي إيقاف القلوب واحداً فواحداً.. ينبغي تمزيق الأدمغة!

الدنيا تغرق.. ولن ينقذها أحد.

ينبغي صلب الأغنياء.. وسلخ جلد الفقراء.

الأغنياء لا أُباليُّون .. والفقراء كسالى.

لن تتحقق العدالة الاجتماعية أبداً..

ينبغي سحق الأزهار.. وتخريب الحدائق، فلا مكان لها في الدنيا!

دائماً طغاة ومسحوقون.. طغاة ومسحوقون!

لماذا تشرق الشمس إذن؟ لماذا يضيء القمر في الظلمات؟ أيستحق ذلك هؤلاء البشر المتلطخون بالقذارة؟».

كان فمه يغلي بالأسئلة. كل ذئب من ذئاب الحقد تحوَّل إلى سؤال.. يختنق بالأسئلة التي لا جواب عنها.. بل لا يسعى في إيجاد جواب عنها!

في الساعة الواحدة بعد الظهر، بدأ الراديو يبث نشرة الأخبار. أنصت إلى خبر جعله يجن:

«أمس في أرضروم أطلق الرصاص على شخصين توفي منهما، «موسى دمير» في موقع الحادث. أما الضحية الأخرى «نالان يلكن» فقد

فارقت الحياة في المستشفى هذا اليوم. وفي اليوم نفسه فقد شخص حياته في مطعم نتيجة اعتداء بالسكين من قبل سكير..»

.. ولم يسمع بقية الخبر.. سد أذنيه، مخه يصدر صوت طنين، جسده يرتعش. «سحقاً.. لا معنى للوجود، الوجود خدعة. الدنيا جحيم والناس زبانية! لقد أجبروني على القتل. سيتبرأ أبي مني (وتمثلت صورة أبيه وأمه) وستحرم أمي حليبها عليَّ (وحلت صورة أمه الآن أمامه باكية). لا أريد العيش بعد.. لا أريد العيش!».

انتصب واقفاً على قدميه فجأة، تكاد حدقتاه أن تطفرا، شعره منفوش كالشوك.

«ذو الكفل» هذا، ليس الذي نعرفه.. أجال نظرة في القاعة واقترب من المدفأة ففتح شباك إلقاء الحطب.. أخرج محفظته وهويته الجامعية والمشط والمرآة من جيوبه فألقاها في النار.. واستمع إلى صوت احتراقها.. أغلق شباك المدفأة. نزع الساعة من معصمه وطحنها تحت قدميه... وتأكد من سحق القطع المتناثرة.. الواقفون ينظرون إليه في شده وصمت. كلهم في حيرة. نظر إلى «راسم» المستغرق في النوم على السرير، قفز عليه كالفهد.. وخاضا في صراع.. شيء ما حدث لـ«ذو الكفل» - لم يكن طبيعياً. تدخل بعض الموقوفين ففرقوهما.. قال راسم بعصبية:

- ماذا جرى لهذا؟ هل جن؟

أجاب (ذو الكفل) صارخاً.

- نعم جننت.. سأشرب دمك.. كلب.. كلب!

أراد أن يهاجم مرة أخرى لكن الرجل الضخم أمسكه من ذراعيه بقوة.

- أيها الكلب المستكلب.. يا كلاب.. كلاب.. كلكم كلاب - كلكم نفعيون!

سد الرجل الضخم بيده فم (ذو الكفل) قائلاً:

- هذا الرجل قد جن فعلاً!

حاول (ذو الكفل) التخلص، ولم يفلح.. ذراعا الرجل قويتان جداً.. كرر مع نفسه سيلاً من الشتائم القذرة، حدقتا عينيه تدوران كالكرة، الرجل العجوز تابع ما حدث في حزن عميق.. خرج من القاعة.. ليعود بعد مدة مع حارسين.. أخذا (ذو الكفل) إلى مستوصف السجن، ومن هناك إلى المستشفى النموذجي- عيادة الأمراض النفسية.

مع مضي الزمن زادت حركاته غير الاعتيادية.. يتكلم عن كل ما يتبادر إلى ذهنه، يخرج لسانه، يبصق نحو السماء، وأحياناً يلكم الحائط بقبضته إلى أن تدمى. أعطوه أدوية مسكنة مرة أو مرتين، لكنها لم تنفعه. قرر الأطباء أنه فقد اتزانه العقلي. حتى «راسم» حزن في خلجات نفسه لجنونه.

دامت الحال معه أسبوعاً.. ثم ساء الوضع أكثر.. بدأ يظن أنه غني متزوج «بنالان»، يملك قصراً وردياً، وخدماً..

حسب النظام وبموجب تقرير المستشفى النموذجي، أحيل إلى

مستشفى الأمراض العقلية في مدينة (العزيز). بعثوا برقية إلى عنوان عائلته للحضور. في اليوم التالي حضر أبوه على عجل.

«ذو الكفل» لم يعد يتعرف على أحد، ينظر إلى وجه أبيه ببلاهة، ويخرج له لسانه ويضحك. بدت الحيرة على وجه أبيه، ولم يستطع أن يسيطر على دموعه. في عصر ذلك اليوم سيق بسيارة باص من كراج النقل بمرافقة حارسين مكبلاً بالحديد، وأبوه منزوٍ في ركن يذرف دموعاً سخية يتفطر لها قلب كل من يراه.

«محمد فؤاد» كان هناك أيضاً..

أثناء حركة الباص نظر (ذو الكفل) نظراته الأخيرة إلى أبيه، وأخرج لسانه له، وبصق في الفضاء ثم أدار ظهره إليه .. بعد قليل اختفت السيارة عن الأنظار..

تسمَّر أبوه أمداً في مكانه وهو يبكي. استطاع أن يتلفظ بكلمات «ستموت أمك هماً إذا علمت بحالك» يبكي في داخله دماً بدل الدموع..

ابتعد عن المكان بخطوات متعثرة، فلما بلغ مكاناً خالياً من الناس بكى بكاءً مراً.

ثم ابتعد والانفعالات النفسية تعصف به.

كان «محمد فؤاد» يتابع الرجل من مسافة قريبة.

❖❖❖

في منعطف طريق الجامعة اقترب «محمد فؤاد» من الرجل وسلم عليه.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام يا ولدي.

- هل أنت والد (ذو الكفل)؟.

- نعم أنا أبوه..

رجل منكمش الوجه، ضخم الأنف، على رأسه قبعة متسخة، متوسط القامة، لحيته بيضاء كذلك شاربه، أسنانه صفراء، أعرج. سارا جنباً إلى جنب، قطع الرجل الصمت:

- هل أنت صديق (ذو الكفل):

هز «محمد فؤاد» رأسه بالإيجاب:

- أنا صديقه، كنت أحبه، بعد أن سمعت بما جرى سألت عنه في الحبس، فأخبروني أنه على وشك الترحيل إلى «العزيز» فهرعت إلى كراج النقل. ولقد توقعت أنك أبوه فتبعتك لأتحدث إليك..

بلع الرجل ريقه وسرد آلام قلبه:

- أنا وأمه نحبه أكثر من عيوننا، إنه ولدنا الوحيد. ماذا حل به؟ لا أدري! كان يدرس وتحدوه آمال كبيرة.. كان يردد بأنه سيدرس مهما كلف الأمر ليخلصنا!

تذكر «محمد فؤاد» الأحداث التي جرت مع (ذو الكفل)... واستحضر سبب طرده من مسكن الطلبة، فقال:

- يا عم.. في الحقيقة أن (ذو الكفل) كان يريد أن يفعل شيئاً.. لكن الظروف التي نحن فيها دفعته إلى الطريق الخاطئ. أتحسس أحزانك، وضعكم صعب جداً.. ولكن ينبغي أن تحمد الله.. هناك من هم في وضع أسوأ.. تسمع ولا شك بالاغتيالات في وضح النهار، والذين يلفظهم الصراع بعاهات مستديمة، والمقتولين تحت التعذيب الوحشي. (ذو الكفل) قتل بغير إرادة لأنه سكران، ولم يكن ليقتل وهو في وعيه. أنا أؤمن بأنه سيتحسن في المستشفى، ويعود إليكم سليماً معافى، ويتفهم وضعه وأسباب بلوغه إلى هذه النقطة ليبدأ حياة جديدة، لقد ارتكب بعض الأخطاء، لكنه لم يعِ أنها أخطاء. لم يتمالك الرجل دموعه، خرجت كلمات ممزوجة بالنشيج:

- كنت أريد الخير له.. لم أكن أرغب أن أراه يحمل السلال على ظهره، لذلك جعلته يدرس وأنا أقاسي المر، كنت مستعداً لأبيع كل شيء أملكه ليدرس، أعلم أن ظروف دراسته لم تكن مريحة مثل أصدقائه، ولكن.. ألم يكن خيراً له أن يصبر قليلاً حتى ينهي الجامعة؟

لم يصبر! وقضى الجزع عليه أخيراً.. لما زار القرية كرر مراراً أنه سيدرس ويخلصنا.. نصحته بالصبر والاهتمام بالدراسة. لم يسمع نصحي إذن.. وانشغل بأمور أخرى، وعاشر أصدقاء السوء.. ثم صار قاتلاً! والأدهى من ذلك جنونه! كيف أبلغ أمه بهذا الخبر الأليم؟

تألَّم «محمد فؤاد» في داخله.. وحارت الكلمات في فمه: فحال الرجل يورث ألماً مريراً. كان قلبه يذوب.. ويذوب.. فيسيل من عينيه دموعاً. سارا برهة صامتين، ثم قال محمد فؤاد:

- يا عم.. هل نتناول شيئاً في مطعم؟

- أشكرك يا بني.. لا أشتهي أي طعام، سأذهب إلى كراج «خوراسان» لأسال عن موعد حركة السيارات. في نيتي العودة إلى «خوراسان» بعد صلاة العصر.. أملك بعض الأغنام، سأبيع رأسين وأنتقل إلى مدينة (العزيز) مع والدة (ذو الكفل)، فلن أتركه وحيداً هناك.

- ليس وحيداً هناك.. سيرعاه المسؤولون!

- مع ذلك.. سأنتقل إلى هناك،. إنه ولدي الوحيد.. ماذا يبقى لي إذا فقدته.. خاصة وأنا في نهاية العمر!

اغرورقت عينا «محمد فؤاد» بالدموع.. حاول سلوانه ببعض الكلمات ثم ودعه. تكاد أحشاؤه تتمزق ألماً.. قفل راجعاً وسار في الطريق إلى الجامعة.

«يا إلهي.. يارب، يا عظيم، لماذا بلغ شعبنا المسلم إلى هذه الحال؟ لماذا يغرق في مستنقع من ظلمات المصائب، والضيق، والحيرة، واليأس؟ يلهث خلف الخلاص والنجاة، ثم يدفن في القبر أو يلقى في غياهب السجون، أو يعيش في الحياة وهو ميت؟ يريد أن يكسب شيئاً فيخسر كل شيء، لماذا؟ هل نفد صبرنا إلى هذا الحد؟ هل انتزعونا من ذاتنا إلى هذا الحد؟

هل اقتربت الساعة! فنحن نخطو خطواتنا الأخيرة إليها؟ لماذا لا يفهم هذا الشعب - الذي حكم الدنيا عندما تمسك بعروتك الوثقى؟!

العذاب الذي أصابه عندما تخلى عن هذا الرباط المقدس؟ هل هذا علامة الساعة؟»

وتحول ذهنه إلى (ذو الكفل):

«كنا ندرك وجود خلل ما فيه، لكننا لم يخطر لنا أن يؤثر به الخلل هذا التأثير. لقد لقي عقاباً قاسياً، لقلة الصبر، والبحث عن النجاة بمنطق أعوج وطرق خاطئة. ولو صبر حتى انتهاء الدراسة والتوظيف، لقلت مشاكله ولساعد والديه ولو قليلاً، لكنه لم يصبر، أراد بلوغ الهدف بأقصر طريق.. فأتلف نفسه، وأنهك عائلته. شفاؤه غير مضمون.. حتى لو شفي، من يعلم كيف تؤثر حياة السجن في (ذو الكفل) الذي يأمل في أشياء كبيرة في الحياة؟ سؤال يصعب الجواب عنه!

ليت قومي يعلمون أن حلول المشاكل كلها ينبع من ذاتنا، بالاعتصام بحبل الله! آه.. ليتهم يعلمون!»

أخذته أمواج التفكير إلى أن وصل مسكن الطلبة، دعا الله عندما فتح الباب أن يرزقه الخير في كل شيء وخاطب نفسه « يجب أن نكون عباداً صالحين ليرزقنا الله من كل شيء أصلحه».

الجو في صالة الشاي حار يدير الرأس.

شاهد «مصطفى» جالساً في إحدى الموائد فاقترب منه.. وسحب كرسياً فجلس عليه. سأله «مصطفى»:

- من أين جئت؟

- ودعت (ذو الكفل)..

- ماذا حصل لـ (ذو الكفل)؟

- ألا تعلم؟

- قطعت صلتي به منذ طَرْده من المسكن، فكيف أعلم..

- لم يبق، من لم يسمع بأخباره!

- أعلمني إذن.. ماذا حدث؟

حكى «محمد فؤاد» ما حدث، فتح مصطفى فاه دهشة، وشرد حزيناً برهة من الزمن، ثم رفع رأسه:

- من العجب أننا لم ندرك..

سأل محمد فؤاد:

- لم ندرك ماذا؟

- عندما تحدثنا عن السارق يوماً، أنا وأنت وذو الكفل، قلت أنت: «إنك تسامح اللص لو علمت بأنه لم يذق السجق في حياته»، فرد عليك «ذو الكفل»: سامحه.. أنا واثق أنه لم يذق السجق في حياته.

- ماذا في ذلك؟

- ألم تفهم بعد؟

- لا.. لم أفهم شيئاً.

– كيف يؤكد إنسان لا يعرف اللص بأنه لم يذق السجق في حياته؟
فكر ملياً.. وتذكر أن اللص كان «ذو الكفل»، فأجاب:

– نعم.. نعم.

– هذا ما لم ندركه في حينه. شككت فيه لحظة حينما قال ذلك، لكنا لو فكرنا بعمق لأدركنا منذ ذلك الوقت أن اللص هو «ذو الكفل».

–إن عاقبته كانت وخيمة جداً.

– وخيمة.. نعم، وخيمة. ألم أكن قد أخبرتك بأن فيه خللاً غير معيّن.

– ومن منا ليس فيه خلل؟ لكن خلل بعضهم خطير!

– نعم.. خطير جداً أحياناً.

– ما أكثر أمثال «ذو الكفل» في المجتمع! ولو استمرت الحال هكذا.. ما أكثر من يلقى المصير نفسه.

– وما الحل؟

– الحل إبعادهم عما يقودهم إلى اليأس، وتعويدهم على التفكير السليم.

– وكيف يتعودون على التفكير السليم؟

– بتربية أرواحهم من المصادر السليمة.

– القرآن والسنة النبوية!

أثناء شرود «مصطفى» لمع نور في عيني «محمد فؤاد».. حدق في عيني صديقه الذي يعلم بأنه يشرب الخمر:

- مصطفى.. لنذهب إلى مكان لا ينفذ إليه الشر، ولا يوقع البغضاء بين الناس، ولا يذهب بعقولهم كما في الحانات. ولا تُسرق فيه أموال الناس من جيوبهم كما في أوكار القمار، ولا يتشاتم فيه الناس كما في المقاهي. مكان يمثل عقيدة تهدف إلى رعاية كل الصفات والقيم التي تجعل من الإنسان إنساناً! وينصح فيه بضرورة الاستقامة في التعامل بين البشر. لنذهب إلى مكان تخفق فيه عظمة العقيدة راية فوق رؤوسنا. مكان نغادره حين نغادره أطهاراً.. ونعود إليه حين نعود أطهاراً.. هلا نذهب إلى هذا المكان؟

أصابت الدهشة «مصطفى»! مط شفتيه وتوسعت حدقة عينيه:

- إلى أين نذهب؟

أشار «محمد فؤاد» بيده من خلال الشباك إلى موضع في الخارج:

- هناك!

التفت «مصطفى» حيث أشار «محمد فؤاد».. ابتسم مع حركة حاجبيه:

- حسناً.. كنت أفكر منذ زمن بالذهاب إليه. لقد حان الوقت لتغيير مجرى حياتي وربطها بالإسلام.

منارتا مسجد الجامعة تسموان في الفضاء بنقاء خالص.. كرايتين من نور مقدس..!



تعريف بالمؤلف

الاسم: نورالله كنج

حياته العلمية:

- ولد الشاعر التركي نور الله كنج في محافظة «أرضروم» سنة ١٩٦٠ م.

- أكمل دراسته الابتدائية بخوراسان.

- أكمل دراسة متوسطة الأئمة والخطباء في أرضروم.

- تخرج من كلية العلوم الإدارية والاقتصادية بجامعة أرضروم سنة ١٩٨٣ م.

- حصل على الماجستير من الكلية نفسها.

حياته العملية:

- تعيّن في جامعة أرضروم بعد التخرج.

- نشرت له مقالات في صحيفة ملّي غزته، ويني دوير

- كتب أولاً في «آيلق دركي» أي المجلة الشهرية - سدر - كولدستن - مساج - غُربة.

- أخذ جائزة النعت النبويّ (المدائح النبوية).

- حاز على جائزة «مايسون» لوزارة الثقافة والسياحة بقصيدته الموسومة بـ «الأماني أصبحت حقيقة» في سنة ١٩٨٧م.

- نال جائزة المرتبة الثانية في مسابقة أحسن قصيدة التي نظمتها صحيفة «العصر الجديد»

- حاز أيضاً على الجائزة الأولى في مسابقة أحسن قصيدة التي نظمتها صحيفة الشباب الوطني.

- نالت قصته «سادات اليوم الجديد» المرتبة الثالثة في مسابقة نظمتها مجلة «المكتب».

إنتاجه الأدبي:

١ - حتى لا تبرد الأزهار (ديوان شعر).

٢ - الأماني أصبحت حقيقة، (مجموعة قصصية).

٣ - الطرق تذهب بنا للعودة والانتظار (مجموعة قصصية).

٤ - الآمال صارت آلاماً (رواية) مترجمة إلى العربية، فازت بالجائزة الثانية في مسابقة الرابطة.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

منشورات رابطة
الأدب الإسلامي العالمية

١ – من الشعر الإسلامي الحديث – لشعراء الرابطة.
٢ – نظرات في الأدب – أبو الحسن الندوي.
٣ – ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
٤ – دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحيث. د. عبد الباسط بدر.
٥ – النص الأدبي للأطفال – د. سعد أبو الرضا.
٦ – ديوان «البوسنة والهرسك – مختارات من شعراء الرابطة.
٧ – لن أموت سدى «رواية» الكاتبة جهاد الرجبي (الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية.
٨ – ديوان «يا إلهي» – محمد التهامي.
٩ – يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» – د. عودة الله القيسي.
١٠ – ديوان مدائن الفجر – د. صابر عبد الدايم.
١١ – العائدة «رواية» سلام أحمد إدريسو» الرواية الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية.
١٢ – محكمة الأبرياء – «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.
١٣ – الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني – د. حلمي القاعود.

١٤ - ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» - د. جابر قميحة.

١٥ - ديوان «في ظلال الرضا» - أحمد محمود مبارك.

١٦ - في النقد التطبيقي - د. عماد الدين خليل.

١٧ - الشيخ أبو الحسن الندوي دراسات وبحوث - مجموعة من الكتاب.

١٨ - د. محمد مصطفى هدارة - دراسات وبحوث - مجموعة من الكتاب.

١٩ - معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢٠ - القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر - حليمة بنت سويد الحمد.

٢١- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٢ - قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية» محمد رشدي عبيد.

٢٣ - الآمال صارت آلاماً، رواية مترجمة عن التركية، تأليف د.نور الله كنج، ترجمة د.عوني لطفي أوغلو.

سلسلة أدب الأطفال

١- غرد يا شبل الإسلام، شعر، محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي، أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل، شعر، يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور، شعر قصصى، د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي، شعر، أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب، د.فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين «مجموعة قصصية للأطفال من الأدب التركي» تأليف علي نار، ترجمة شمس الدين درمش.

● تطلب من مكاتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

١ ـ مكتب المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ ـ ص.ب ٥٥٤٤٦
هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨ ـ ٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

٢ ـ مكتب الأردن: عمان ١١١٩٢ ـ ص.ب ٩٢٣٠٨٤
هاتف / فاكس: ٥٦٢٠٩٣٥

٣ ـ مكتب مصر: ص. ب ٨١ ـ باب اللوق ـ القاهرة ـ ١١٥١٣
هاتف وفاكس ٧٩٦١٥٠٢

٤ ـ مكتب المغرب: ص.ب ٢٣٨ وجدة ٦٠٠٠١
هاتف / فاكس : ٥٠١٩٢٥

تحت الطبع

١- ديوان «أقباس»، طاهر محمد العتباني.

٢- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة، د. كمال سعد خليفة.

٣- بحوث الملتقى الدولي الأول للأديبات الإسلاميات.

٤- بحوث ندوة تقريب المفاهيم عن الأدب الإسلامي.

٥- الأعمال الفائزة في مسابقة ترجمة الإبداع من آداب الشعوب الإسلامية (ستة كتب).

٦- الأعمال الفائزة في مسابقة الأديبات الإسلاميات (١٠كتب).

٧- الأعمال الفائزة في مسابقة أدب الأطفال التي أجرتها الرابطة، وهي:

- ٣ مجموعات شعرية.
- ٣ مجموعات قصصية.
- ٣ مسرحيات.

المترجم في سطور

- الاسم: عوني لطفي أوغلو.

- ولد بمدينة كركوك في العراق سنة ١٩٤٦م.

- تخرج في كلية العلوم الإدارية من جامعة بغداد سنة ١٩٦٤م.

- هاجر إلى تركيا وحصل على الجنسية التركية.

- نشر العديد من المقالات والبحوث والقصائد المترجمة من التركية إلى العربية، ويعكف على ترجمة الآثار الأدبية للشاعر التركي الكبير نجيب فاضل.

- حصل على الجائزة الثانية في ترجمة رواية (الآمال صارت آلاماً) للروائي التركي نور الله كنج في المسابقة التي أجرتها الرابطة لترجمة آداب الشعوب الإسلامية.

د. نور الله كنج



العبيكان

